رقائق إيمانية

في تزكية النفس وتقويم السلوك



ابراهيم النعمة

رقائق إيمانية
في تزكية النفس وتقويم السلوك

الطبعة الأولى
2011 -1432

إبراهيم النعمة

رقائق إيمانية
في تزكية النفس وتقويم السلوك

بسم الـلـه الرحمن الرحيم

كلمات مضيئة

قال الـلـه تعالى:

- (قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴿٧٧﴾)سورة النساء.
- (تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾) سورة القصص.

وقال النبيﷺ:

- «إِنَّ الـلـه عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا» رواه مسلم.
- «إياكم ومحقرات الذنوب؛ فإنّهنّ يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه» رواه الإمام أحمد.
- «والـلـه ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم اصبعه هذه–وأشار بالسبابة- في اليم فلينظر بم يرجع» رواه مسلم.

وقال عبد الـلـه بن عمر بن الخطاب رضي الـلـه عنهما:

- (إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك) رواه البخاري.

قال أبو ذر الغفاريرضي الله عنه:

- (يا أيها الناس، إني لكم ناصح، إني عليكم شفيق: صلوا في ظلمة الليل لوحشة القبور، وصوموا الدنيا لحرّ يوم النشور، وتصدقوا مخافة يوم عسير، يا أيها الناس، إنّي لكم ناصح، إنّي عليكم شفيق) كتاب الزهد للإمام أحمد بن حنبل.

قال رجل لإبراهيم بن أدهم: إنّي لا أقدر على قيام الليل، فصف لي دواءاً فقال: (لا تعصه بالنهار وهو يقيمك بين يديه في الليل، فإنّ وقوفك بين يديه في الليل من اعظم الشرف، والعاصي لا يستحق ذلك الشرف) تنبيه المغترين للشعراني.

طلب هرم بن حيان من أويس القرنيﷺ أن يوصيه فقال:

- (توسد الموت إذا نمت، واجعله نصب عينيك، وإذا قمت فادع اللـه أن يصلح لك قلبك ونيتك، فلن تعالج شيئا أشد منهما... ولا تنظر في صغر الخطيئة ولكن انظر إلى عظمة من عصيت) صفة الصفوة لابن الجوزي.

قال عدي بن زيد:

أيـــن أهـــل الـــديار مـــن قـــوم نـــوح ثـــم عـــاد مـــن بعـــدهم وثمـــود
أيــــن آباؤنــــا وأيــــن بنــــوهم أيــــن آبــــاؤهم وأيــــن الجــــدود
ســـلكوا مـــنهج المنايـــا فبـــادوا وأرانـــا قـــد حـــان منـــا ورود
بيـــنما هـــم عـــلى الأسرة والأنمـــاط أفـــضت إلى الـــتراب الخـــدود
ثـــم لم يـــنقض الحـــديث ولكـــن بعـــد ذاك الوعيـــد والموعـــود
وأطبـــاء بعـــدهم لحقـــوهم ضـــل عـــنهم صـــعوطهم واللـــدود[1]
وصـــحيح أضـــحى يعـــود مريـــضا هـــو أدنى للمـــوت ممـــن يعـــود

---

(1) الصعوط والسعوط: اسم للدواء يصب في الأنف، واللدود من الادوية مايُسقاه المريض في أحد شقي الفم. ينظر: سير أعلام النبلاء للذهبي 110/5.

مقدمة

نحمدك اللـهم ونستهديك، ونستعين بك ونتوكل عليك، ونصلي ونسلم صلاة طيبة زاكية مباركة على من ختمتَ به الشرائع، وأرسلته رحمة للعالمين، سيدنا محمدﷺ، وعلى آله الطيبين، وأصحابه الذين اصطفيتهم من خلقك، وائتمنتهم على تبليغ شرعك الشريف إلى الناس كافة.! اللـهم صلّ على محمد وآل محمد، وآته الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاما محمودا الذي وعدته، إنّك لا تُخلف الميعاد.!

أمّا بعد:

فكل مسافر إذا أراد سفرا طويلا لابد له أن يتزود بزاد لسفره، فإذا لم يكن له زاد فلا يستطيع السفر، وإذا بدأ السفر فلا يستطيع من مواصلته. وزاد المسلم هو الإيمان الحق، فهو الذي يجدد فيه القوة، ويبعث فيه الحيوية والقدرة على السير في الطريق الصحيح من غير أن ينحرف ذات اليمين أو ذات الشمال. وما مثل الزاد الروحي للمسلم إلا كمثل السيارة، فإنّها تظل تعمل وتقطع المسافات الطويلة ما دام وقودها متوافرا فيها، فإذا نفد الوقود ولم يُجدد لها، تصير قطعة من الحديد لا تُعين صاحبها على الوصول إلى البلد الذي يريد. وهكذا الأمر بالنسبة للزاد الروحي للمسلم من تقوى اللـه وطاعته، وعبادته العبادة الصحيحة، وتزكية نفسه، وتهذيب سلوكه على منهج القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة؛ لأنّ الزاد الروحي هو الذي يشحذ الهمم، ويقوّي العزائم، وهو طريق الفلاح ودرب النجاح، وصاحبه تبعث فيه قوة روحية عجيبة، وتكون له شخصية قوية فذة، تؤثر بنفوس الناس وأرواحهم ومهجهم، ويجد صاحب هذا الزاد

الطمأنينة والراحة والسعادة الحقيقية التي يفتقدها غيره. ونقرأ تاريخ الذين أثّروا بالمجتمعات الإسلامية تأثيرات واضحة، فنراهم ممن تزودوا بزاد روحي كبير، والله ﷻ بعث نبيه محمداﷺ ليزكي نفوس من بُعث فيهم، ويحلّيهم بفضائل ومكارم الأخلاق، فقال تعالى:

(**هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢﴾**) سورة الجمعة.

أجل إن المسلم بدون ذلك لا يكون إلا جثة هامدة، والله ﷻ يقول:

(**أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾**) سورة الأنعام.

لقد كتب كثير من أئمتنا العظام وعلمائنا الأفذاذ كتبا ورسائل قيمة في تزكية النفس والسلوك، وكان لهذه الكتب والرسائل أثرها البالغ في تقويم الخُلق واعتدال السلوك في عصرهم وبعد عصرهم، وإلى يوم الناس هذا، ينهلون من فيضه العذب، ومائه الزلال. ويمضي الزمن، ويعيش الناس في القرن الواحد والعشرين وقد حفّت أبناءه المغريات من كل جانب، وتعددت مشاغل الناس أكثر من ذي قبل: فانشغل قسم منهم بالكد والتعب من أجل الحصول على لقمة العيش، -وهو ضرورة من الضروريات- وانشغل قسم ثانٍ من مثقفينا بالمبتكرات التكنولوجية التي أخذت بالألباب، وأذهلت العقول، وانشغل قسم ثالث بالقضايا السياسية التي لا تستقر على حال من الأحوال، وكيف يكون لها استقرار، وقد بُني الكثير منها على

الكذب والدجل والمراوغة والمخادعة...! والمنعم النظر في حال مجتمعنا، يرى أنّه بحاجة ماسّة إلى الـزاد الروحـي؛ ليتغـذى بـه المـسلمون عامـة والـشباب خاصّـة؛ لعلّهـم يحـافظون عـلى شخصيتهم ولا يذوبون في بوتقة الحضارة الغربية الوافدة.

ولابد لي أن أشير هنا إلى أنّ العمل في تزكية النفس والتربية الروحية يُمثّل جـوهر الإسـلام الصحيح، والأصل فيـه: التطبيـق العمـلي ولـيس الكـلام وحـده. فـإنّ الكـلام في تزكيـة الـنفس والسلوك والدعوة إلى الزهد والورع والتقوى يقدر عليه كل أحد، ولكن لا يـستطيع أن يمـارس ذلك ممارسة عملية إلا الأفذاذ من عبـاد اللـــه الـصالحين، أولئـك الـذين ذاقـوا لـذة العبـادة فكانت سلوتهم في الحياة.

وهذا الكتاب المتواضع يبحث في قضايا مهمة تؤدي –إن شاء اللـه- إلى تقويـة الجوانـب الروحية لدى المسلم إذ تذكّره بموضوعات مهمة منها: الإخلاص، وصلاة الجماعة، وقيام الليـل، وتلاوة القرآن، والدعاء، والتوبة، وذكر الموت، والزهد، وإنفاق المال في سبيل اللـه، والجهـاد في سبيل اللـه، ومداخل الشيطان إلى النفس البشرية، وخاتمة في حسن الخاتمة.

وقد ركـزت في مباحـث الكتـاب عـلى مـا ورد في القـرآن الكـريم أولا، وفي الـسنة النبويـة الشريفة ثانيا، وفي نمـاذج مـن صـحابة النبـيﷺ بعـد ذلـك، مـع شيء مـن الـشرح والتعليـق، وقصرت الحديث على هذه المنابع الثلاثة لأنّي لم أجد -في حـدود معرفتـي- كتابـا اقتـصر عـلى هذه الثلاثة فقط، وسميته (رقـائق إيمانيـة في تزكيـة الـنفس وتقـويم الـسلوك). وقـد نـسبت

الآيات إلى سورها، وخرّجت الأحاديث ليطمئنّ القارئ إلى حكمها في الصحة أو الحسن، مكتفيا بذكر عدد قليل ممن أخرجها؛ لأنّ الكتاب ليس بكتاب حديث. وهناك موضوعات أخرى لا تقل أهمية عن موضوعات هذا الكتاب لم اتطرق إليها خشية الإطالة. ولعلّ ما ذكرته هنا يكون سببا في تزكية النفوس وتقويم السلوك.

وأرى من الواجب عليّ أن أردّ الفضل إلى أهله، فأعترف أنّي أفدت من كتاب (في التزكية والسلوك) لأخي الفاضل الداعية الأستاذ عدنان سعد الدين تغمده الله برحمته الواسعة! والله أسأل أن يجعل عملي هذا وغيره من الأعمال خالصا لوجهه الكريم، وينفعني به يوم الدين، مؤملا أن لا ينساني القارئ الكريم من صالح دعواته! والله يقول الحق وهو يهدي السبيل!.

إبراهيم النعمة

الفاتح من شوال/1432

الإخلاص

الإخلاص شعبة من شعب الإيمان، بل هو من أرفع تلك الشعب. والمراد به: أن يكون كل قول من أقوال المسلم أو عمل من أعماله مرادا به وجه الله والدار الآخرة، من غير نظر إلى جاه أو مثوبة من أي إنسان كان. فهو ثمرة من ثمرات التوحيد الخالص لله، ومحله القلب لا يطلع عليه أحد من الناس. والعمل مهما عظم بلا إخلاص يعد جسدا بلا روح. وقد أراد الله تعالى منا حقيقة العمل وليس صورته. وقد تحدث الإمام الغزالي عن حقيقة الإخلاص وأنه طريق السعادة الحقيقية فقال:

(فقد انكشف لأرباب القلوب ببصيرة الإيمان، وأنوار القرآن، أن لا وصول إلى السعادة إلا بالعلم والعبادة، فالناس كلهم هلكى إلا العالمون، والعالمون كلهم هلكى إلا العاملون، والعاملون كلهم هلكى إلا المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم، فالعمل بغير نية عناء، والنية بغير إخلاص رياء، وهو للنفاق كفاء، ومع العصيان سواء، والإخلاص من غير صدق وتحقيق هباء)(1)

وأشار العلامة ابن قيم الجوزية رحمه الله إلى أن الإخلاص وحب الثناء والطمع لا يجتمعان في قلب إنسان فقال:

(لا يجتمع الإخلاص في القلب ومحبة المدح والثناء والطمع فيما عند الناس إلا كما يجتمع الماء والنار والضب والحوت فإذا حدثتك نفسك بطلب الإخلاص فاقبل على الطمع أولا فأذبحه بسكين اليأس وأقبل على

(1) إحياء علوم الدين تأليف الإمام أبي حامد الغزالي 3/5، ضبط نصه وخرّج أحاديثه: محمد محمد تامر، الطبعة الأولى 1424-2004، مؤسسة المختار، القاهرة.

المدح والثناء فازهد فيهما زهد عشاق الدنيا في الآخرة فإذا استقام لك ذبح الطمع والزهد في الثناء والمدح سهل عليك الإخلاص)(1).

فلا يقبل اللـه من العمل إلا ما كان خالصا لوجهه الكريم. فإذا عمل الإنسان عملا يبتغي به غير وجه اللـه تعالى، فإنه يرمى به في وجهه يوم القيامة. فمن تصدق مباهاة، وطلب العلم ليقال له عالم، أو قاتل من أجل أن يقال فيه إنه جريء شجاع ....إن كل واحد من هؤلاء وأشباههم يحبط عمله، ولا ينتفع منه يوم القيامة، واللـه تعالى يقول (**وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴿٢٣﴾**) سورة الفرقان.

(فالاخلاص هو قارب النجاة لكل السائرين والسالكين .. إنه طريق الهدى والتقى، وهو المفتاح لكل أبواب الخير، بل هو السر الرباني الذي استودعه اللـه قلوب عباده الذين يحبهم ويحبونه)(2).

(والإخلاص أمره عظيم، وسبيل الحصول عليه ليس بالأمر اليسير، فلا بد من مجاهدة النفس للحصول عليه، وقد سئل سهل بن عبد اللـه التستري: أي شيء أشد على النفس؟ فقال: [الإخلاص؛ لأنه ليس لها فيه نصيب])(3).

---

(1) الفوائد لابن قيم الجوزية ص149، الطبعة الثانية، 1393 – 1973، دار الكتب العلمية، بيروت.

(2) في التزكية والسلوك تأليف: عدنان سعد الدين ص44، الطبعة الثانية، 1428-2007، دار عمار، عمان، الأردن.

(3) مدارج السالكين لأبن قيم الجوزية 92/2، تحقيق محمد حامد الفقي، الطبعة الثانية 1393-1973، دار الكتاب العربي، بيروت.

الإخلاص في القرآن الكريم

تكاثرت آيات القرآن الكريم في الدعوة إلى إخلاص القول والعمل لـلـه وحـده -وبخاصـة الآيات المكية- ذلك أن الإخلاص يمثل التوحيد الذي قام عليه هذا الدين، وأمر به كل نبي مـن أنبياء الـلـه، وكل رسول من رسله يقول الـلـه ﷻ :

(وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّـذِينَ مِـنْ قَبْلِـكَ لَـئِنْ أَشْرَكْـتَ لَيَحْـبَطَنَّ عَمَلُـكَ وَلَتَكُـونَنَّ مِـنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾) سورة الزمر.

وتوالت آيـات القـرآن نـزولا عـلى النبـيﷺ تـأمره بـإخلاص الـدين لـلــه وابتغـاء وجهـه الشريف، قال الـلـه تعالى:

(إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِـالْحَقِّ فَاعْبُـدِ الـلــه مُخْلِـصًا لَـهُ الـدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لـلــه الـدِّينُ الْخَالِصُ) سورة الزمر/ ٢ – ٣.

وقال:

(قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لـلـه رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَـهُ وَبِـذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾) سورة الأنعام.

وقال:

(وَاصْـبِرْ نَفْـسَكَ مَـعَ الَّـذِينَ يَـدْعُونَ رَبَّهُـمْ بِالْغَـدَاةِ وَالْعَـشِيِّ يُرِيـدُونَ وَجْهَـهُ) سـورة الكهف/٢٨.

وقال:

(إِلَّا الَّـذِينَ تَـابُوا وَأَصْـلَحُوا وَاعْتَـصَمُوا بِالـلــه وَأَخْلَـصُوا دِيـنَهُمْ لـلــه فَأُولَئِـكَ مَـعَ

الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللـه الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾) سورة النساء.

وقال:

(**وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللـه مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾**)سورة البينة.

ومدح اللـه الذين صبروا على مشقة الطريق ابتغاء وجه اللـه فقال:

(**وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾**) سورة الرعد.

ولا تكون الأعمال الطيبة من الصدقات والإصلاح بين الناس وغيرهما مقبولة عند اللـه إلا إذا كان العمل يبتغى به مرضاة اللـه، ٹ ڈ

(**لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللـه فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾**)سورة النساء.

وقد أمر اللـه تعالى الناس أن يخصوه بالعبادة وحده ويخلصوا طاعتهم فيها، مبتغين بذلك وجه اللـه، فقال تعالى:

(**قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾**) سورة الأعراف.

الإخلاص في أحاديث النبيﷺ

وكما كثرت الآيات التي تحضّ المسلم على الإخلاص في القرآن الكريم، فقد كثرت -أيضا- أحاديث النبيﷺ في هذا، من ذلك قوله

صلوات الـلـه وسلامه عليه:

«إنما الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُـلِّ امْـرِئٍ مـا نَـوَى فمـن كانـت هجرتـه إلى الـلــه ورسـوله فهجرته إلى الـلـه ورسوله، ومن كانت هِجْرَتُهُ لدُنْيَا يُـصِيبُهَا أو امْـرَأَةٍ يَنْكِحُهَـا فَهِجْرَتُـهُ إلى مـا هَاجَرَ إليه»(1).

ولفظ الأعمال في الحديث: «إنما الأعـمال بالنيـات» يـشمل الأقـوال والأعـمال؛ لأن المـراد قصد عمل الجوارح ، ومنها: اللسان. ولأهمية هذا الحديث ذكر الإمام الشافعي أنه يـدخل في سبعين باباً من أبواب الفقه. وهـو يـنص عـلى أن الأعـمال والأقـوال لا تقبـل إلا بـإخلاص نيـة صاحبها لـلـه، فإن كانت النية لغير وجه الـلـه، فإن الـلـه تعالى يترك عمله لذلك الشريك، ولذا قال الـلـه تعالى في الحديث القدسي: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك: من عمـل عمـلا أشرك فيـه معي غيري تركته وشركه»(2).

وحذر النبيﷺ من يعمل عملا لغير وجه الـلـه تعالى فقال:

«إِنَّ أَوَّلَ النـاس يُقْـضَى يـوم الْقِيَامَـةِ عليـه رَجُـلٌ اسْتُـشْهِدَ فَـأُتِيَ بِـهِ فَعَرَّفَـهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا قال فما عَمِلْتَ فيها قال قَاتَلْتُ فِيـكَ حتـى اسْتُـشْهِدْتُ قـال كَـذَبْتَ وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لأَنْ يُقَالَ جَرِيءٌ فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ على وَجْهِهِ حتى أُلْقِـيَ في النَّــارِ وَرَجُــلٌ تَعَلَّــمَ الْعِلْــمَ وَعَلَّمَــهُ وَقَــرَأَ الْقُــرْآنَ فَــأُتِيَ بِــهِ فَعَرَّفَـهُ نِعَمَـهُ

---

(1) رواه البخاري في كتاب بدء الوحي (باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الـلـهﷺ...) 1/1، حديث 1، طبعة دار الفيحاء ودار السلام، ومسلم في كتاب الإمارة (باب: قول النبيﷺ: إنما الأعمال بالنية) 853/1، حديث 4927، طبعة دار الفيحاء ودار السلام.

(2) رواه مسلم في كتاب الزهد (باب: من أشرك في عمله غير الـلـه) 2289/4، حديث 2985.

فَعَرَفَهَا قال فما عَمِلْتَ فيها قال تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ قال كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ عَالِمٌ وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ هو قَارِئٌ فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ على وَجْهِهِ حتى أُلْقِيَ فِي النَّارِ وَرَجُلٌ وَسَّعَ الله عليه وَأَعْطَاهُ من أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا قال فما عَمِلْتَ فيها قال ما تَرَكْتُ من سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فيها إلا أَنْفَقْتُ فيها لك قال كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ هو جَوَادٌ فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ على وَجْهِهِ ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ»(1).

إن هذه الأعمال من القتال في المعركة ضد المشركين، وتعلم العلم، وقراءة القرآن، وإنفاق المال للفقراء وذي الحاجة هي من الأعمال الطيبة، لكنها لا تنفع صاحبها؛ إذا لم يقصد بها وجه الله.

وعن أبي موسى الأشعريﷺ قال: سئل رسول اللهﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياءا أي ذلك في سبيل الله؟ فقال رسول اللهﷺ «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»(2).

إن كل صنف من هذه الأصناف الثلاثة تقاتل مع الصف الإسلامي إذا دعا داعي الجهاد، لكنهم لا ينتفعون من قتالهم في الدار الآخرة شيئا؛ ذلك لأن كل صنف من هذه الأصناف كانت له نيته الخاصة به في قتاله:

---

(1) رواه مسلم في كتاب الإمارة (باب: من قاتل للرياء والسمعة استحق النار)، 1514/3، حديث 1905.

(2) متفق عليه: رواه البخاري بارقام 123و2810و3126و7458، ومسلم واللفظ له في كتاب الإمارة (باب: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله، 1513/3، حديث 1904.

فالأول قاتل شجاعة، والثاني قاتل أنفة ومحاماة عن عشيرته، والثالث قاتل ليرى الناس قتاله فيحمدوه. إنّ هذه النيات الثلاث ليست في ميزان اللـه في شيء، ولا يصح أن توضع مع الإخلاص، فقد أخذ كل صنف من هؤلاء حظه في الدنيا، ولا حظ له يوم القيامة، أما من قاتل ليعلي كلمة اللـه، فهو المجاهد في سبيل اللـه الذي يأخذ حظه يوم يقوم الناس لرب العالمين.

وقال النبيﷺ:

«إنّ اللـه لا ينظر إلى اجسامكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم –وأشار باصبعه إلى صدره-»(1).

وقال:

«ثَلاثٌ من كُنَّ فيه وَجَدَ حَلاوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللـه وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إليه مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لا يُحِبُّهُ إلا للـه، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ في الْكُفْرِ كما يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ في النَّارِ»(2).

وقال:

«...ثلاث لا يغل (يخون) عليهن قلب مؤمن: إخلاص العمل للـه، والنصيحة لولاة المسلمين، ولزوم جماعتهم، فإن دعوتهم تحيط من ورائهم»(3).

---

(1) رواه مسلم في كتاب البر والصلة (باب: تحريم ظلم المسلم) 1987/4 حديث 2564.

(2) متفق عليه: اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان البخاري ومسلم، وضعه محمد فؤاد عبد الباقي ص18، حديث 26، دار الحديث القاهرة 1424-2003.

(3) رواه ابن ماجه 1016/2، حديث 3056.

وقالﷺ لمعاذ بن جبل:

«أخلص العمل يجزك القليل منه»(1).

ويبدو من هذا الحديث أن قبول العمل لا يتوقف على كثرته، بل يتوقف على الإخلاص فيه. وهذه الأحاديث -وغيرها كثير- تنصُّ على أهمية النية في كل قول يقوله المسلم وعمل يعمله.

الرياء(2)

ويقابل الإخلاص الرياء: وهو نوع من أنواع الشرك في العبادة. وقد سماه رسول اللهﷺ بالشرك الأصغر، وهو محبط للعمل، وليس له ثواب. وصورته: أن يطلب الإنسان المنزلة والتعظيم عند الناس بعمل الآخرة: كالذي يصوم ويصلي ليعظمه الناس ويثنوا عليه. يقول اللهﷻ:

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا) سورة الكهف/١١٠.

وقد ورد في سبب نزول الآية: (أن رجلاً قال للنبي ﷺ: يا نبي الله، إني أحب الجهاد في سبيل الله، وأحب أن يرى مكاني، فأنزل الله تعالى هذه الآية) (3).

وقال تعالى:

(1) رواه الحاكم في المستدرك 341/4، حديث 7844، والديلمي في الفردوس كلاهما عن معاذ بن جبل 435/1، حديث 1772.

(2) عن كتابنا: فقه الداعية ص113-115، 1431-2010، مطبعة استثمار الوقف السني، بغداد.

(3) أسباب نزول القرآن للواحدي ص 308.

(فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿٧﴾) سورة الماعون.

وقد كان ﷺ يخاف على أمته من الشرك الأصغر. ومن أحاديثه في هذا قوله:

«إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر». قالوا: وما الشرك الأصغر؟ قال: «الرياء. إن الله -تبارك وتعالى- يقول يوم تجازى العباد بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون بأعمالكم في الدنيا فانظروا: هل تجدون عندهم جزاءاً»(1).

وقوله -صلوات الله وسلامه عليه-:

«إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه نادى مناد من كان اشرك في عمل عمله لله - تبارك وتعالى - احداً فليطلب ثوابه من عند غير الله عز وجل فإن الله عز وجل أغنى الشركاء عن الشرك»(2).

وقوله ﷺ:

«من تعلم علماً مما يبتغى به وجه الله لا يتعلمه إلاّ ليصيب عرضاً من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة»(3).

آثار الرياء

وللرياء آثار سيئة ينالها المراءون منها:

(1) رواه الإمام أحمد في مسنده 428/5 – 429.

(2) رواه الإمام أحمد في المسند 338/12، حديث 15782.

(3) رواه أبو داؤد في كتاب العلم (باب: في طلب العلم لغير الله تعالى). عون المعبود 56/10، حديث 3661.

1– عدم قبول أعمالهم. قال اللـه ﷻ:

(**وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴿٢٣﴾**)سورة الفرقان.

فلم تنفع هذه الأعمال أصحابها، لأنها كانت خالية من الإخلاص للـه وحـده، وقـد سـئل الفضيل بن عياض –رحمه اللـه– عن العمل المقبول عند اللـه فقـال: هـو أخلـصه وأصـوبه. قالوا: يا أبا علي، ما أخلصه وأصوبه؟ فقال: (إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبـل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل لم يقبل حتى يكون خالصاً صواباً. والخالص: أن يكـون للـه، والصواب: أن يكون على السنة) (1).

2– يكون المرائي مبغوضاً عند الناس، لأن اللـه يبغضه. قال النبي ﷺ:

«إن اللـه إذا أحب عبداً دعا جبريل فقال: إني أحب فلاناً فأحبه، قال: فيحبه جبريل، ثـم ينادي في السماء فيقول: إن اللـه يحب فلاناً فأحبوه، فيحبه أهل السماء. قال: ثـم يوضـع لـه القبول في الأرض. وإذا أبغض عبداً دعا جبريل فقال: إني أبغـض فلانـاً فأبغـضه. قـال: فيبغـضه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء: إن اللـه يبغض فلاناً فأبغضوه. قال: فيبغضونه ثم توضع له البغضاء في الأرض»(2).

3– المراءون أول من تسعر بهم نار جهنم يوم القيامة. قال النبي ﷺ:

«إن أول النـاس يقـضى يـوم القيامـة عليـه رجـلٌ أستـشهد، فـأتي بـه فعرَّفـه

---

(1) مدارج السالكين لابن قيم الجوزية 89/2. بتحقيق: محمد حامد الفقي، الطبعة الثانية 1393-1973، دار الكتاب العربي، بيروت.

(2) رواه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب (باب: إذا أحب اللـه عبداً حببه إلى عباده) 2030/4.

نعمه فعرفها قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال جرئ، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى أُلقي في النار، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن، فأتي به فعرّفه نعمه فعرفها قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم، وعلمته، وقرأت فيك القرآن. قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم، وقرأت القرآن ليقال هو قارئ فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى أُلقي في النار. ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله، فأُتي به فعرفه نعمه فعرفها قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال هو جواد، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى أُلقي في النار»(1).

هذه الآثار السيئة للمرائين وغيرها، هي التي جعلت الصحابة يخافون من هذا الداء، فكانوا يدعون الله أن تكون أعمالهم خالصة لوجه الله، لئلا يصيبهم من آثار هذا المرض ما يصيبهم، فكان من دعاء سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ:

(اللهم اجعل عملي كله صالحاً، واجعله لوجهك خالصاً، ولا تجعل لأحد فيه شيئاً)(2).

لذلك على المسلم أن يكون يقظاً في كل قول يقوله وعمل يعمله، بل

(1) رواه مسلم في كتاب الإمارة (باب: من قاتل للرياء والسمعة استحق النار) 1514/3.

(2) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي لابن قيم الجوزية ص 112. صححه وعلق عليه: عبد الوهاب فايد، مطبعة محمد علي صبيح 1377-1958.

في كل خلجة من خلجات نفسه، ليطرد ما يعكر على القلب إيمانه، ويشوه نقاءه، فلا يعمل العمل إلاّ لله.

علاج الرياء

إن حمل المسلم نفسه على الإخلاص وتصفيتها من أية شائبة كانت من شوائب الرياء ليس بالأمر الهين، لأن ذلك يعني أن يتغلب المسلم على حظوظ نفسه وأغراضها الدنيوية؛ فلا يستطيع أن يصل إلى الإخلاص الصحيح إلا بالمجاهدة الشديدة والمراقبة الدائمة للشيطان ومداخله وما أكثر مداخله! فإذا أصيب المسلم بهذا الداء الوبيل والشر المستطير الذي يورد صاحبه موارد الهلكة إذ يقوده إلى جهنم وبئس المصير، فلا بد له أن يعمل على التخلص منه،ودفعه بأية وسيلة كانت، وأهم تلك الوسائل وسيلتان:

الأولى: اقتلاع جذوره من النفوس، ويكون في الخطوات الآتية:

أ- أن يراقب المسلم ربه ﷻ مراقبة دقيقة في كل أقواله وأعماله ونياته، متذكراً أنه – تبارك وتعالى– يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور: فيراقب المسلم نفسه قبل أن يأتي العمل، وحين البدء، وفي أثنائه سائلاً نفسه: هل كانت نيتي في الإقدام على العمل أو الإحجام عنه رضوان الله أم لا؟

ب- أن يتذكر أن الرياء محبط للعمل، وان مصير المرائين إلى جهنم... وأنه الخطر الكبير الذي يهدد مستقبل المرائين، فكيف لا يعمل على التخلص منه؟

ج- أن يُعوِّد نفسه على القيام بأعمال خفية بعيدة عن أنظار الناس،

ليكون بعيداً عن الرياء: كصلاة النافلة، والتصدق على الفقراء... الخ.

الثانية: دفع ما يخطر في باله في الحال، وذلك بتذكره أن اللـه ﷻ عالم بحال الإنسان، مطلع على أعماله: فهو يرجو رضوان اللـه فقط، لايهمه أطلع الناس على ما يقدمه من طاعات أم لم يطلعوا، ما دام يبتغي رضوان اللـه، ويطمع في جنته.

وبهذا التفكير ومجاهدة النفس من نزغات الشيطان، يتخلص الإنسان من الرياء أو يكاد...!

ولا تظنن أخي –المسلم– أن الشيطان يتركك إن لم يفلح في إغوائك مرة واحدة، بل يعود إليك مرات ومرات، ملقياً ما يستطيع إلقاءه من نزغات النفس، وحين يعمل المسلم بجد على دفع ما يخطر في باله في الحال يتمكن من مقاومة هذا الداء الوبيل داء الرياء...!(1).

إخلاص الصحابة

كل من يقرأ ما كان عليه الصحابة من حرصهم على الإخلاص للـه في كل قول يقولونه وعمل يعملونه، يرى اهتمامهم الكثير بأمر الإخلاص؛ ذلك لأن مداخل الشيطان إلى النفس البشرية كثيرة، توسوس في نفس الإنسان لتجعله يبتعد عن مرضاة اللـه؛ طلبا للدنيا. ولما كانت آيات القرآن الحكيم وأحاديث النبيﷺ كثيرة في الدعوة إلى إخلاص القول والعمل، فقد صارت توصياتهم ومواقفهم كثيرة كثيرة، وهذه أمثلة على ذلك:

(1) عن كتابنا فقه الداعية 113-115.

1- قال الصحابي الجليل عبد اللـه بن مسعودﷺ يوصي إخوانه وتلاميذه:

(كُونُوا يَنَابِيعَ الْعِلْمِ، مَصَابِيحَ الْهُدَى، أَحلاسَ الْبُيُوتِ، سُرُجَ اللَّيْـلِ، جُـدُدَ الْقُلُـوبِ، خُلْقَـانَ الثِّيَابِ، تُعْرَفُونَ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ، وَتَخْفَوْنَ على أَهْلِ الأرض)(1).

2- خَرَجَ عمر بن الخطابﷺ يَوْمًا إلى مَسْجِدِ رسول اللــه ﷺ فَوَجَـدَ مُعَـاذَ بـن جَبَـلٍ قَاعِدًا عِنْدَ قَبْرِ النبيﷺ يَبْكِي فقال: ما يُبْكِيكَ؟ قال: يُبْكِينِي شَيْءٌ سَمِعْتُهُ من رسـول اللــه ﷺ، سمعت رَسُولَ اللـهﷺ يقول: «إِنَّ يَسِيرَ الرِّيَاءِ شِرْكٌ، وَإِنَّ من عَادَى لـلـه وَلِيًّا فَقَدْ بَـارَزَ اللــه بِالْمُحَارَبَةِ، إِنَّ اللـه يُحِبُّ الأَبْرَارَ الأَتْقِيَاءَ الأَخْفِيَاءَ الَّذِينَ إذا غَـابُوا لم يُفْتَقَـدُوا، وَإِنْ حَـضَرُوا لم يُدْعَوْا ولم يُعْرَفُوا، قُلُوبُهُمْ مَصَابِيحُ الْهُدَى، يَخْرُجُونَ من كل غَبْرَاءَ مُظْلِمَةٍ»(2).

إنها الحساسية من الوقوع في أي لون كان من ألوان الشرك –ولو كان ضئيلا- لأن مداخله إلى النفس الإنسانية كثيرة. ومحاسبة النفس هكذا تـربي في المـسلم الإخـلاص الـذي دعـا إليـه القرآن الكريم، ودعا إليه رسول اللـهﷺ.

3- قال سـليم بـن حنظلـة: (بينـا نحـن حـول أُبيّ بـن كعـب نمـشي خلفـه إذ

(1) اتحاف السادة المتقين بشرح احياء علوم الدين لمحمد الزبيدي 16/10-17، الطبعة الأولى 1409-1989، دار الكتب العلمية بيروت.

(2) رواه ابن ماجه في كتاب الفتن (باب: من ترجى له السلامة من الفتن) 1320/2-1321، حديث 3989، والحاكم في المستدرك 364/4، حديث 7933.

رأى عمر، فعلاه بالدرة! فقال: انظر يا أمير المؤمنين ما تصنع؟ فقال: إن هذه ذلة للتابع، وفتنة للمتبوع)(1).

4- قال الطبري: (لما هبط المسلمون المدائن، وجمعوا الأقباض، أقبل رجل بحق معه فدفعه إلى صاحب الأقباض، فقال والذين معه: ما أرينا مثل هذا قط ما يعدله ما عندنا ولا يقاربه، فقالوا هل أخذت منه شيئا؟ فقال: أما والله لولا الله ما أتيتكم به، فعرفوا أن للرجل شأنا فقالوا: من أنت؟ فقال: لا والله لا أخبركم لتحمدوني ولا غيركم ليقرظوني، ولكني أحمد الله وأرضى بثوابه؛ فأتبعوه رجلا حتى انتهى إلى أصحابه؛ فسأل عنه، فإذا هو عامر بن عبد قيس)(2).

هكذا يستعلي الإيمان على متاع الدنيا مهما كثر. فقد حصل هذا الرجل على مال كثير لا يقدر بثمن لمّا فتحوا المدائن، ولو أراد أن يخفيه ويأخذه لنفسه لكان من أغنى الناس، لكنه الإيمان مع النية الخالصة لله يمثله قوله (أما والله لولا الله ما أتيتكم به) وحين طلبوا منه أن يعرفهم باسمه أبى ذلك وقال: (لا والله لا أخبركم لتحمدوني). إنه الإخلاص في صورة من أبهى الصور.

5- عن أبي بكر بن أبي موسى الأشعري قال: سمعت أبي وهو بِحَضْرَةِ الْعَدُوِّ يقول قال رسول اللهﷺ «إِنَّ أَبْوَابَ الْجَنَّةِ تَحْتَ ظِلالِ السُّيُوفِ» فَقَامَ رَجُلٌ رَثُّ الْهَيْئَةِ فقال: يا أَبَا مُوسَى، آنْتَ سَمِعْتَ رَسُولَ

(1) اتحاف السادة المتقين للزبيدي 10/10.
(2) تاريخ الطبري 2/ 465، دار الكتب العلمية، بيروت.

الـلـه ﷺ يقول هذا؟ قال: نعم. قال: فَرَجَعَ إلى أَصْحَابِهِ فقال: أَقْرَأُ عَلَـيْكُمْ الـسَّلامَ. ثُـمَّ كَـسَرَ جَفْنَ سَيْفِهِ، فَأَلْقَاهُ ثُمَّ مَشَى بِسَيْفِهِ إلى الْعَدُوِّ فَضَرَبَ بِهِ حتى قُتِلَ)(1).

6- عن شداد بن الهاد ﷺ: أن رجلا من الأعراب جاء إلى النبيﷺ فآمن بـه واتبعـه، ثـم قال: أُهاجر معك، فأوصى به النبيﷺ بعض أصحابه، فلمّا كانـت غـزوة غـنم النبـيﷺ سـبيا؛ فقسم، وقسم له، فأعطى أصحابه ما قسم له، وكان يرعـى ظهـرهم، فلـما جـاء دفعـوه إليـه، فقال: ما هذا؟ قالوا: قسم قسمه لك النبيﷺ؛ فأخذه فجاء به إلى النبـيﷺ فقـال: مـا هـذا؟ قال (قسمته لك) قال ما على هذا اتبعتك، ولكني اتبعتك على أن أرمى إلى هاهنـا -وأشـار إلى حلقه بسهم-؛ فأموت، فأدخل الجنة فقال: «إنْ تصدق الـلـه يَصدقك»، فلبثوا قليلا ثم نهضوا في قتال العدو؛ فأتي بهﷺ يحمل قد أصابه سـهم حيـث أشـار؛ فقـال النبـيﷺ: «أهـو هـو؟!» قالوا: نعم. قال: «صدق الـلـه فصدقه» ثمّ كفنه النبيﷺ في جبة النبي، ثم قدّمه فصلى عليه، فكان مما ظهر من صلاته:

«الـلـهم هذا عبدك، خرج مهاجرا في سبيلك، فقتل شهيدا، أنا شهيد على ذلك»(2).

إنّ هـذا الأعـرابي يعلمنـا الإخـلاص كيـف يفعـل فعلـه في نفـس المـسلم:

---

(1) رواه مسلم في كتاب الإمارة (باب: ثبوت الجنة للشهيد) 1511/3، حديث 1902.

(2) رواه النسائي في كتاب الجنائز (باب: الصلاة على الشهداء) 43/2-44، حديث 1952، صحيح سنن النسائي لمحمد ناصر الدين الألباني، الطبعة الأولى 1419-1998، مكتبة المعارف، الرياض.

فقد كان حديث عهد بالإسلام، لم يمضِ على إسلامه غير وقت يسير، ولم يتعلم من الصحابة إلا اليسير؛ لقلة المدة بين إسلامه واستشهاده، لكن إيمانه الصحيح بالله كان قد تغلغل في صميم قلبه، فصارت الجنة مبتغاه، ولا شيء غيرها، وقد صدق الله فصدقه.

7- روى الطبري في تفسيره قال:

(كان أبو بكر الصديق يعتق على الإسلام بمكة، فكان يعتق عجائز ونساء إذا أسلمن، فقال له أبوه: أي بني، أراك تعتق أناسا ضعفاء، فلو أنك أعتقت رجالا جلدا يقومون معك، ويمنعونك، ويدفعون عنك، فقال: أي أبت، إنما أريد -أظنه قال- ما عند الله. قال: فحدثني بعض أهل بيتي أن هذه الآية أنزلت فيه(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ﴿٧﴾) (1)

(إنما أريد ما عند الله!) ما أجملها من كلمة قالها الصديق، ونزلت الآيات تثني عليه وعلى كل صاحب عمل طيب . ويكفيه أنه يسره الله لليسرى، فقد وصل قمة السعادة ووفقه الله في حياته كلها، وهذه ثمرة من ثمرات الإخلاص لله تعالى.

(1) تفسير الطبري 495/27 بتحقيق: مكتب التبيان للدراسات الإسلامية، الطبعة الأولى 1430-2009، دار ابن الجوزي القاهرة. ورواه الحاكم في المستدرك 573/2، حديث 1080/3942 وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

وإذا كان الشيء بالشيء يذكر، فإن من علماء السلف مـن كـثرت كلماتهـم ووصـاياهم في حض الناس على التمسك بالإخلاص قولا وعملا؛ فقال أيوب السختياني:

(والـلـه ما صدق الـلـه عبد إلا سره أن لا يشعر بمكانه)(1).

وقال بشر:

(ما أعرف رجلا أحب أن يعرف إلا ذهب دينه وافتضح) (2).

وقال الفضيل بن عياض:

(إن قدرت على أن لا تعرف فافعل، وما عليك أن لا تعرف، وما عليـك أن لا يثنـى عليـك أن تكون مذموما عند الناس إذا كنت محمودا عند الـلـه)(3).

وتبدو ثمرة المسلم المخلص واضحة من تأثير كلامه بالناس، فقد قال الشيخ النحاس:

(من أخلص النية، أثّر كلامه في القلوب القاسية فلينها، وفي الألسن الذربـة فقيـدها، وفي أيدي السلطة فعقلها)(4).

ولمّـا سـأل (ذر بـن عمـر) والـده : مـا بـال المتكلمـين يتكلمـون ولا يـبكي

(1) إتحاف السادة المتقين 10/10.

(2) إتحاف السادة المتقين 10/10.

(3) إتحاف السادة المتقين 10/10.

(4) فقه الدعوة في إنكار المنكر تأليف: عبد الحميد البلالي ص46، الطبعة الثالثة 1409- 1989، دار الدعوة الكويت.

أحد، وإذا تكلمت أنت سُمع البكاء من هنا وهنا؟ فـردّ عليـه والـده بقولـه: يـا بنـي، ليـست النائحة المستأجرة كالنائحة الثكلى)(1).

ولا بد أن نشير هنا إلى أنّ إخلاص النية لـلـه لا يكـون بإظهـار التخـشع أمـام النـاس، ولا بارتداء الملابس البذلة، ولكن باصلاح السريرة مع الـلـه. فكم من النـاس لم يعـرف عـنهم كثـير صلاة ولا كثير صيام، وقد قذف الـلـه محبتهم في القلوب، وكـم ممـن عـرف بالـصلاة والـصيام تنبو عنهم القلوب يقول ابن الجوزي رحمه الـلـه:

(والـلـه لقـد رأيـت مـن يكـثر الـصلاة والـصوم والـصمت، ويتخـشع في نفـسه ولباسـه، والقلوب تنبو عنه، وقدره في النفوس ليس بذاك. ورأيت من يلبس فاخر الثياب وليس له كبير نفل ولا تخشع، والقلوب تتهافت على محبته. فتدبرت السبب فوجدته السريرة...، فمن أصلح سريرته فاح عبير فضله، وعبقت القلوب بنشر طيبه. فالـلـه الـلـه في السرائر، فإنه ما ينفع مع فسادها صلاح ظاهر)(2).

وما أسعد من يهتم برضى الـلـه وحده ولـو سـخط عليـه النـاس؛ فـإن الـساخطين عليـه سرعان ما يعودون إلى أنفسهم ويرضون عنه، وقد قال النبيﷺ:

«من التمس رضاء الـلـه بسخط الناس كفاه الـلـه مؤنة الناس، ومن التمس رضاء النـاس بسخط الـلـه، وكله الـلـه إلى الناس»(3)

وفي رواية أخرى:

«من التمس رضا الـلـه بسخط الناس رضي الـلـه عنه وأرضى عنه الناس، ومن التمس

---

(1) عن كتاب الزهد للإمام أحمد بن حنبل ص 357، 1398-1978، دار الكتب العلمية، بيروت.

(2) صيد الخاطر لابن الجوزي ص220، بعناية حسن السماحي سويدان، الطبعة الأولى 1425-2004، دار القلم، دمشق، سوريا.

(3) رواه الترمذي ص 544، حديث 2414، وسلسلة الأحاديث الصحيحة رقم 2311.

رضا الناس بسخط الـلـه، سخط الـلـه عليه وأسخط عليه الناس»(1).

إن الإنسان فيه ما فيه من الغرور والجهالة، ولولا ذلك لما طـال واسـتطال وشـمخ بأنفـه وأشرك في قوله أو عمله غير الـلـه تعالى. ولو تأمل الإنسان بقدرة الـلـه تعالى، وعلم أن الحياة والموت، والغنى والفقر، والرفعة والذلة بيد الـلـه وحده، وآمن بذلك إيمانا صـحيحا تغلغـل في سويداء قلبه، لما وقع بالشرك في قوله أو عمله.

وقد أدرك الصحابة الكرام هـذه الحقيقـة بالتربيـة القرآنيـة وتربيـة النبـي الكـريم لهـم، فوضعوا رضاء الـلـه أمام أعينهم؛ فسعدوا السعادة المثلى.

ندعو الـلـه تعالى أن يجعلنا من المؤمنين المخلصين الصادقين الملتزمين بنور هدايته.

---

(1) رواه القضاعي في مسند الشهاب، 300/1، تحقيق: حمدي السلفي، الطبعة الثانية 1407-1986، مؤسسة الرسالة، بيروت، وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق 20/54، تحقيق: محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمروني، الطبعة الأولى 1418-1997، دار الفكر، بيروت.

صلاة الجماعة(1)

الركن الثاني من أركان الإسلام: هو ركن الصلاة. وقد نصّ النبيﷺ على أنّ هذا الـركن هـو عمود الدين، وأوّل ما يحاسب عليه العبد المـؤمن يـوم القيامـة، وهـو مـن أجـلّ القربـات إلى الـلـه تعالى.

والصلاة قوة روحية تجعل صاحبها يتغلب على متاعـب الـدنيا ومـشقاتها إذا أداهـا كـما أرادها الـلـه –سبحانه- لذلك قال الـلـه تعالى:

(**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ الـلــه مَعَ الـصَّابِرِينَ ﴿١٥٣﴾**) سـورة البقرة.

وكان صلوات الـلـه وسلامه عليه إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة، وكان يقول لبلال: «أرحنا بها».

ودعا النبيﷺ إلى إقامتها، وحذّر من التفريط بها، وجعلها حدا فاصلا بين الكفر والإيمـان، فقال:

«العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر»(2).

وحين يقف المسلم بين يدي الـلـه خمـس مـرات في اليـوم والليلـة مـصليا، فتكـون تلـك الـصلاة كـالحمّام الروحـي، تزيـل مـا علـق بنفـسه وروحـه مـن

(1) أفدت في كتابة هذا المبحث من كتاب: (أهمية صلاة الجماعة) تأليف الدكتور: فضل إلهي، الطبعة السابعة 1418-1997، دار ابن حزم، بيروت.

(2) رواه الترمذي في كتاب الإيمان (باب: ما جاء في ترك الصلاة) ص591، حديث 2621، وابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها (باب: ما جاء فيمن ترك الصلاة) 342/1، حديث 1079.

أدران وأوساخ وغفلات وخطايا؛ فيفوق من غفلته، ويعود إلى رشده، ويرجع إلى ربّه. ويشير النبيﷺ إلى هذا المعنى فيقول:

«أرأيتم لو أن نَهَرا بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيء؟». قالوا: لا يبقى من درنه شيء. قال: «فذلك مثل الصلوات الخمس، يمحو الله بهنّ الخطايا»(1).

والصلاة التي يريدها منّا هذا الدين لا تكون كلمات يتلفظ بها اللسان وتؤديها الجوارح من غير تفكّر فيها ولا تدبر، بل هي الصلاة التي يكون القلب فيها حاضرا، والخشوع قد ملك الفؤاد، فيتذكر المصلي في صلاته عظمة الخالق المعبود الذي يقف بين يديه.

ولقد فُرضت الصلاة على النبيﷺ وعلى المسلمين في مكة قبل أن يهاجر النبيﷺ إلى المدينة بنحو ثلاث سنوات. وإذا كانت العبادات كلها قد فرضت في الأرض، فإنّ الصلاة وحدها فرضها الله في السماء ليلة الإسراء والمعراج. وظلّ النبيﷺ ومن معه من الصحابة في مكة يصلون فرادى؛ خشية من بطش المشركين بهم، إلى أن تمت هجرة النبي المباركة إلى المدينة المنورة، فبدأ أول ما بدأ به: ببناء المسجد والصلاة فيه جماعة، قبل أن يبدأ عليه الصلاة والسلام ببناء بيت له.

وصلاة الجماعة فوق كونها عبادة من أجلّ العبادات، فهي تدخل

(1) رواه البخاري في كتاب مواقيت الصلاة (باب: الصلوات الخمس كفارة) ص200، حديث 528، ومسلم -واللفظ له- في كتاب المساجد ومواضع الصلاة (باب: المشي إلى الصلاة تُمحى به الخطايا) 462/1-463، حديث 667.

المحبة والمودة بين قلوب المسلمين؛ إذ يلتقي المسلمون في المسجد كل يوم وليلة خمس مرات: فيكون التعارف والتآلف: فيساعد الغني الفقير، والقوي الضعيف، ويقف الكبير بجانب الصغير، والقائد بجانب الجندي في صفّ الصلاة...الكل في العبادة سواء: ربهم واحد، ونبيهم واحد، لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى والعمل الصالح. وهكذا تتحقق المساواة في صلاة الجماعة في صورة من أبهى الصور.

فضل صلاة الجماعة

دعا النبيﷺ إلى الاهتمام بصلاة الجماعة، ورغّب بها، وحضَّ عليها، وحذّر من التفريط بها، فقالﷺ:

«لو يعلم الناس ما فى النداء والصف الأول، ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا، ولو يعلمون ما فى التهجير لاستبقوا إليه، ولو يعلمون ما فى العتمة والصبح لأتوهما ولو حبواً»(1).

وفي هذا الحديث لم يبين النبيﷺ حقيقة ما أعد الله للمؤذنين ولمن يصلي في الصف الاول ولمن يصلي جماعة في المسجد في صلاتي العشاء والصبح؛ ليشير إلى عظم الأجر الذي لا يدخل تحت الوصف.

ولقد بشر النبيﷺ من توضأ ثم مشى الى المسجد فصلى الصلاة المكتوبة بغفران الله ذنوبه، فقالﷺ:

«من توضأ للصلاة فأسبغ الوضوء، ثم مشى إلى الصلاة المكتوبة،

(1) رواه البخاري في كتاب الأذان (باب: الاستهام في الأذان) جزء من حديث 615، ومسلم في كتاب الصلاة (باب: تسوية الصفوف وإقامتها...) 325/1، حديث 437.

فصلاها مع الناس، أو مع الجماعة، أو في المسجد، غفر الـلـه له ذنوبه»(1).

وقال:

«من غدا إلى المسجد وراح، أعدّ الـلـه له نُزُلَهُ من الجنة كلما غدا أو راح»(2).

وقال:

«إذا تطهّرَ الرجل ثم أتى المسجد يرعى الصلاة، كتب لـه كاتبـاه -أو كاتبـه- بكـل خطـوة يخطوها إلى المسجد عشر حسنات، والقاعد يرعى الصلاة كالقانت، ويكتب مـن المـصلين، مـن حين يخرج من بيته حتى يرجع إليه»(3).

وإذا كانت صلاة المنفرد في درجة واحدة، فـإنّ الـصلاة في جماعـة تتـضاعف حـسناتها إلى خمس وعشرين درجة أو سبع وعشرين درجة، وذلك قول النبيﷺ:

«صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ بخمس وعشرين درجة»(4).

---

(1) رواه مسلم في كتاب الطهارة (باب: فضل الوضوء والصلاة عقبه) 208/1، حديث 232.

(2) رواه البخاري في كتاب الأذان (باب: فضل من غدا إلى المسجد ومن راح) ص226، حديث 662، ومسلم في كتاب المساجد (باب: المشي إلى الصلاة تُمحى به الخطايا) 463/1، حديث 669، والمراد بالغدو: الذهاب، وبالرواح: الرجوع.

(3) رواه الإمام أحمد بسند حسن 373/13.

(4) رواه البخاري في كتاب الأذان (باب: فضل صلاة الجماعة) ص223، حديث 646.

وفي رواية:

«صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة»(1).

والصلاة في المساجد التي يكثر المصلون فيها، ينالهم من الثواب أكثر من الصلاة في غيرها، فقال النبيﷺ:

«...وإن صلاة الرجل مع الرجل أزكى من صلاته وحده، وصلاته مع الرجلين أزكى من صلاته مع الرجل، وما كثر فهو أحب إلى الله ﷻ»(2).

وقبل أن يشرع المسلم بالصلاة جماعة في المسجد، يُكتب له الثواب حين يخرج للصلاة فيها، فيُكتب له الأجر في كل خطوة يخطوها إلى المسجد. روى جابر بن عبد اللهﷺ قال: أراد بنو سلمة أن يتحولوا إلى قرب المسجد. قال: والبقاع خالية، فبلغ ذلك النبيﷺ فقال: «يا بني سلمة، دياركم تكتب آثاركم». فقالوا: ما كان يسرنا أنا كنا تحولنا(3).

قال الإمام النووي شارحا لهذا الحديث:

(الزموا دياركم، فإنكم إذا لزمتموها كتبت آثاركم وخطاكم الكثيرة إلى المسجد. وبنو سلِمة -بكسر اللام- قبيلة معروفة من الأنصارﷺ)(4).

---

(1) رواه البخاري في كتاب الأذان (باب: فضل صلاة الجماعة) ص223، حديث 645.

(2) رواه أبو داؤد في كتاب الصلاة (باب: في فضل صلاة الجماعة) ص103، حديث 554 وإسناده حسن.

(3) رواه مسلم في كتاب المساجد (باب: فضل كثرة الخطا إلى المساجد) 462/1، حديث 665.

(4) صحيح مسلم بشرح النووي 169/5.

وقال صلوات الـلـه وسلامه عليه:

«إنّ أعظم الناس أجرا فى الصلاة أبعدهم إليها ممشى فأبعدهم. والذي ينتظر الصلاة حتى يصليها مع الإمام أعظم أجرا من الذي يصليها ثم ينام». وفى رواية أبي كريب: «حتى يصليها مع الإمام في جماعة»(1).

ولا تُكتب آثار وخطوات قاصد المسجد عند قدومه إلى المسجد فقط، بل تُكتب عند عودته من المسجد أيضا.

وكثرة الخطا إلى المساجد من أسباب محو الخطايا ورفع الدرجات، فقال صلوات الـلـه وسلامه عليه:

«ألا أدلكم على ما يمحو الـلـه به الخطايا ويرفع به الدرجات؟». قالوا: بلى يا رسول الـلـه. قال: «إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط»(2).

والرباط: الإقامة على جهاد العدو في الحرب. فقد شبّه النبيﷺ هذه الأعمال الصالحة - ومنها كثرة الخطا إلى المساجد- بالجهاد في سبيل الـلـه.

والخروج من البيت متطهرا إلى صلاة مكتوبة أجر صاحبها كأجر الحاج المحرم. فكأن الذي يصلي الصلوات الخمس في جماعة له من الأجر ما للحاج المحرم خمس مرات، وذلك قولهﷺ:

---

(1) رواه مسلم في كتاب المساجد (باب: فضل كثرة الخطا إلى المساجد) 460/1، حديث 662.

(2) رواه مسلم في كتاب الطهارة (باب: فضل إسباغ الوضوء على المكاره) 219/1، حديث 251.

«مَنْ خرج من بيته متطهرا إلى صلاة مكتوبة، فأجره كأجر الحاج المحرم»(1).

وبشّر النبيﷺ من صلى أربعين يوما في جماعة، يدرك فيها التكبيرة الأولى، بأنّ الله تعالى يكتب له براءتين: الأولى: براءته من النار فلا يعذّبه بها، والبراءة الثانية من النفاق، فلا يعتقد اعتقاد المنافق، ولا يعمل عمله، وذلك قولهﷺ:

«من صلى لله أربعين يوما فى جماعة، يدرك التكبيرة الأولى، كُتب له براءتان: براءة من النار، وبراءة من النفاق»(2).

وما أسعد الإنسان حين يكتب الله له براءة من النار، وبراءة من النفاق! إنّه الفوز العظيم. ندعو الله أن يجعلنا منهم.!

وفي تبيان فضل صلاتي العشاء والفجر في جماعة، يُبشّر النبيﷺ أمته أعظم بشارة، فيذكر أنّ أجر صلاة العشاء في جماعة كقيام نصف الليل، وصلاة الفجر في جماعة كقيام نصف الليل أيضا، فيكون من صلى العشاء والفجر في جماعة كمن قام الليل كله. فعن عبد الرحمن بن أبي عمرة قال: دخل عثمان بن عفانؓ المسجد بعد صلاة المغرب فقعد وحده، فقعدت إليه؛ فقال: يا ابن أخي، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من صلى العشاء في جماعة، فكأنما قام نصف الليل، ومن صلى الصبح في

(1) رواه أبو داؤد في كتاب الصداق (باب: ما جاء في فضل المشي إلى الصلاة) ص103، حديث 558.
(2) رواه الترمذي (باب: ما جاء في فضل التكبيرة الأولى) ص69، حديث 241، وهو حديث حسن.

جماعة، فكأنما صلى الليل كله»(1).

وهناك بشارة من النبيﷺ أخرى: أنّ من تعلّق قلبه بالمساجد، يصير في ظلّ اللــه يوم القيامة، يوم لا ظلّ إلا ظلّه، فقال صلوات اللـه وسلامه عليه:

«سبعة يظلهم اللـه تعالى في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عدل، وشاب نشأ في عبادة اللـه، ورجل قلبه معلق في المساجد...»(2).

وتعليق القلب في المساجد لا يعني ملازمة القعود فيها، ولكن الحب لها، وصلاة الجماعة فيها. وكيف لا يُحب المسلم بيت اللـه وهو بيت كل تقي؟!

ولقد حذّر النبيﷺ تحذيرا تصطكّ منه الركب من ترك صلاة الجماعة، مبينا أنّ الشيطان يستحوذ على أهالي القرية أو البدو الذين لا تقام فيهم الصلاة جماعةً، وماذا يبقى للمؤمن من طاعة ربه إذا كان الشيطان قد استحوذ عليه، فقالﷺ:

«ما من ثلاثة في قرية ولا بدو لا تقام فيهم الصلاة إلا قد استحوذ عليهم الشيطان؛ فعليكم بالجماعة، فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية»(3).

---

(1) رواه مسلم في كتاب المساجد (باب: فضل صلاة العشاء والصبح جماعة) 454/1، حديث 656.

(2) رواه البخاري في كتاب الزكاة (باب: الصدقة باليمين) ص398، حديث 1423، ومسلم في كتاب الزكاة (باب: فضل إخفاء الصدقة) 715/2، حديث 1031.

(3) رواه أبو داؤد في كتاب الصلاة (باب: التشديد في ترك الجماعة) ص102، حديث 547.

ويتحدث الصحابي الجليل عبد الله بن مسعودﷺ مرغبا بأداء صلاة الجماعة ومرهبا من التفريط فيها فيقول:

(من سره أن يلقى الله غدا مسلما، فليحافظ على هؤلاء الصلوات حيث ينادى بهن، فإنّ الله شرع لنبيكمﷺ سنن الهدى، وإنهنّ من سنن الهدى، ولو أنكم صليتم في بيوتكم كما يصلي هذا المتخلف في بيته لتركتم سنة نبيكم، ولو تركتم سنة نبيكم لضللتم، وما من رجل يتطهر فيحسن الطهور، ثم يعمد إلى مسجد من هذه المساجد إلا كتب الله له بكل خطوة يخطوها حسنة، ويرفعه بها درجة، ويحط عنه بها سيئة، ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق، ولقد كان الرجل يؤتى به يهادى بين الرجلين حتى يقام في الصف)(1).

ومعنى «يهادى بين الرجلين»: أي يتساند على رجلين من شدة ضعفه، ويتحمل مشقة الذهاب؛ حباً في تحصيل الأجر والثواب.

لقد كان الصحابة يحافظون على الصلوات في المسجد جماعة، وبخاصة في صلاتي العشاء والصبح، وكان منهم مَنْ يرى أنَّ صلاتي العشاء والصبح في جماعة، أفضل من قيام الليل، فقال أمير المؤمنين عمر بن الخطابﷺ:

(لأنْ أُصليهما -صلاتي العشاء والفجر- في جماعة، أَحبُّ إليّ من أن أُحيي ما بينهما)(2).

---

(1) رواه مسلم في كتاب المساجد (باب: صلاة الجماعة من سنن الهدى) 453/1، حديث 654.

(2) المصنف لابن أبي شيبة، كتاب الصلوات (في التخلف في العشاء والفجر، وفضل حضورهما) 293/1، حديث 3358.

وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالبﷺ:

(لأنْ أُصلي الفجر والعشاء الآخرة في جماعة، أَحبّ إليّ من أن أُحيي ما بينهما)(1).

أما صلاة الفجر والعصر، فان ثوابهما كبير؛ لأن ملائكة الليل وملائكة النهار تجتمع فيهما، وتستغفر لمن صلاها جماعة،فيقول النبيﷺ:

«يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم، فيسألهم ربهم -وهو أعلم بهم-: «كيف تركتم عبادى؟»؛ فيقولون: «تركناهم وهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون»(2).

حكم صلاة الجماعة

اختلف العلماء في حكم صلاة الجماعة على أقوال أهمها ما يأتي:

القول الاول: إنها واجبة. وهذا ما ذهب إليه الإمام أحمد، وفقهاء الحديث، وعدد من أئمة السلف، وأهل الظاهر، مستدلين بالكتاب والسنة والآثار:

أما الكتاب، فالايات المتحدثة في صلاة الخوف، قال تعالى: **(وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا**

(1) الروض النضير شرح مجموع الفقه الكبير، تأليف القاضي شرف الدين الحسين بن أحمد السياغي 116/2، الطبعة الثانية 1388، مطبعة المؤيد، الطائف.

(2) رواه مسلم في كتاب المساجد (باب: فضل صلاتي الصبح والعصر) 439/1، حديث 632.

سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ) سورة النساء/102.

فقد وردت الآية في صلاة الخوف، حيث وقف المسلمون في وجه العدو، فأمر اللـه تعـالى نبيهﷺ أن يقيم الصلاة جماعة مع الصحابة؛ فتكون صلاة الجماعة في حالة الأمن أولى.

وقال تعالى:

(وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾) سورة البقرة.

قال ابن الجوزي: (أي صلوا مع المصلين)(1).

وقال الكاساني في الآية نفسها:

(أمر اللـه تعالى بالركوع مع الراكعين، وذلك يكون في حال المشاركة في الركوع، فكان أمرا بإقامة الصلاة بالجماعة، ومطلق الأمر لوجوب العمل)(2).

وأمّا الأدلة من السنة فكثيرة، منها حديث النبيﷺ:

«والذي نفسي بيده، لقد هممت أن آمر بحطب فيحطب، ثم آمر بالصلاة فيؤذن لها، ثم آمر رجلا فيؤمّ الناس، ثم أخالف إلى رجال فأحرّق عليهم بيوتهم»(3).

---

(1) زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي 75/1، الطبعة الأولى 1384، المكتب الإسلامي، بيروت.

(2) بدائع الصنائع للكاساني 155/1، الطبعة الثانية 1406-1986، دار الكتب العلمية، بيروت.

(3) رواه البخاري في كتاب الأذان (باب: وجوب صلاة الجماعة) ص223، حديث 644.

لقد كان هؤلاء الذين همّ النبيﷺ بتحريق بيوتهم يصلون فرادى في بيوتهم، فجاءهم هذا التهديد لعدم حضورهم صلاة الجماعة؛ إذ لو كانت سنة لما هدد تاركها بتحريقه بالنار. قال الكاساني:

(ومثل هذا الوعيد لا يلحق إلاّ بتارك الواجب)(1).

ومما استدل به القائلون بوجوب صلاة الجماعة: ما رواه أبو هريرةؓ قال: (أتى النبيَّﷺ رجل أعمى فقال: يا رسول اللـه، إنه ليس لي قائد يقودنى إلى المسجد، فسأل رسول اللـهﷺ أن يرخص له فيصلي في بيته فرخص له. فلما ولّى دعاه؛ فقال: «هل تسمع النداء بالصلاة؟» فقال: نعم. فقال: «فأجب»(2).

وهكذا فعل النبيﷺ مع عبد اللـه بن أم مكتوم، فلم يرخّص له في الصلاة في بيته، وقد جاء ذكر قصته في عدد من أحاديث النبيﷺ المعروفة المشهورة.

ومن أدلتهم –أيضا- حديث النبيﷺ:

«من سمع النداء فلم يأته فلا صلاة له إلا من عذر»(3).

وقال الترمذي:

(وقد رُوي عن غير واحد من أصحاب النبيﷺ أنهم قالوا: من سمع

---

(1) بدائع الصنائع 155/1.

(2) رواه مسلم في كتاب المساجد (باب: يجب إتيان المسجد على من سمع النداء) 452/1، حديث 653.

(3) رواه ابن ماجه في أبواب المساجد والجماعات (باب: التغليظ في التخلف عن الجماعة) 260/1، حديث 793.

النداء فلم يجب فلا صلاة له)(1).

وأمّا الآثار فما ورد عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالبﷺ قال: (لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد). فقيل له: يا أمير المؤمنين، ومَنْ جار المسجد؟ قال: (مَنْ سمع النداء)(2).

وهكذا روي -أيضاً- عن عبد الله بن مسعود، وعن عبد الله بن عباس، وأبي موسى الأشعري.

القول الثاني: قول جمهور الفقهاء، من المالكية والشافعية والزيدية وقسم من الحنفية، فقد ذهبوا الى أن صلاة الجماعة سنة مؤكدة، مستدلين بحديث النبيﷺ:

«صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ بخمس وعشرين درجة»(3).

وفي رواية:

« صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة»(4).

وجه الاستدلال بالحديثين: أن صلاة الجماعة ليست بواجبة، ولو كانت واجبة لما صحت صلاة المنفرد.

والراجح ما ذهب اليه الجمهور من أن صلاة الجماعة سنة مؤكدة،

---

(1) رواه الترمذي في كتاب مواقيت الصلاة (باب: ما جاء فيمن سمع النداء فلا يجيب) ص63، حديث 217.

(2) المصنف للحافظ عبد الرزاق في كتاب الصلاة (باب: مَنْ سمع النداء) 497/1، حديث 1915.

(3) رواه البخاري في كتاب الاذان (باب: فضل صلاة الجماعة) ص223، حديث 646.

(4) رواه البخاري في كتاب الاذان (باب: فضل صلاة الجماعة) ص223، حديث 645.

ولو كانت واجبة لما عفى عنها المتخلفين عنها، ولما صحت صلاة المنفرد. أما عن حديث التحريق عن المتخلفين عن صلاة الجماعة، فقد وردت مورد الزجر ولم تكن حقيقته مراده، والمراد هو المبالغة بالوعيد والعقوبة. وأما عمّا قاله سيدنا علي بن أبي طالبﷺ: (لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد)، فيراد به: لا صلاة كاملة تحمل الفضائل كلها.

مكان صلاة الجماعة

تجوز إقامة صلاة الجماعة في أي مكان كان إذا كان طاهراً، وذلك لحديث النبيﷺ:«..وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل»(1).

ويبدو من الحديث أن الصلاة تقام في المسجد أو الصحراء أو البيت، إلاً أن صلاة الجماعة في المسجد أفضل مما في غيره؛ لأنّ الصلاة في جماعة، اظهار لشعائر الله، وقد قال النبيﷺ: «...صلوا أيها الناس في بيوتكم؛ فإن أفضل الصلاة صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة»(2).

الرسولﷺ وصلاة الجماعة

كان اهتمام النبيﷺ عظيما بصلاة الجماعة حتى في أصعب الأحوال، وأكثرها شدة. فقد كان صلوات الله وسلامه عليه يصلي جماعة حتى في

(1) رواه البخاري في كتاب التيمم والطهارة (باب التيمم) ص 156، حديث 335.
(2) رواه البخاري في كتاب الأذان (باب: صلاة الليل) ص 240، حديث 731.

شدة المعركة. كما ذكر ذلك الإمام مسلم في صحيحه(1).

ولم تقع صلاة النبي جماعة في شدة المعركة مرة واحدة، بل صلاها النبي مرات عديدة، حتى قال أبو سليمان الخطابي: (صلاة الخوف أنواع، وقد صلاها رسول الله ﷺ في أيام مختلفة وعلى أشكال متباينة)(2).

وذكر ابن العربي أنّ النبي ﷺ (صلى صلاة الخوف مرارا عدة بهيئات مختلفة، فقيل في مجموعها: إنها أربع وعشرون صفة، ثبت فيها ست عشرة صفة)(3).

ومما يدل على اهتمام النبي ﷺ بصلاة الجماعة أنّ النبي ﷺ لمّا اشتد به مرض الموت، طلب من أهل بيته أن يضعوا له ماءا في المخضب (الإجانة) فاغتسل فأُغمي عليه، وهكذا ثلاث مرات يغتسل ويُغمى عليه، ثم أمر أبا بكر أن يصلي بالناس، فصلى أبو بكر تلك الأيام(4). لقد فعل النبي ذلك؛ لعلّه يكتسب نشاطا فيصلي بالناس، وذلك من شدة حرصه على صلاة الجماعة. ولمّا وجد النبي من نفسه خفة (وكان يهادى بين رجلين) خرج إلى المسجد. يقول الإمام العيني:

(فيه الإشارة إلى تعظيم الصلاة بالجماعة.... وفيه تأكيد أمر الجماعة

---

(1) رواه مسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها (باب: صلاة الخوف) 574/1-576، أحاديث 839-843.

(2) معالم السنن للخطابي 269/1، الطبعة الثانية 1401، المكتبة العلمية، بيروت.

(3) أحكام القرآن لأبي بكر بن العربي 491/1، الطبعة الأولى 1376-1957، دار إحياء الكتب العربية –عيسى البابي الحلبي-، القاهرة.

(4) ينظر: صحيح البخاري كتاب الأذان (باب: إنما جُعل الإمام ليؤتم به) ص231-232، حديث 687.

والأخذ فيها بالأشد وإن كان المرض يرخص في تركها. ويحتمل أن يكون فعل ذلك لبيـان جـواز الأخذ بالأمثل وإن كانت الرخصة أولى)(1).

الصحابة وصلاة الجماعة

وننظر إلى صحابة النبيﷺ، فنرى العجب العجاب من حرصهم على أداء الصلاة جماعة في المسجد: فقد كان بعضهم يقارب بين خطاه في ذهابه إلى المسجد ليكثر ثوابه. روى البخاري في الأدب المفرد (عن ثابت أنه كان مع أنس بالزاوية -فوق غرفة له- فسمع الأذان، فنزل ونزلت، فقارب في الخطا، فقال: كنت مع زيد بن ثابت، فمشى بي هذه المشية وقال: أتـدري لم فعلـت بك؟ فإن النبيﷺ مشى بي هذه المشية، وقال: أتدري لم مشيت بك؟ قلت: اللـه ورسوله أعلم. قال: ليكثر عدد خطانا في طلب الصلاة)(2).

وهنالك من الصحابة من كان يتخـذ طريقـا آخـر لينـال كـثرة الثـواب؛ فـلا يـسكن قـرب المسجد، بل يسكن في مكان بعيد. ولندع أُبيَّ بن كعبﷺ يروي لنا هذا الحديث فيقول:

(كان رجل لا أعلم رجلا أبعد من المسجد منه، وكان لا تخطئه صلاة، قـال: فقيـل لـه -أو قلت [له]- لو اشتريت حمارا تركبه في الظلماء وفي الرمضاء. قال: ما يسرني أنّ منزلي إلى جنـب المسجد، إني أريـد أن يُكتَـب لي ممـشاي إلى المـسجد، ورجـوعي إذا رجعـت إلى أهـلي. فقـال

(1) عمدة القارئ للعيني 190/5، دار الفكر، بيروت.

(2) رواه البخاري في الأدب المفرد (باب: من اتخذ الغرف) ص140، حديث 458، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت.

رسول الـلـهﷺ: «قد جمع الـلـه لك ذلك كلَّه»(1).

وهذا عدي بن حاتم الطائيرضي الله عنه يقول:

(ما دخل وقت صلاة إلاّ وأنا أشتاق اليها)(2).

وكانرضي الله عنه يستعد للصلاة قبل إقامتها، فكان يقول:

(ما أُقيمت الصلاة منذ أسلمت إلاَّ وأنا على وضوء)(3).

وكان المرضى من الصحابة يتحملون التعب من أجل حضور صلاة الجماعة؛ لينالوا أجرهـا، مع أنهم رُخّص لهم في التخلف عنها، فقال الصحابي عبـد الـلــه بـن مـسعودرضي الله عنه عـن حـضور صلاة الجماعة:

(ولقد رأيتُنا وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق. ولقد كان الرجل يُـؤتى بـه يُهـادى بين الرجلين حتى يُقام في الصف)(4).

ويعلق الإمام النووي على ما قاله ابن مسعود فيقول:

(وفي هـذا كلـه تأكيـد أمـر الجماعـة، وتحمّـل المـشقة في حـضورها، وأنـه

(1) رواه مسلم في كتاب المساجد (باب: فضل كثرة الخطا الى المساجد) ص 268، حديث 1514، الطبعة الثانية لدار السلام.

(2) الاستيعاب لابن عبد البر 168/3 تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الطبعة الثالثة 2010، دار الكتب العلمية، بيروت.

(3) سير أعلام النبلاء للذهبي 164/3، تحقيق: محمد نعيم العرقسوقي، ومأمون صاغرجي، باشراف شعيب الارنؤوط، الطبعة الحادية عشرة 1422-2001 مؤسسة الرسالة، بيروت.

(4) رواه مسلم في كتاب المساجد (باب: صلاة الجماعة من سنن الهدى) ص264، حديث 1488.

إذا أمكن المريض ونحوه التوصل إليها استحبّ له حضوره)(1).

وكان أبو الدرداءﷺ يدعو إلى المحافظة على صلاتي العشاء والفجر في جماعة، فلنقرأ ما فعل وما تحدّث به وهو مريض في مرضه الذي تُوفي فيه: فقد طلب منهم أن يحملوه إلى المسجد لأداء الصلاة فيه فقال: (ألا احملوني؛ فحملوه، فأخرجوه، فقال: اسمعوا وبلّغوا مَنْ خلفكم: حافظوا على هاتين الصلاتين: العشاء والصبح، ولو تعلمون ما فيهما لأتيتموهما ولو حبواً على مرافقكم وركبكم)(2).

وهذا أبو عبد اللـه محمد بن خفيف الشيرازي أصابه من المرض ما أصابه فكان يُحمل على ظهر رجل إذا نودي للصلاة، فيذهب به إلى المسجد. فقيل له: (لو خففت على نفسك؟! قال: إذا سمعتم [حي على الصلاة] ولم تروني في الصف، فاطلبوني في المقبرة)(3).

وهذا الربيع بن خيثم كان مريضا، فيُهادى بين رجلين حين يخرج إلى الصلاة، فقيل له: (يا أبا زيد، إنك إن شاء اللـه في عذر؛ فقال: أجل، ولكني أسمع المؤذن: حيّ على الصلاة، حيّ على الفلاح، فمن سمعها فلْيأتها ولو حبوا ولو زحفا)(4).

---

(1) صحيح مسلم بشرح النووي 157/5.

(2) المصنف لابن أبي شيبة، كتاب الصلوات (في التخلف في العشاء والفجر وفضل حضورهما) 293/1، حديث 3355.

(3) سير أعلام النبلاء 346/16.

(4) المصنف لابن أبي شيبة في كتاب الصلوات (من كان يشهد الصلاة وهو مريض لا يدعها) 308/1، حديث 3519.

وهذا أبو عبد الرحمن السلمي كـان يُحمـل -وهـو مـريض إلى المـسجد- حتـى في اليـوم المطير؛ فيأمرهم أن يحملوه في الطين والمطر إلى المسجد وهـو مـريض، مـع أنّ لديـه رخـصتين للتخلف عن المسجد وهما: المرض والمطر(1).

لقد حرص السلف على صلاة الجماعة حتى مع العذر؛ لعلمهم أنها مـن أفـضل القربـات والعبادات إن لم تكن أفضلها، وقد نصّ على ذلك سعيد ابن المسيّب فقـال: (مـن حـافظ عـلى الصلوات الخمس في جماعة، فقد ملأ البر والبحر عبادة)(2).

وقد يعجب المرء حين يقرأ أنّ من السلف مـن كـان يـبكي إذا فاتتـه تكبـيرة الإحـرام مـع الجماعة، ومنهم من كان يمرض إذا لم يُدرك تكبيرة الإحرام في جماعة، (وكان السلف إذا فاتتهم [تكبيرة الإحرام] عزّوا أنفسهم ثلاثة أيام، وإذا فاتتهم الجماعة عزّوا أنفسهم سبعة أيام)(3).

وحين تأخّر أبو الليث الطرسوسي يوما عن صلاة الجماعة، صار الناس يعزونـه، وقـد سـأل من سأل عن أبي الليث لماذا يعزيه الناس (ما شأنه؟ قالوا: فاتته الصلاة في جماعة)(4).

---

(1) الطبقات الكبرى لابن سعد 172/6.

(2) ترطيب الأفواه بذكر من يظلهم الـلـه، تأليف: سيد حسين العفاني، 341/1، الطبعة الثانية عشرة 1427-2006، دار العفاني، القاهرة.

(3) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي لمحمد بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري، 33/2، ضبطها وصححها: خالد عبد الغني محفوظ، الطبعة الأولى 1426-2005، دار الكتب العلمية، بيروت.

(4) تاريخ واسط، تأليف: أسلم بن سهل الرزار الواسطي، 175/1، تحقيق: كوركيس عواد، الطبعة الأولى 1406، عالم الكتب، بيروت.

وكان أبو عبد الرحمن حاتم الأصم يعتب على من لا يعزّي من فاتته الصلاة في جماعة، ويُعزّى إذا مات له ولد فقال:

(فاتتني الصلاة في الجماعة، فعزاني أبو إسحاق البخاري وحده، ولو مات لي ولد لعزاني أكثر من عشرة آلاف؛ لأنّ مصيبة الدين أهون عند الناس من مصيبة الدنيا)(1).

إن الناس المنصفين يقفون موقفاً تهتزّ له النفوس، وتخشع له القلوب، وهو يرى المتقين من عباد اللـه في صلاة الجماعة، وقد بدت على وجوههم أمارات الخشوع للـه رب العالمين. ولو تأمل هؤلاء في حياة المتقين، لعلموا أن سعادتهم المثلى في وقوفهم بين يدي اللـه في صلاة الجماعة. فهذا ابن المنكدر يقول:

(ما بقي من لذات الدنيا الا ثلاث: قيام الليل، ولقاء الإخوان، وصلاة الجماعة)(2).

وإذا كان الشيء بالشيء يُذكر، فإنّ سعيد بن المسيّب رضي الله عنه قال:

(ما أذّن المؤذن منذ ثلاثين سنة إلا وأنا في المسجد)(3).

قال –أيضا-:

---

(1) إحياء علوم الدين للإمام أبي حامد الغزالي 149/1، دار المعرفة، بيروت.

(2) تزكية النفوس وتربيتها كما يقررها علماء السلف: ابن رجب الحنبلي وأبو حامد الغزالي وابن قيم الجوزية، رتبه وعلّق عليه الشيخ أحمد محمد كنعان ص 56، دار القلم، بيروت.

(3) المصنف لابن أبي شيبة، كتاب الصلوات (من كان يشهد الصلاة وهو مريض لا يدعها) 308/1، حديث 3522.

(ما فاتتني الصلاة في جماعة منذ أربعين سنة)(1).

وقال أبو الأشعث ربيعة بن يزيد:

(ما أذّن المؤذن لصلاة الصبح منذ أربعين سنة إلا وأنا في المسجد، إلا أن أكون مريضا، أو مسافرا)(2).

وكان من الصحابة من يحضُّ ولده على ملازمة المسجد للصلاة فيه جماعة؛ فقد أوصى أبو الدرداء ولده قائلا:

(يا بني، ليكن المسجد بيتك؛ فإني سمعت رسول اللـهﷺ يقول: «إن المساجد بيوت المتقين، فمن كانت المساجد بيوته، ضمن اللـه له بالروح والرحمة والجواز على الصراط إلى الجنة»)(3).

وروى مجاهد قال: سمعت رجلا من أصحاب النبيﷺ قال: لا أعلمه إلا ممن شهد بدرا، قال لابنه: أدركت الصلاة معنا؟ قال: نعم. قال: أدركت التكبيرة الاولى؟ قال: لا. قال: لما فاتك منها خير من مائة ناقة كلها سود العين.)(4).

وكان من سلفنا الصالح من يؤدب ولده إذا تأخّر عن صلاة الجماعة

---

(1) سير أعلام النبلاء 221/4.

(2) رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية لأبي بكر عبد اللـه بن أبي عبد اللـه المالكي، 84/1، تحقيق: حسين مؤنس، الطبعة الأولى 1951، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.

(3) الزهد للإمام هناد بن السري الكوفي التميمي، 362/2، رواية رقم 965، تحقيق: محمد أبي الليث الخير آبادي، مطابع الدوحة الحديثة، قطر.

(4) المصنف لعبد الرزاق الصنعاني 528/1-529، بتحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، الطبعة الثانية 1403-1983، المكتب الإسلامي، بيروت.

بشتى أنواع التأديب، فروى الحافظ الذهبي (أنّ عبد العزيز بـن مـروان بعـث ابنـه عمـر إلى المدينة يتأدب بها، وكتب إلى صالح بن كيسان يتعاهده، وكان يلزمه الصلوات، فأبطأ يوما عـن الصلاة، فقال: ما حبسك؟ قال: كانت مُرَجِّلتي تُسكّن شعري، فقال: بلغ من تـسكين شـعرك أن تؤثره على الصلاة؟! وكتب بذلك إلى والده؛ فبعث عبد العزيز رسولا إليه، فما كلَّمه حتى حلق شعره)(1).

ولي الأمر وصلاة الجماعة

عُني ولاة أمور المسلمين عناية كبـيرة بتوجيـه النـاس إلى صـلاة الجماعـة، متبعـين معهـم أساليب الترغيب والترهيب. فقد كان عمر بن الخطابﷺ يهدد المتخلفين عن صلاة الجماعـة. فلمّا فقد سليمان بن أبي حثمة في صلاة الصبح سأل أمّه الشفاء عنه فقالت: (إنّه بـات يـصلي، فغلبته عيناه. فقال عمر: لأنْ أشهد صلاة الصبح فى الجماعة أحبّ إليّ من أنْ أقوم ليلة)(2).

ولما فقدﷺ رجلا في صلاة الصبح، فأرسل إليه فجاء فقال: (أين كنت؟ فقال: كنت مريضا، ولولا أن رسولك أتاني لما خرجت. فقال عمر: فإن كنت خارجا إلى أحد فاخرج للصلاة)(3).

---

(1) سير أعلام النبلاء 116/5.

(2) الموطأ للإمام مالك 191/1-192، تحقيق: د. بشار عواد معروف، الطبعة الثانية 1417-1997، دار الغرب الإسلامي، بيروت.

(3) المصنف لابن أبي شيبة، كتاب الصلوات، (من قال إذا سمع المنادي فليجب) 303/1، حديث 3462.

ولقد جاء أمير المؤمنين عمر إلى سعيد بن يربوع في منزله فعزّاه بذهاب بصره، وقال: (لا تدع الجمعة ولا الصلاة في مسجد رسول اللـه ﷺ، قال سعيد: ليس لي قائد، قال: فنحن نبعث إليك بقائد؛ فبعث إليه بغلام من السبي)(1). وكانﷺ يكتب إلى عماله وإلى والي الحسبة يأمرهم بالجمعة والجماعة، يقول ابن قيم الجوزية رحمه اللـه:

(وكان عمر بن الخطابﷺ يكتب إلى عماله: "إنّ أهم أمركم عندي الصلاة، فمن حفظها وحافظ عليها حفظ دينه، ومن ضيّعها كان لما سواها أشد إضاعة". ويأمر والي الحسبة بالجمعة والجماعة وأداء الأمانة والصدق ، والنصح في الأقوال والأعمال)(2).

أمّا أمير المؤمنين علي بن أبي طالبﷺ، فقد كان يمرُّ في الطريق مناديا (الصلاة الصلاة) ليوقظ الناس لصلاة الفجر كل يوم. يقول ولده الحسنﷺ عند استشهاده: (فلما خرج من الباب نادى: أيها الناس الصلاة الصلاة، كذلك كان يفعل في كل يوم يخرج ومعه درته يوقظ الناس، فاعترضه الرجلان...)(3).

---

(1) كنز العمال لعلاء الدين علي المتقي الهندي، كتاب الصلاة في قسم الأفعال، الباب الخامس في الجماعة وفضلها وأحكامها، أعذار الجماعة، 307/8، رقم الرواية 23051، تحقيق: بكري حياني، وصفوت السقا، الطبعة الأولى 1391، مطبعة البلاغة، حلب، سوريا.

(2) الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، تأليف: ابن قيم الجوزية، ص240، تحقيق: محمد حامد الفقي، طبع سنة 1372-1953، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة.

(3) الطبقات الكبرى لابن سعد 36/3-37.

وكان عتّاب بن أسيد الأمويﷺ أميرا لمكة من قِبَل النبيﷺ، وكان متـشددا في أمـر صـلاة الجماعة، حتى كان يهدد من تخلف عن صلاة الجماعة في المسجد بضرب عنقـه، وقـد خطـب أهل مكة يوما فقال: (يا أهل مكة، والـلــه لا يبلغنـي أنّ أحـدا مـنكم تخلـف عـن الـصلاة في المسجد في الجماعة إلا ضربت عنقه)(1).

(وشكر له أصحاب رسول الـلـهﷺ هذا الصنيع، وزاده رفعة في أعينهم)(2).

غير المسلمين وصلاة الجماعة

وقف كثير من المستشرقين وغيرهم من غير المسلمين موقف اعجاب من صـلاة الجماعـة، إذ يقف الغني بجانب الفقير، والرئيس بجانب المرؤوس، والسيد بجانـب المـسود، قـد اقتـدوا بامام واحد، واتجهوا الى قبلة واحدة. ولم يخفِ قسم من المستشرقين تـأثره وإعجابـه بمـا يـراه من صلاة الجماعـة. ويكفينـا أن نـذكر هنـا أنّ الفيلـسوف الفرنـسي (رينـان) مـع مـا لـه مـن شطحات عن الإسلام والعرب، فكان يقول:

(إنني لم أدخل مسجدا من مساجد المسلمين من غير أن أهتـز خاشـعا، وأن أشـعر بـشيء من الحسرة على أنني لست مسلما)(3).

ويقول توماس أرنولد:

---

(1) كتاب الصلاة وحكم تاركها لابن قيم الجوزية، ص81، إدارة ترجمان السنة، لاهور.

(2) كتاب الصلاة وحكم تاركها لابن قيم الجوزية، ص81.

(3) العبادة في الإسلام، تأليف: الدكتور يوسف القرضاوي، ص223، الطبعة الثانية 1422-2001، مؤسسة الرسالة، بيروت.

(هذا الفرض المنظّم من عبادة اللــه هـو مـن أعظـم الأمـارات المميـزة للمـسلمين عـن غيرهم في حياتهم الدينية، فكثيرا ما لاحظ السائحون وغيرهم في بلاد الشرق مـا لكيفيـة أدائـه من التأثير في النفوس)(1).

ويقول:

(لا يتأتى لأحد أن يكون قد رأى مرة في حياته ما يقرب مـن خمـسة عـشر ألـف مـصلّ في وسط المسجد الجامع بمدينة [دلهي] بالهند يـوم الجمعـة الأخـيرة مـن شـهر الـصيام، وكلهـم مستغرقون في صلاتهم، وقد بدت علـيهم أكـبر شـعائر التعظـيم والخـشية في كـل حركـة مـن حركاتهم، نقول: إنّه لا يتأتى لأحد يكون قد رأى ذلك المشهد إلا يبلغ تأثره به أعماق قلبه، والا يلحظ ببصره القوة التي تمتاز بها هذه الطريقة من العبادة عن غيرها)(2).

---

(1) العبادة في الإسلام، ص223.

(2) العبادة في الإسلام، ص223-224.

الصلاة في الليل

الصلاة عبادة من أجلّ العبادات، بل هي أجلّها وأعظمها، وكيف لا تكون كذلك وهي عماد الدين، وأوّل ما يُحاسب عليه العبد يوم القيامة من حقوق الله، وهي آخر ما وصّى به النبيﷺ أمته وهو على فراش الموت، جعل يقول: «الصلاة الصلاة اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم»(1)، وهي من العبادات التي يُطالب بها المسلم العاقل البالغ في حياته كلها. والصلاة التي يريدها الله منها ليست كلمات تقوم بها الجوارح من غير تأمّل وتدبر فيها، بل الصلاة المطلوبة هي التي تؤثّر بحياة المسلم ومنهجه على وفق شرع الله، وهي قوة للمسلم إذا أقامها متأملا فيها. وهكذا صار هذا اللون من ألوان الصلاة قوة روحية، يستطيع بها الوقوف أمام ما يجده من صعوبات ومنغصات في حياته أولا، وتبعث فيه الاطمئنان والرضى على ما يلاقيه في حياته من عقبات بعد ذلك؛ وقد نصّ القرآن الكريم على هذا فقال تعالى:

(**وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾**) سورة البقرة.

وكل من يقيم هذه الصلاة بشروطها وأركانها وسننها يشعر بالروح العالية التي تحلق به في هذا الوجود.

هذا ما يتعلق بصلاة الفريضة والسنن التابعة للفرائض، وأمّا صلاة الليل، فإنّها مدرسة الإخلاص، يتعلم فيها المسلم عمل السر، ولا يستطيع

---

(1) رواه أبو داؤد في كتاب الأدب (باب: في حق المملوك) ص932، حديث 5156، وابن ماجه في كتاب الوصايا، ص388، حديث 2698.

القيام بذلك إلا المخلصون لـلـه، أولئك الذين يتركـون دفء الفـراش، ويـصفّون أقـدامهم بـين يدي الـلـه، وعلى هذا النهج ربّى النبيﷺ صحابته –وبخاصة في الشهور الأولى لبعثتـه عليـه الصلاة والسلام-.

ونحب هنا أن نعلم كيف كان النبيﷺ يقيم الليل متهجدا، وما أثر ذلك في صحابته.

منهج النبيﷺ في قيام الليل

إنّ كل من درس منهج النبيﷺ -وبخاصة في عبادته ربـه- يتبـين لـه أنّـهﷺ كـان سـيد العابدين، ولا يدانيه أحد في ذلك: فكان لا يجد سعادته المثلى إلا بوقوفه بين يدي الـلـه. لقـد نزل الوحي على النبي في غار حراء، وبعد ذلك بمدة ليست بالطويلة نزلت آيات القرآن تـأمره بقيام الليل إلا قليلا، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾) سورة المزمل.

ومنذ أن نزلت عليه هذه الآيات، اجتهد صلوات الـلـه وسلامه عليه في قيام الليل (أكـثره، أكثر من نصف الليل ودون ثلثيه، وأقله ثلث الليل)(1).

وقال تعالى:

(1) في ظلال القرآن، تأليف سيد قطب 3744/6، الطبعة الشرعية الرابعة والثلاثون، 1425-2004، دار الشروق، القاهرة-بيروت.

(إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ) سورة المزمل/20.

وهكذا كان النبي الكريمﷺ يقضي أوقات ليله في عبادة ملؤها الخشوع والتدبر في آلاء الله، وترتيل ما ينزل عليه من آيات القرآن. وهذا كله إعداد من الله تعالى لرسوله؛ ليتحمل أعظم رسالة في الوجود..تلك الرسالة التي سيلاقي خلالها كثيرا من العنت والمشقة والابتلاء والأذى من أجل هداية الناس، وإنقاذهم من ذلك التيه والضلال والشرك والكفر. وتوالت آيات القرآن تأمره بالتهجد، فقال تعالى:

(وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ﴿٧٩﴾) سورة الإسراء.

وقال:

(وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴿٤٠﴾) سورة ق.

لقد اتخذ النبيﷺ له منهجا خاصا في قيام الليل، ولم يكن لهﷺ وقت محدد في ذلك القيام، فكان يقوم بحسب ما يتيسر له القيام، وقد قال أنس ابن مالكرضي الله عنه:

(مَا كُنَّا نَشَاءُ أَنْ نَرَى رَسُولَ اللهﷺ فِي اللَّيْلِ مُصَلِّيًا إلا رَأَيْنَاهُ وَلا نَشَاءُ أَنْ نَرَاهُ نَائِمًا إلا رَأَيْنَاهُ)(1).

وكانﷺ إذا أراد أن يقوم الليل توضأ واستاك وتطيب، ويقوم تارة إذا

(1) رواه النسائي في كتاب قيام الليل (باب: ذكر صلاة رسول اللهﷺ) ص234، حديث 1628، الطبعة الأولى 1420-1999، دار الشام، السعودية.

انتصف الليل أو قبلـه بقليـل أو بعـده بقليـل، وكـان يفتـتح صـلاته بـركعتين خفيفتـين، وقـد يفتتحها بركعتين طويلتين أحيانا، ويرتّل قراءته ترتيلا، ويقف عـلى رؤوس الآي، ويتـأثّر بترتيـل القرآن، فيصلي ولصدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء، وكان يُـسرُّ في القـراءة تـارة، ويجهـر بهـا أخرى، وإذا رفع صوته لا يرفعه كثيرا، وإذا أسرّ فلا يـسر بحيـث لا يـسمعه أحـد، وكـان يقـوم الليل أحيانا بآية واحدة حتى الصباح، فقد قام ليلة بقوله تعالى: (**إِنْ تُعَـذِّبْهُمْ فَـإِنَّهُمْ عِبَـادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾**)سورة المائدة، وكان أكثر صلاته قائمـا، وقـد يصلي قاعدا...وهذا شيء من عبادتهﷺ في قيام الليل:

1- عن عائشة رضي الـلـه عنها قالت: كَانَ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ حَتَّـى تَتَفَطَّـرَ قَـدَمَاهُ فَقَالَـتْ عَائِشَةُ لِمَ تَصْنَعُ هَذَا يَا رَسُولَ الـلـه وَقَدْ غَفَرَ الـلـه لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ قَالَ « أَفَلاَ أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ عَبْدًا شَكُورًا »(1).

2- عن حذيفة بـن الـيمانﷺ قـال: (صَـلَّيْتُ مَـعَ النَّبـيﷺ ذَاتَ لَيْلَـةٍ، فَـافْتَتَحَ الْبَقَـرَةَ؛ فَقُلْـتُ: يَرْكَـعُ عِنْـدَ الْمِائَـةِ، ثُـمَّ مَـضَى، فَقُلْـتُ: يُـصَلِّي بِهَـا [أي بـسورة البقـرة] فِي رَكْعَـةٍ، فَمَضَى؛ فَقُلْتُ: يَرْكَعُ بِهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ النِّسَاءَ فَقَرَأَهَا، ثُمَّ افْتَـتَحَ آلَ عِمْـرَانَ فَقَرَأَهَـا، يَقْـرَأُ مُتَرَسِّـلاً: إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَسْبِيحٌ سَبَّحَ، وَإِذَا مَرَّ بِسُؤَالٍ سَـأَلَ، وَإِذَا مَـرَّ بِتَعَـوُّذٍ تَعَـوَّذَ، ثُـمَّ رَكَـعَ، فَجَعَـلَ يَقُولُ: « سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ »، فَكَـانَ رُكُوعُـهُ نَحْـوًا مِـنْ قِيَامِـهِ، ثُـمَّ قَـالَ: «سَـمِعَ الـلــه لِمَـنْ

(1) رواه البخاري في كتاب التفسير (باب: ليغفر لك الـلـه ما تقدم من ذنبك وما تأخر...) ص1237، حديث 4837، ومسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم (باب: إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة) 2172/4، حديث 2820.

حَمِدَهُ »، ثُمَّ قَامَ طَوِيلاً قَرِيبًا مِمَّا رَكَعَ، ثُمَّ سَجَدَ فَقَالَ: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَى »، فَكَانَ سُجُودُهُ قَرِيبًا مِنْ قِيَامِهِ)(1).

3- عن ابن مسعودﷺ قال: (صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّﷺ لَيْلَةً، فَلَمْ يَزَلْ قَائِمًا حَتَّى هَمَمْتُ بِأَمْرِ سَوْءٍ. قُلْنَا وَمَا هَمَمْتَ؟ قَالَ: هَمَمْتَ أَنْ أَقْعُدَ وَأَذَرَ النَّبِيَّﷺ)(2).

ونجد النبيﷺ في الحديث الأوّل قد أقرّ ما ذكرته السيدة عائشة من أنّ اللـه تعالى غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، لكنّه أراد أن يظل متمسكا بتهجده؛ ليكون دائم الشكر للـه تعالى.

ويشير الحديث الثاني إلى طول تهجد النبيﷺ؛ إذ قرأ في ركعة واحدة سورة البقرة والنساء وآل عمران، وكان يقرأ مترسلا، متأملا في الآيات التي يقرؤها، وهكذا الأمر في ركوعه وسجوده، يطيل في كل منهما نحوا من قيامه. هكذا كانت عبادتهﷺ.

وهكذا الأمر في الحديث الثالث، فإنّه يشير إلى طول صلاته عليه الصلاة والسلام في الليل، الأمر الذي جعل ابن مسعود يعاني من التعب حتى همّ أن يجلس في صلاته ويدع النبيﷺ واقفا.

لقد كان ابن مسعودﷺ حريصا كل الحرص على الاقتداء بالنبي

(1) رواه مسلم في كتاب صلاة المسافرين (باب: استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل) 536/1-537، حديث 772.
(2) رواه البخاري في كتاب التهجد (طول القيام في صلاة الليل) ص330، حديث 1135، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين (باب: استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل) 537/1، حديث 773.

الكريم في كل عمل من أعماله أو قول من أقواله، لكنّ حال النبيﷺ في القيام ليست كحال ابن مسعود، ولا قوة النبي كقوة ابن مسعود في تحمل القيام، ولم يكن ابن مسعود قد اعتاد ما اعتاده النبيﷺ من طول القيام آنذاك؛ لذلك صدر منه الهم ولم يفعل، وبعد أن روّضﷺ نفسه على هذه العبادة مارسها ولم يشعر بشيء من الضيق من طول الصلاة. فقد كانﷺ إذا هدأت العيون قام فيُسمع له دوي كدوي النحل حتى يُصبح.

آيات كريمة تُثني على من يقوم الليل

أمّا الآيات الكريمة التي نزلت على النبيﷺ وهي تُثني على الذين يبيتون لربهم سجدا وقياما فكثيرة، منها ما يأتي:

قال اللـه تعالى:

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾) سورة الفرقان.

وقال:

(تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾) سورة السجدة.

ومدح اللـه القانتين آناء الليل فقال:

(أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٩﴾)سورة الزمر.

وقال تعالى في المتقين:

(**كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾**) سورة الذاريات.

وقال تعالى واصفا أصحاب محمدﷺ:

(**مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللـه وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللـه وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ**) سورة الفتح/29.

وهكذا ظلّ رسول اللـهﷺ قائما بأمر عبادة اللـه، وقيام الليل حتى أتاه من ربه اليقين.

النبي الكريم يرغّب صحابته في قيام الليل

كان صلوات اللـه وسلامه عليه يرغّب صحابته بصلاة الليل -وهو ترغيب لكل مسلم- فقال:

«أَفْضَلُ الصِّيَامِ بَعْدَ رَمَضَانَ: شَهْرُ اللــه الْمُحَرَّمُ، وَأَفْضَلُ الصَّلاَةِ بَعْدَ الْفَرِيضَةِ: صَلاَةُ اللَّيْلِ»(1).

ومن تحريض النبيﷺ على الصلاة بالليل قوله:

«سُبْحَانَ اللـه! مَاذَا أُنْزِلَ اللَّيْلَةَ مِنَ الْفِتْنَةِ! مَاذَا أُنْزِلَ مِنَ الْخَزَائِنِ؟! مَنْ يُوقِظُ صَوَاحِبَ الْحُجُرَاتِ؟! يَا رُبَّ كَاسِيَةٍ فِي الدُّنْيَا عَارِيَةٍ فِي الآخِرَةِ»(2).

وقولهﷺ:

«أَفْشُوا السَّلاَمَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصِلُوا الأَرْحَامَ، وَصَلُّوا وَالنَّاسُ

---

(1) رواه مسلم في كتاب الصيام (باب: فضل صوم المحرم) ص 478، حديث 2755، طبعة دار الفيحاء ودار السلام.

(2) رواه البخاري في كتاب التهجد (باب: تحريض النبيﷺ على قيام الليل والنوافل من غير إيجاب) ص180، حديث 1126، طبعة دار الفيحاء ودار السلام.

نِيَامٌ، تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلاَمٍ»(1).

وقوله:

«إن في الجنة غرفا يرى ظاهرها من باطنها ، وباطنها من ظاهرها، أعدها اللـه لمن أطعم الطعام، وأفشى السلام، وصلى بالليل والناس نيام»(2).

وقوله:

«يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ يَقُولُ مَـنْ يَدْعُونِى فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟»(3).

وقوله:

«عَلَيْكُمْ بِقِيَامِ اللَّيْلِ فَإِنَّهُ دَأْبُ الصَّالِحِينَ قَبْلَكُمْ وَإِنَّ قِيَامَ اللَّيْلِ قُرْبَةٌ إِلَى اللـه وَمَنْهَاةٌ عَنِ الإِثْمِ وَتَكْفِيرٌ لِلسَّيِّئَاتِ وَمَطْرَدَةٌ لِلدَّاءِ عَنِ الْجَسَدِ»(4).

لقد كان النبيﷺ يعلم ما لصلاة الليل من الأجر، فكان يحـض صـحابته بأسـاليبه الكثـيرة من أجل الحفاظ عليها، قال ربيعة بن كعب الأسلمي:

(كنْتُ أَبِيتُ مَعَ رَسُولِ اللـهﷺ، فَأَتَيْتُهُ بِوَضُوئِهِ وَحَاجَتِهِ، فَقَالَ لِي: «سَـلْ»! فَقُلْـتُ: أَسْـأَلُكَ مُرَافَقَتَـكَ فِى الْجَنَّـةِ. قَـالَ: «أَوَغَـيْرَ ذَلِـكَ؟» قُلْـتُ: هُـوَ

---

(1) رواه الإمام أحمد 201/39، حديث 3784، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وعادل مرش.

(2) رواه ابن حبان في صحيحه في كتاب البر والإحسان (باب: إفشاء السلام وإطعام الطعام) 262/2، حديث 509 بتحقيق وتخريج شعيب الأرناؤوط.

(3) رواه البخاري في كتاب التهجد (باب: الدعاء والصلاة من آخر الليل) ص183، حديث 1145.

(4) رواه الترمذي في كتاب الدعوات (باب: من فتح له منكم باب الدعاء) ص809، حديث 3549، طبعة دار الفيحاء ودار السلام.

ذَاكَ. قَالَ: «فَأَعِنِّى عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ»)(1).

وعن علي بن أبي طالبﷺ: (أنّ رسول اللـهﷺ طرقه وفاطمة بنت النبيعليه السلام ليلة فقال: «ألا تصليان؟»، فقلت: يا رسول اللـه، أنفسنا بيد اللـه، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا؛ فانصرف حين قلنا ذلك ولم يرجع إلي شيئا، ثم سمعته وهو مول، يضرب فخذه وهو يقول: (**وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا**)(2). فلم يقدم النبيﷺ على إيقاظ ابنته وابن عمه من نومها في وقت راحتهما وسكونهما إلا من أجل أن يحرزا فضيلة عظمى هي فضيلة صلاة الليل لما ينال صاحبها من منزلة عظيمة يوم القيامة.

وكان عليه الصلاة والسلام يريد من المسلم الذي يقوم الليل أن يداوم على ذلك ولا يتركه، فقال عبد اللـه بن عمرو بن العاص رضي اللـه عنهما: (قَالَ لِي رَسُولُ اللـهﷺ يَا عَبْدَ اللـه، لاَ تَكُنْ مِثْلَ فُلاَنٍ، كَانَ يَقُومُ اللَّيْلَ فَتَرَكَ قِيَامَ اللَّيْلِ»)(3).

إنّ مكابدة الساعات الطويلة في عبادة صلاة الليل، والوقوف الدائم أكثر الليل: صلاة وركوعا وسجودا وتلاوة للقرآن ليس بالأمر اليسير؛

(1) رواه مسلم في كتاب الصلاة (باب: فضل السجود والحث عليه) 353/1، حديث 489.

(2) رواه البخاري في كتاب التهجد (باب: تحريض النبيﷺ على صلاة الليل والنوافل) ص328، حديث 1127، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين (باب: ما رُوي فيمن نام الليل أجمع حتى أصبح) 538/1، حديث 775.

(3) رواه البخاري في كتاب التهجد (باب: ما يكره من ترك قيام الليل لمن كان يقومه) ص333، حديث 1152، ومسلم في كتاب الصيام (باب: النهي عن صوم الدهر) 814/2، حديث 1159.

ذلك لأنّها تحتاج إلى مجاهدة النفس، ومخالفة الشيطان، ومقاومة الهوى، وبخاصّة في الأيام الأولى لقيام الليل، فإذا تغلّب المسلم على ذلك، وجد لذة تلك العبادة؛ فتصير سعادته الكبرى فيها. لذلك كان الحسن البصري يقول:

(لم أجد من العبادة شيئاً أشد من الصلاة في جوف الليل، فقيل له: ما بال المتهجدين أحسن الناس وجوها؟ فقال: لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم من نوره)(1).

الصحابة وقيام الليل

ولقد اقتدى الصحابة وآل بيته الأطهار بهدي النبيﷺ في عبادته: فكان منهم من عُرِف بقيام الليل وصيام النهار؛ فتسابقوا إليها، وكان منهم من يقف في صلاته كأنّه وتد أو سارية، ومنهم من تورمت قدماه من كثرة القيام، ومنهم من يسجد فيغرق مكان سجوده بالدموع؛ خوفا من الله، وطمعا في جنته، ومنهم من كان يقرأ آية من كتاب الله، ويظل ليله مرددا لها حتى يصبح، ومنهم من يقرأ القرآن في ركعة واحدة.

وسأذكر أمثلة تفصح عن أثر النبيﷺ في بناء شخصية الصحابة في قيام الليل: أولئك الذين اجتهدوا في عبادتهم لله، ففازوا بنصيب كبير من رضوان الله، حتى صارت رحمات الله تتنزل بذكرهم.

قال سعيد بن المسيّب: (كان عمر بن الخطابؓ يحب الصلاة في

(1) مختصر منهاج القاصدين لابن قدامة المقدسي ص83، بتحقيق: زهير الشاويش، الطبعة التاسعة 1421-2000، المكتب الإسلامي، بيروت.

جوف الليل)(1).

ولم يكن لهﷺ وقت معين ينام فيه: فكان ينعس وهو قاعد، فقيل له: يا امير المؤمنين، الا تنام؟ فقال: كيف انام: إن نمت بالنهار ضيعت امور المسلمين، وان نمت بالليل ضيعت حظي من الله ﷻ (2) -يعني القيام-.

وعن زيد بن أسلم عن أبيه (أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ كَانَ يُصَلِّى مِنَ اللَّيْلِ مَا شَاءَ اللهُ، حَتَّى إِذَا كَانَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ أَيْقَظَ أَهْلَهُ لِلصَّلاَةِ، يَقُولُ لَهُم: الصَّلاَةَ الصَّلاَةَ! ثُمَّ يَتْلُو هَـذِهِ الآيَةَ: [وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاَةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لاَ نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى])(3).

(وكان في وجهه خطان أسودان مثل الشراك من البكاء وكان يمر بالآية من ورده بالليل فيبكي حتى يسقط ويبقى في البيت حتى يعاد للمرض)(4).

(كان يصلي بالناس العشاء، ثم يدخل إلى بيته فلا يزال يصلي إلى آخر الليل)(5).

أمّا عثمان بن عفانﷺ، فقد قال فيه عطاء بن أبي رباح:

---

(1) صفة الصفوة لابن الجوزي 286/1، تحقيق: محمود فاخوري ود. محمد رواس قلعه جي، الطبعة الثانية 1399-1979، دار المعرفة، بيروت.

(2) صفة الصفوة 382/2.

(3) رواه الإمام مالك في (ما جاء في صلاة الليل) 175/1، حديث 311، بتحقيق: د. بشار عواد معروف، الطبعة الأولى 1416-1996، دار الغرب الإسلامي، بيروت.

(4) التبصرة لابن الجوزي 361/1، بتحقيق: خيري سعيد، المكتبة التوفيقية، القاهرة.

(5) أنساب الأشراف للبلاذري 419/3.

(إنّ عثمان بن عفانﷺ صلى بالناس، ثم قام خلف المقام، فجمع كتاب الله في ركعة كانت وتره؛ فسميت البتيراء)(1).

وقال الحافظ الذهبي:

(وصحّ من وجوه أنّ عثمان قرأ القرآن كله في ركعة)(2).

وكانﷺ (يصوم الدهر، ويقوم الليل إلا هجعة من أوله)(3).

وحدّث ما شئت أن تُحدّث عن أمير المؤمنين سيدنا علي بن أبي طالبﷺ فقد وصف ضرار بن ضمرة سيدنا عليا بأنّه كان (يستوحش من الدنيا وزهرتها، ويستأنس بالليل وظلمته)(4).

ولمّا دخل الأشتر النخعي عليهﷺ وهو قائم يصلي؛ فقال له: يا أمير المؤمنين، صوم بالنهار، وسهر بالليل، وتعب فيما بين ذلك! فلمّا فرغ علي من الصلاة قال له: (سفر الآخرة طويل، فيحتاج إلى قطعه بسير الليل)(5).

وكان عبد الله بن مسعود سيدا من سادات من يقوم الليل، فقد روى علقمة بن قيس هذا الحديث فقال: (بِتُّ مَعَ عَبْدِ الله بن مَسْعُودٍ لَيْلَةً فَقَامَ

(1) الطبقات الكبرى لابن سعد 75/3.

(2) تاريخ الإسلام للذهبي 476/3، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، الطبعة الأولى 1407-1987، دار الكتاب العربي.

(3) المصنف لابن أبي شيبة 73/2، حديث 6610، تحقيق: محمد عبد السلام شاهين، الطبعة الثانية 1426-2005، دار الكتب العلمية، بيروت.

(4) صفة الصفوة لابن الجوزي 315/1.

(5) علي بن أبي طالب، تأليف: علي محمد محمد الصلابي ص269-270، طبعة دار ابن كثير الثانية 1426-2005، دار ابن كثير، دمشق-بيروت.

أَوَّلَ اللَّيْلِ، ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي فَكَانَ يَقْرَأُ قِرَاءَةَ الإِمَامِ فِي مَسْجِدِ حَيِّهِ، يُرَتِّلُ، وَلا يُرَجِّعُ يُسْمِعُ مَنْ حَوْلَهُ، وَلا يَرْفَعُ صَوْتَهُ حَتَّى لَمْ يَبْقَ عَلَيْهِ مِنَ الْغَلَسِ إِلا كَمَا بَيْنَ الأَذَانِ لِلْمَغْرِبِ إِلَى انْصِرَافٍ مِنْهَا، ثُمَّ أَوْتَرَ)(1).

(وكانﷺ إذا هدأت العيون قام فيسمع له دوي كدوي النحل)(2).

وقال:

(كفى بالمرء من الشقاء -أو من الخيبة- أن يبيت وقد بال الشيطان في اذنه، فيصبح ولم يذكر الله)(3).

وقالﷺ:

(فضل صلاة الليل على صلاة النهار، كفضل صدقة السرّ على صدقة العلانية)(4).

وقد وصف معاذ بن جبلﷺ صلاته في الليل فقال:

(انام أوّل الليل، فأقوم وقد قضيت جزئي من النوم، فأقرأ ما كتب الله لي، فأحتسب نومي كما أحتسب قومتي)(5).

وكان معاذ يقول حين يتهجد من الليل:

(1) رواه الطبراني في الكبير 280/9، حديث 9404، تحقيق: السلفي، الطبعة الثانية 1422-2002، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(2) الزهد للإمام أحمد بن حنبل ص212، حديث 852، ضبط نصوصه: عادل سعد محمد مطاوع، 1431-2010، دار العقيدة، القاهرة.

(3) المصنف لابن أبي شيبة، 125/7، رقم 34544.

(4) حلية الأولياء،130/1.

(5) رواه البخاري في كتاب المغازي(باب: بعث أبي موسى الأشعري ومعاذ الى اليمن قبل حجة الوداع. ص1078، حديث4341 و4342.

(اللـهم قد نامَت العُيون، وغارت النجوم، وأنت حيٌّ قيوم، اللـهم طلبي للجنة بطئ، وهربي من النار ضعيف، اللـهم اجعل لي عندك هُدىً ترده إليّ يوم القيامة؛ إنك لا تخلف الميعاد)(1).

ويتحدث التابعي الجليل مجاهد عن عبد اللـه بن الزبير فيقول: كان ابن الزبير إذا قام في الصلاة كأنه عود من الخشوع(2).

وقال مسلم بن يناق:

(ركع ابن الزبير يوماً ركعة، فقرأت البقرة وآل عمران والنساء والمائدة، وما رفع رأسه)(3).

وروى يوسف بن الماجشون عن الثقة بسنده قال:

(قسم ابن الزبير الدهر على ثلاث ليال: فليلة هو قائم حتى الصباح، وليلة هو راكع حتى الصباح، وليلة هو ساجد حتى الصباح)(4).

وقالت أسماء بنت أبي بكر الصديق: كان ابن الزبير قوام الليل، صوام النهار، وكان يسمى حمام المسجد(5).

أما ابن عباس -رضي اللـه عنهما- فقد قال: (ركعتان مقتصدتان في تفكّر، خير من قيام ليلة والقلب ساه)(6).

---

(1) صفة الصفوة لابن الجوزي، 492/1.
(2) صفة الصفوة، 765/1.
(3) تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر، 171/28.
(4) سير أعلام النبلاء للذهبي، 369/3.
(5) حلية الاولياء، 335/1.
(6) إحياء علوم الدين للإمام الغزالي 151/1، دار المعرفة، بيروت.

وقد كانﷺ يطبّق ذلك في عبادته. فعن عبد اللـه بن أبي مليكة قال: (صحبت ابن عباس من مكة إلى المدينة، فكان إذا نزل قام شطر الليل، يرتل ويكثر في ذلك التسبيح)(1).

لقد كان ابن عباس يدرك بثاقب بصيرته مقاصد الشريعة في العبادة، وزاد من معرفته حقيقة العبادة عيشه الأول مع الرسولﷺ، واطلاعه على عبادته، فكانت مصاحبته للنبي الكريم دروسا عملية تلقاها عنه صلوات اللـه وسلامه عليه. وبعد أن انتقل النبي إلى جوار ربه، صحب عمر بن الخطاب، ورأى عبادته كيف كانت. فلا عجب إذا رأينا ابن عباس قد صار محبا لعبادة اللـه متهجدا في ليله.

وهكذا الأمر في أنس بن مالك خادم النبيﷺ، فقد (كان أنس يصلي فيطيل القيام، حتى تقطر قدماه دما)(2).

وهكذا الأمر مع عبد اللـه بن عمر بن الخطاب رضي اللـه عنهما، فقد قال النبيﷺ يوما في عبد اللـه بن عمر: « نِعْمَ الرَّجُلُ عَبْدُ اللـه، لَوْ كَانَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ ». فَكَانَ عبد اللـه بَعْد ذلك لاَ يَنَامُ مِنَ اللَّيْلِ إِلاَّ قَلِيلاً(3).

(كان له مهراس فيه ماء فيصلي ما قُدّر له، ثم يصير إلى الفراش، فيغفي إغفاء الطائر، ثم يقوم فيتوضأ، ثم يصلي، ثم يرجع إلى فراشه،

(1) صفة الصفوة 755/1.

(2) صفة الصفوة 711/1.

(3) رواه البخاري في كتاب فضائل أصحاب النبيﷺ (باب: مناقب عبد اللـه بن عمر بن الخطاب رضي اللـه عنهما) ص946، حديث 3739، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة (باب: من فضائل عبد اللـه بن عمر رضي اللـه عنهما) 1928/4، حديث 2479.

فيغفى إغفاء الطائر، ثم يثب فيتوضأ، ثم يصلي، يفعل ذلك في الليل أربع مرات أو خمسا)(1).

وعن نافع قال: (كان ابن عمر إذا فاتته صلاة العشاء في الجماعة أحيا بقية ليلته)(2).

وكانﷺ يقول:

(ما آسى على شيء من الدنيا إلا ظمأ الهواجر، ومكابدة الليل..)(3).

أمّا أسيد بن حضير، فيروي قصة تلاوته القرآن في جوف الليل أبو سعيد الخدريﷺ فيقول:

(إِنَّ أُسَيْدَ بْنَ حُضَيْرٍ، بَيْنَمَا هُوَ لَيْلَةً يَقْرَأُ فِي مِرْبَدِهِ؛ إِذْ جَالَتْ فَرَسُهُ. فَقَرَأَ، ثُمَّ جَالَتْ أُخْرَى، فَقَرَأَ، ثُمَّ جَالَتْ -أَيْضًا-. قَالَ أُسَيْدٌ: فَخَشِيتُ أَنْ تَطَأَ يَحْيَى، فَقُمْتُ إِلَيْهَا، فَإِذَا مِثْلُ الظُّلَّةِ فَوْقَ رَأْسِي، فِيهَا أَمْثَالُ السُّرُجِ عَرَجَتْ فِي الْجَوِّ، حَتَّى مَا أَرَاهَا؛ فَغَدَوْتُ عَلَى رَسُولِ اللهﷺ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، بَيْنَمَا أَنَا الْبَارِحَةَ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ أَقْرَأُ فِي مِرْبَدِي؛ إِذْ جَالَتْ فَرَسِي؛ فَقَالَ رَسُولُ اللهﷺ: «اقْرَأ ابْنَ حُضَيْرٍ». قَالَ: فَقَرَأْتُ، ثُمَّ جَالَتْ أَيْضًا، فَقَالَ رَسُولُ اللهﷺ: «اقْرَأ ابْنَ حُضَيْرٍ»، قَالَ: فَقَرَأْتُ، ثُمَّ جَالَتْ أَيْضًا، فَقَالَ رَسُولُ اللهﷺ: «اقْرَأ ابْنَ حُضَيْرٍ»، قَالَ: فَانْصَرَفْتُ -وَكَانَ يَحْيَى قَرِيبًا مِنْهَا خَشِيتُ أَنْ تَطَأَهُ- فَرَأَيْتُ مِثْلَ الظُّلَّةِ، فِيهَا أَمْثَالُ السُّرُجِ عَرَجَتْ فِي الْجَوِّ حَتَّى مَا أَرَاهَا؛ فَقَالَ رَسُولُ اللهﷺ: « تِلْكَ الْمَلاَئِكَةُ كَانَتْ تَسْتَمِعُ لَكَ،

---

(1) الإصابة 295/6 بتحقيق د. عبد الله عبد المحسن التركي ود. عبد السند حسن يمامة.

(2) الإصابة 300/6.

(3) رهبان الليل، د. سيد بن حسين العفاني، 353/1 نقلا عن مختصر قيام الليل ص25.

وَلَوْ قَرَأْتَ لَأَصْبَحَتْ يَرَاهَا النَّاسُ: مَا تَسْتَتِرُ مِنْهُمْ »(1).

وفي مثل هذا ما رواه البراء بن عازبﷺ قال:

(كَانَ رَجُلٌ يَقْرَأُ سُورَةَ الْكَهْفِ، وَعِنْدَهُ فَرَسٌ مَرْبُوطٌ بِشَطَنَيْنِ –أي بحبلين طويلين- فَتَغَشَّتْهُ سَحَابَةٌ، فَجَعَلَتْ تَدُورُ وَتَدْنُو، وَجَعَلَ فَرَسُهُ يَنْفِرُ مِنْهَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ أَتَى النَّبِيَﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ فَقَالَ: «تِلْكَ السَّكِينَةُ تَنَزَّلَتْ لِلْقُرْآنِ»)(2) (3).

---

(1) رواه مسلم في كتاب صلاة المسافرين (باب: نزول السكينة لقراءة القرآن) 548/1-549، حديث 796.

(2) رواه مسلم في كتاب صلاة المسافرين (باب: نزول السكينة لقراءة القرآن) حديث 795.

(3) وقد حدث لمثل هذا لأخي الطبيب الشيخ ادريس الحاج داؤد –رحمه اللـه- فلقد قمنا بزيارة قرية من قرى الموصل، وفي طريق العودة، طلب منّا أستاذنا الداعية غانم حمودات أن يذكر كل واحد منّا حادثة غريبة وقعت له، فحدثنا الدكتور إدريس الحاج داؤد قائلا:

أتاني رجل بعد منتصف الليل في الشتاء، وذكر أنّ في بيته مريضا يعاني من ألم شديد، ويشق عليه البقاء إلى الصباح، وطلب منّي أن أذهب معه لأصف له العلاج. قال: فذهبت معه ووصفت له العلاج، ثم عدت إلى داري وقلت: سأصلي صلاة الليل إلى أذان الفجر، وكان مفتاح مسجد الصديق عندي افتحه كل يوم لصلاة الفجر، وأقوم برفع الأذان فيه، فقمت بصلاة الليل إلى الفجر، ثم قمت على العادة ففتحت المسجد لصلاة الفجر وصلينا فيه، ولمّا ذهبت إلى عيادتي صباحا جاءني رجل لا أعرفه وقال لي:= =أنت واللـه تقوم الليل! فأجبته أخشى أن تكون مخطئا! قال: لا واللـه، إنّ اللـه تعالى أكرمني فجعلني أرى قناديل من نور فوق بيت كل من يصلي صلاة الليل.

إنّها كرامة تؤيدها ما ثبت عن صحابة النبيﷺ.

وهذا تميم الداريﷺ كان كثير الصلاة بالليل، وقد (قام ليلة بآية حتى أصبح وهي: (**أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾**)(1) سورة الجاثية.

وعن المنكدر بن محمد عن أبيه (أنّ تميما الداري نام ليلة لم يقم يتهجد؛ فقام سنة لم ينم فيها؛ عقوبة للذي صنع)(2).

وقال ابن المبارك: (ما بلغني عن أحد من أصحاب النبي ﷺ من العبادة ما بلغني عن تميم الداري)(3).

وننظر إلى سبط النبي ﷺ الحسن بن علي بن أبي طالب، فنراه يأخذ نصيبه من القيام أوّل الليل، وأمّا أخوه الحسين بن علي، فكان يقيم آخر الليل(4).

واتخذ أبو هريرة له منهجا خاصا في صلاة التهجد: فكان هو وامرأته وخادمه يعتقبون الليل أثلاثا: (يصلي هذا، ثم يوقظ هذا، ويصلي هذا، ثم يوقظ هذا)(5).

وحدّث أبو هريرة عن منهجه في قيام الليل فقال: (إِنِّي لأُجَزِّئُ اللَّيْلَ ثَلاَثَةَ أَجْزَاءٍ، فَثُلُثٌ أَنَامُ، وَثُلُثٌ أَقُومُ، وَثُلُثٌ أَتَذَكَّرُ أَحَادِيثَ رَسُولِ اللهِ ﷺ)(6).

---

(1) الإصابة 10/2 بتحقيق: عبد الله التركي.

(2) سير أعلام النبلاء 445/2.

(3) الزهد للإمام أحمد ص273، حديث 1115بتحقيق: عادل سعد محمد مطاوع.

(4) الزهد للإمام أحمد ص236، حديث 960.

(5) الحلية لأبي نعيم 382/1، والإصابة 442/7، وسير أعلام النبلاء 609/2.

(6) سنن الدارمي 79/1، تحقيق: سيد إبراهيم وعلي محمد علي، الطبعة الأولى، 1420-2000 ، دار الحديث، القاهرة.

وأمّا عن قيام أبي الدرداء، فيكفينا أن نذكر قوله: (لولا ثلاث ما أحببت البقاء: ساعة ظمأ الهواجر، والسجود في الليل، ومجالسة أقوام ينتقون جيد الكلام كما ينتقى أطايب الثمر)(1).

أمّا أبو ذر الغفاري، فكان يقول:

(يا أيها الناس، إني لكم ناصح، إني عليكم شفيق، صلوا في ظلمة الليل لوحشة القبور، وصوموا الدنيا لحر يوم النشور، وتصدقوا مخافة يوم عسير، يا أيها الناس، إني لكم ناصح، إني عليكم شفيق)(2).

وكان عامر بن عبد قيس يبكي على ظمأ الهواجر وقيام الليل. و (لمّا احتضر عامر بكى، فقيل: ما يبكيك؟ قال: ما أبكي جزعا من الموت، ولا حرصا على الدنيا، ولكن أبكي على ظمأ الهواجر، وقيام الليل)(3).

وحدّث ما شئت أن تحدث عن قيام عباد بن بشر، وعثمان بن مظعون، وسالم مولى أبي حذيفة، وعمرو بن العاص، وسعيد بن عامر، وشداد بن أوس، وعامر بن ربيعة، والمنذر بن عمرو، وأبي ثعلبة الخشني، وسهيل بن عمرو، وعبد الله بن حنظلة وغيرهم(4).

إنّ كل ما ذكرته هنا من صلاة التهجد وقيام الليل لعدد من الصحابة كان نماذج ليس إلا؛ لأنّ أكثر الصحابة كان دأبهم قيام الليل والناس نيام،

(1) سير أعلام النبلاء 349/2.

(2) الزهد للإمام أحمد ص202، حديث 807 تحقيق: عادل سعد محمد مطاوع، 2010-1431، دار العقيدة، القاهرة-الاسكندرية.

(3) سير أعلام النبلاء 19/4.

(4) لزيادة الاطلاع ينظر: رهبان الليل، تأليف: د. سيد بن حسين العفاني، 332/1-375.

وقد وصف أمير المؤمنين سيدنا علي بن أبي طالبﷺ ما كان عليه الصحابة من كثرة القيام والصلاة فقال:

(لقد رأيت أصحاب محمدﷺ، فما أرى أحدا يشبههم: لقد كانوا يصبحون شعثاً غبراً، وقد باتوا سجداً وقياماً، يراوحون بين جباههم وخدودهم، ويقفون على مثل الجمر من ذكر معادهم، كأن بين أعينهم ركب المعزى من طول سجودهم، إذا ذكر الله هملت أعينهم حتى تُبِلّ جيوبهم، ومادوا كما يميد الشجر يوم الريح العاصف؛ خوفا من العقاب، ورجاءا للثواب)(1).

ولقد كان قيام الصحابة في الليل من أسباب إسلام هند بنت عتبة زوج أبي سفيان. ففي صبيحة فتح مكة أقبلت إلى زوجها تقول له: أريد أن أبايع محمداﷺ (...إنّي والله ما رأيت الله عُبد حق عبادته في هذا المسجد قبل الليلة، والله إن باتوا إلا مصلين قياما وركوعا وسجودا)(2).

إنّه جانب ضئيل من عبادة صحابة النبيﷺ، تتمثّل فيه المحبة للصلاة في جوف الليل في صورة من أبدع صورها، ولا يستطيع أن يقوم بهذا إلا أصحاب الهمم العالية، أولئك الذين ذاقوا لذة التهجد في جوف الليل، فكانت

(1) نهج البلاغة ص178، شرح الإمام: محمد عبده، بتحقيق: أحمد جاد، الطبعة الأولى 1427-2006، دار الغد الجديد، القاهرة.

(2) معرفة الصحابة لأبي نعيم الأصبهاني 318/5، تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل ومسعد عبد الحميد السعدني، الطبعة الأولى 1422-2002، دار الكتب العلمية، بيروت، والإصابة في تمييز الصحابة 268/14 تحقيق: عبد الله التركي وعبد السند حسن يمامة، الطبعة الأولى 1429-2008، القاهرة، وتاريخ مدينة دمشق لابن عساكر 177/70.

سلوتهم وراحتهم فيه.

ما يعين على قيام الليل

قيام الليل ليس بالأمر اليسير إلا من يسره الـلـه عليه ووفقه له، وهناك امـور تعـين عـلى القيام بعد توفيق الـلـه ينبغي مراعاتها منها ما يأتي:

1-عدم الاكثار من الطعام:

ان كثرة الطعام يتبعها كثرة الشرب، ولا ريب ان ذلـك يـؤدي الى ثقـل يجـده الانـسان في جسده، فيغلبه النوم، فلا يقدر على قيام الليـل وقـد تـؤدي كـثرة الطعـام والـشراب تلـذذاً الى السمن الذي ذمه النبيﷺ، فقال:

«خير القرون قرني ثم الذين يلونهم» قال عمران: فلا أدري أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثـا، «ثم إنّ بعدكم قوما يـشهدون ولا يستـشهدون، ويخونـون ولا يؤتمنـون، وينـذرون ولا يفـون، ويظهر فيهم السمن»(1).

فكأن الحديث الشريف يذم من يتخذ أسباب السمن، وهذا لا يشمل من كان جسمه له القابلية على السمن.

وقالﷺ:

«ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطـن، حـسب ابـن آدم أكـلات يقمـن صـلبه، فـإن كـان لا محالة فثلث طعام، وثلث شراب، وثلث لنَفِسه»(2).

---

(1) رواه الامام أحمد في مسنده 15/47-48، والبخاري في كتاب أصحاب النبيﷺ(باب:فضائل أصحاب النبيﷺ)، ص612، حديث3650، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة (باب:فضل الصحابة ثم الذين يلونهم)، 4/1964، حديث 2535.

(2) رواه الامام أحمد في مسنده -واللفظ له- 28/422-423، طبعة شعيب الارناؤوط وجماعته، والترمذي في كتاب الزهد (باب:ما جاء في كراهية كثرة الاكل) ص542، حديث2380، طبعة دار الفيحاء ودار السلام.

ورأى معقل بن حبيب قوماً يأكلون كثيراً فقال: ما نرى أصحابَنا يريدون يصلون الليلة.

وقال سفيان الثوري: (عليكم بقلة الأكل تملكون قيام الليل)(1).

2-ترك المعاصي:

تبعد المعاصي الانسان عن ربه، فيقسو قلبه، وتحول تلك بينه وبين قيام الليل، يعرف ذلك تمام المعرفة المتقون، اولئك الذين زكوا انفسهم بالطاعات، وابتعدوا عن المعاصي والآثام. فقال سفيان الثوري:

(حرمت قيام الليل خمسة أشهر بذنب أذنبته)(2).

وقال الحسن البصري:

(إن العبد ليذنب الذنب فيحرم به قيام الليل وصيام النهار)(3).

وقال-أيضاً-:

(ما ترك أحد قيام الليل إلا بذنب أذنبه، تفقدوا نفوسكم كل ليلة عند الغروب، وتوبوا إلى ربكم لتقوموا الليل) وكان كثيراً ما يقول: (إنما يثقل قيام الليل على من أثقلته الخطايا)(4).

وقال رجل لابراهيم بن أدهم: (إني لا أقدر على قيام الليل، فصف لي دواءاً؛ فقال: لا تعصه بالنهار وهو يقيمك بين يديه في الليل؛ فان وقوفك

(1) كتاب تنبيه المغترين للشعراني ص72 وضح حواشيه: الشيخ عبد الوارث محمد علي، دار الكتب العلمية، طبع سنة 1431-2010.

(2) حلية الأولياء 15/7، ومختصر منهاج القاصدين لابن قدامة ص83.

(3) رهبان الليل د. سيد بن حسين العفاني777/1.

(4) تنبيه المغترين للشعراني ص71-72.

بين يديه في الليل من أعظم الشرف، والعاصي لا يستحق ذلك الشرف)(1).

والخطايا التي يرتكبها الانسان قد تكون سبباً من أهم الاسباب التي تحـرم الانـسان قيـام الليل، وقد قيل لابن مسعود: (إنا لا نستطيع قيام الليل! قال أبعدتكم ذنوبكم)(2).

وقيل للحسن البصري: (عجزنا عن قيام الليل! قال: قيدتكم خطاياكم، إنما يؤهّـل الملـوك للخلوة بهم من يصدق في ودادهم ومعاملتهم، فأما من كان من أهل مخالفتهم، فـلا يرضـونه لذلك)(3).

3-ترك السمر بعد العشاء(4):

دعا النبيﷺ صحابته الى ترك السمر بعد العشاء، ونهى عنه وذمـه وعابـه لأن الـسمر في كثير من الاحيان يؤدي الى ضياع الوقت الذي هو رأسمال الانسان، فعن ابن مسعود ﷺ قـال: (جدب لنا رسول اللـهﷺ السمر بعد العشاء)(5).

واستجاب الـصحابة لمـا دعـا اليـه النبـيﷺ، فكـان عمـر بـن الخطـابﷺ يدعو الناس الى الذهاب الى بيوتهم بعد صلاة العشاء ويقول لهم: (قوموا؛ لعل اللــه يـرزقكم صـلاة)، بـل كـان يـضرب النـاس بدرتـه ويقـول: (أسَـمَرٌ أولَ

(1) تنبيه المغترين للشعراني ص72.

(2) رهبان الليل 778/1.

(3) رهبان الليل 778/1-779.

(4) لزيادة الاطلاع ينظر: رهبان الليل 781/1-787.

(5) رواه ابن ماجه في كتاب الصلاة (باب: النهي عن النوم قبل صلاة العشاء وعن الحديث بعدها) 230/1، حديث703، والامام أحمد في مسنده.

الليل ونوم آخره؟!). وكانت عائشة رضي الـلـه عنها اذا سمعت أحداً من أهلها يتحـدث بعـد العشاء قالت: (أريحوا كُتابكم). وجاء رجل الى دار حذيفة بن اليمان فخـرج اليـه وسـأله عـن حاجته؟ فقال: الحديث! فلم يدخله حذيفة، واغلق الباب دونه وقال له: (جدب لنا عمـر بـن الخطاب الحديث لنا بعد العتمة).

وكثيراً ما كان الاباء يدْعون ابناءهم الى النوم بعد صلاة العشاء من أجل صلاة الليل، فعن معاوية بن قرّة أن أباه كان يقول لبنيه إذا صلى العشاء: (يابنيّ ناموا؛ لعل الـلـه يـرزقكم مـن الليل خيراً).

ومع هذا، فقد ابيح السمر إذا كان في طلب العلم، أو كان في الحـديث مـع الاهـل، أو في شأن مهم من شؤون المسلمين. فعن ابن عمر رضي الـلــه عـنهما قـال: (كـان رسـول الـلــهﷺ يسمر عند أبي بكر الليلة كذلك في أمر من أمور المسلمين وأنا معه)(1).

وعن ابن عباس رضي الـلـه عنهما قال: رقدت في بيت ميمونة ليلـة كـان رسـول الـلــهﷺ عندها لأنظر كيف صلاة رسول الـلـهﷺ بالليل، فتحدّث النبيﷺ مع أهله ساعة، ثم رقد(2).

4-عدم المبالغة في حشو الفراش:

الفـراش اللـين يجعـل الانـسان مـستغرقاً في النـوم الطويـل. لـذلك اتخـذ

(1) رواه الترمذي في أبواب الصلاة (باب: ما جاء في الرخصة في السمر بعد العشاء) ص47، حديث169، طبعة دار الفيحاء ودار السلام.

(2) رواه مسلم في كتاب صلاة المسافرين (باب: الدعاء في صلاة الليل وقيامه) 530/1، حديث 190.

النبيﷺ له فراشاً خشناً ووسادة حشوها ليف، ليساعده ذلك على قيام الليل؛ إذ إن الفراش الوثير قد يعيقه عن ذلك، فكان ينام على حصير، فيراه من يراه من الصحابة وقد أثر الحصير في جنبه؛ فيعتصر الالم قلوب صحابته حين يرونه على هذه الحالة وتذرف منهم الدموع شفقة عليه. ولما اقترح عليه بعض الصحابة أن يتخذ له فراشاً ليناً فأجابه:

(مالي وللدنيا؟ ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب سار في يوم صائف؛ فاستظل تحت شجرة ساعة من نهار، ثم راح وتركها)(1).

وعن عائشة رضي اللـه عنها قالت: دخلت عليّ امرأة من الأنصار فرأت فراش رسول اللـهﷺ قطيفة مثنية؛ فانطلقت فبعثت إليّ بفراش حشوه الصوف؛ فدخل عليّ رسول اللـهﷺ فقال: «ما هذا ياعائشة؟» قالت: قلت يا رسول اللـه، فلانة الانصارية دخلت عليّ فرأت فراشك فذهبت فبعثت إليّ بهذا؛ فقال: «رديه يا عائشة، فواللـه لو شئت لأجرى اللـه معي جبال الذهب والفضة»(2).

ولقد طبق النبيﷺ هذا على من يعول-أيضاً-ضارباً بذلك لنا أعظم مثل، فقد جهّز فاطمة يوم زواجها من عليّ، بجهاز يقربها الى اللـه تعالى، فروى علي بن أبي طالبؓ قال:(جهز رسول اللـهﷺ فاطمة في خميل، وقربة، ووسادة أدَم حشوها ليف الإذخر)(3).

---

(1) سلسلة الاحاديث الصحيحة للشيخ محمد ناصر الدين الالباني، المجلد الاول-القسم الثاني ص800، حديث439.

(2) رواه البيهقي في شعب الايمان 173/2، حديث1468، وابن أبي عاصم في كتاب الزهد14/1، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد11 /102 وهو صحيح بشواهده.

(3) رواه الامام أحمد73/2، رقم643، وصححه أحمد محمد شاكر، وشعيب الارنؤوط.

وللعلم الحديث كلمة

ولا بأس أن نستأنس بقضايا علمية اكتشفت حديثاً، وقد كان ديننا قد دعا إليها منذ إشراق شمسه على الوجود، من ذلك: تلك الفوائد الصحية لقائم الليل. وقد أورد قسماً منها الاستاذ محمد خير رمضان يوسف في كتابه (نوادر الشوارد)(1) فقال:

(قيام الليل يعطي همةً ونشاطاً، ويصرف عن المرء أوجاع الظهر وآلامه في مستقبل حياته. وقد ثبت في إحدى الدراسات الطبية أن المسنين الذين يقومون الليل في رمضان (صلاة التراويح) يتمتعون بمستوى أداء أعلى بالنسبة لفقرات ظهورهم، مقارنة بالذين لا يقومون الليل)(2).

كما إنّ قيام الليل يُعدُّ وقاية من مرض تصلب الشرايين، الذي قد يصيب القلب والدماغ وغيرهما من الأعضاء، فيؤدي إلى الذبحة الصدرية، والجلطة القلبية والدماغية، وذلك لأنّ المستيقظ في الليل يقطع وتيرة النوم وسكونه الطويل، الذي يؤهب إلى ظهور مرض تصلّب الشرايين(3).

وبعد:

فإنّ قيام الليل يُذكّر المسلم بحقيقة ضعفه وعجزه وفقره وذله أمام الله.

---

(1) ص64، الطبعة الأولى 1420-1999،، المكتبة التوفيقية،بيروت

(2) دراسة عن فقرات الظهر وقيام الليل قُدمت في مؤتمر القرآن والإعجاز الطبي في القاهرة عام 1406هـ/الدكتورة سلوى محمد رشدي.

(3) الليل نومه وقيامه، تأليف: سمير إسماعيل الحلو ص62، مكتبة دار التراث 1412هـ المدينة المنورة.

إنه يغرس حقيقة العبودية والانكسار لـلـه وحده، فيعيش بـين الخـوف والرجـاء، يـسأل ربـه مسألة المسكين، ويبتهل إليه ابتهال الخائف الضرير، كما قال الـلـه تعالى في الحديث القدسي:

«..يا عبادي كلكم ضال إلاّ من هديتُه، فاستهدوني أهدكم، يا عبادي، كلكم جـائع إلا مـن أطعمتـه، فاسـتطعموني أطعمكـم، يـا عبـادي كلكـم عـار إلا مـن كـسوته، فاستكـسوني أكسكم...»(1).

وينبغي أن لا يغرب عن بالنا أن التهجد في الليل عامل مهم من عوامـل زرع الاخـلاص في نفس المسلم. إنه يعينه على القيام بأعباء الحياة؛ لذلك دعا رسول الـلـهﷺ صحابته إليه فقال:

«عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم وهو قربة إلى ربكـم، ومكفـرة للـسيئات، ومنهاة للإثم»(2).

وبالمداومة على قيام الليل يشعر المسلم بلذة مناجاته ربه، فيأنس بالـلـه، ويجد سـعادته المثلى في تلك اللحظات، وقد قال أبو سليمان الداراني:

(أهل الليل في ليلهم ألذ من أهـل الـلـهو في لهـوهم، ولـولا الليـل مـا أحببـت البقـاء في الدنيا)(3).

وقال ابن المنكدر:

(مـا بقـي مـن لـذات الـدنيا إلا ثـلاث: قيـام الليـل، ولقـاء الإخـوان، وصـلاة

(1) رواه مسلم في كتاب البر والصلة (باب: تحريم الظلم) 1994/4، حديث2577.

(2) رواه الترمذي في (باب: دعاء النبيﷺ) ،ص806، حديث3549(م2).

(3) تزكية النفوس ص56.

الجماعة)(1).

وقد قال ثابت البناني:

(ما شيء أجده في قلبي ألذ عندي من قيام الليل)(2).

ويتأسف القاسم بن محمد على خصلتين كانتا في الناس ثم ذهبتا عنهم فقال:

(خصلتان كانتا في الناس ذهبتا منهم: الجود بما رزقهم الـلـه، وقيام الليل)(3).

وينبغي أن لا يغرب عن بالنا أنّ صلاة التهجد في الليل تعين صاحبها على ما يلاقيه من تعب ونصب في هذه الحياة، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: (**إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾**) سورة المزمل.

وليس صوابا أن يتعلل بعض من الناس بكثرة مشاغله التي تحول بينه وبين قيام الليل، فإنّ مشاغله لم تكن أكثر من مشاغل رسول الـلـهﷺ، ومع ذلك، فإنّه -عليه السلام- لم يترك قيام الليل في حضر ولا سفر. فإن صعب عليك -أخي المسلم- القيام، فصلِّ قبل أن تنام ولو ركعتين لتكون من الفائزين، وادع ربك أن يتقبل منك ما تقدمه من عمل.

---

(1) تزكية النفوس ص56.

(2) رهبان الليل 790/1.

(3) رهبان الليل 790/1-791.

نزلت الآيات الخمس الأولى من سورة (العلق) على النبـيﷺ، فـسمع النبـي كلامـا أخـذ بمجامع قلبه . ثم تتابعت الآيات والسور نزولا عليه؛ فازداد النبـي تـأثره بكـل آيـة مـن آيـات القرآن، حتى كان يسابق جبريل في تلقي القرآن قبل أن ينتهي منه لذلك جاء التوجيه الرباني:

(**وَلَا تَعْجَلْ بِـالْقُرْآنِ مِـنْ قَبْـلِ أَنْ يُقْـضَى إِلَيْـكَ وَحْيُـهُ وَقُـلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْـمًا ﴿١١٤﴾**) سورة طه.

وكان صلوات الـلـه وسلامه عليه حين نزول الوحي عليه يحرك لسانه ليتعجـل بحفظـه؛ خشية أن يفوته شيء منه؛ لذلك جاء الأمر الإلهي:

(**لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾**) سورة القيامة.

لقد كان صلوات الـلـه وسلامه عليه يشعر حين تلاوة القرآن بجوٍّ روحي ينقلـه إلى عـالم آخر غير العالم الذي يعايشه. وقد ظهر تأثره بآيات القرآن أكثر ما ظهر في صلاته، فكـان يـصلي ولصدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء، وحين يسمع آيات القـرآن يتلوهـا واحـد مـن صـحابته، تمتلىء روحه صلوات الـلـه وسلامه عليه نشوة بما يسمعه من آيـات، وتـستمتع حواسـه كلهـا بنشوة القرآن الروحية. يروي عبد الـلـه بن مسعود ﷺ هذا الحديث فيقول: (قـال لي رسـول الـلـهﷺ: «إقرأ عَلَيَّ» قلت: آقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ؟ قال: «فَإِنِّي أُحِـبُّ أَنْ أَسْـمَعَهُ مـن غَـيْرِي» فَقَرَأْتُ عليه سُورَةَ النِّسَاءِ، حتـى بَلَغْـتُ (**فَكَيْـفَ إِذَا جِئْنَـا مِـنْ كُـلِّ أُمَّـةٍ بِـشَهِيدٍ وَجِئْنَـا بِـكَ**

عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾)فإذا عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ)(1).

دعوة النبيﷺإلى تعلم القرآن وتعليمه

دعا رسول الـلـهﷺ صحابته – وهي دعوة لكل مسلم في هذا الوجود- إلى تعلـم القـرآن وتعليمه؛ متخذا عددا من الأساليب في ذلك ومبينـا مـا أعـده الـلــه لمـن يعلِّـم القـرآن ومـن يتعلمه ومن يتلوه، فقال صلوات الـلـه وسلامه عليه:

«خيركم من تعلم القرآن وعلمه»(2).

يبين الحديث أن أفضل الناس مَن حفظ القـرآن، وفهـم تفـسير آياتـه، ثـمّ علّمـه النـاس ودعاهم إلى العمل به. وبهذا يكون قد جمع الخير له ولغيره. فلا عجب إذا علمنا أن (سـفيان الثوري) رحمه الـلـه، رجّح تعلّم القرآن وتعليمه والعمل بأحكامه على الجهاد في سبيل الـلــه؛ لأنّ من فهم آيات القرآن، سارع إلى العمل بكل حكم مـن أحكامـه، ومنهـا أحكـام الجهـاد في سبيل الـلـه.

وما أعظم ثواب الـلـه لمن قرأ آيات من كتاب الـلـه فيكون له الأجر الجزيل على ذلـك، وقد قال النبيﷺ:

«إن هذا القرآن مأدبة الـلـه فـاقبلوا مـن مأدبتـه مـا اسـتطعتم، إن هـذا

(1) رواه البخاري في كتاب التفسير (باب: **فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا**) ص1138، حديث 4582.

(2) رواه البخاري في كتاب فضائل القرآن (باب: خيركم من تعلم القرآن وعلمه) ص 1299 حديث 5027.

القرآن حبل اللـه، والنور المبين، والشفاء النافع، عصمة لمن تمسك به، ونجاة لمن تبعه، لا يزيغ فيستعتب، ولا يعوج فيقوم، ولا تنقضي عجائبه، ولا يخلق مـن كـثرة الـرد، اتلـوه، فـإن اللــه يأجركم على تلاوته كل حرف عشر حسنات، أما إني لا أقول ألم حرف، ولكـن ألـف حـرف، ولام حرف، وميم حرف»(1).

وإذا كان من يقرأ القرآن وحده، له من الأجر ما بينه النبـيﷺ لنـا، فـإن الإجـتماع عـلى تلاوته في المسجد، له ما له من الفضل؛ إذ ينـزل اللــه عـلى التـالين لكتابـه سـكينة، وتعمهـم رحمتهﷻ ويثنـي علـيهم تبـارك وتعـالى في الملأ الأعـلى، وذلـك تبيانـا لعلـوِّ درجـتهم، فقـال النبيﷺ:

«... وما اجتمع قوم في بيت من بيوت اللـه، يتلون كتاب اللـه ويتدارسـونه بيـنهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم اللـه فيمن عنده»(2).

ويضرب لنا النبيﷺ هذه الأمثلة الرائعة التي فيها التـشبيه والتمثيـل لمـن يقـرأ القـرآن ومن لا يقرؤه من المؤمنين والمنافقين –وهي غنية عن أي شرح كان- فيقول:

«مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الذي يَقْـرَأُ الْقُـرْآنَ كَمَثَـلِ الأُتْرُجَّـةِ: رِيحُهَـا طَيِّـبٌ وَطَعْمُهَـا طَيِّبٌ، وَمَثَلُ الْمُؤْمِنِ الذي لا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مَثَلِ التَّمْرَةِ لا رِيحَ لها وَطَعْمُهَـا حُلْـوٌ، وَمَثَـلُ الْمُنَـافِقِ الـذي يَقْـرَأُ الْقُـرْآنَ مَثَـلُ الرَّيْحَانَـةِ رِيحُهَـا طَيِّـبٌ وَطَعْمُهَـا

(1) رواه الحاكم في كتاب فضائل القرآن 741/1-742 حديث 2040.

(2) رواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء (باب: فضل الإجتماع على تلاوة القرآن) 2074/4 حديث2699.

مُرٌّ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الذي لا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ ليس لها رِيحٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ»(1).

وينص النبيﷺ على المكانة العالية التي يتبوأها الحافظ لكتاب اللـــه باتقـان ذاكـراً أن منزلته مع رسل اللـه أو كتبة اللـه البررة، وأما من يحرص على تلاوة القـرآن تـلاوة صـحيحة، لكنه لا يقدر على ذلك، فيتردد في تلاوته لضعف حفظـه فلـه أجـران: أولهـما: أجـره بـالتلاوة، وثانيهما: بمشقته في التلاوة فيقول:

«الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة، والذي يقـرأ القـرآن ويتتعتـع فيـه وهـو عليـه شاق له أجران»(2).

والقرآن شافع مقبول الشفاعة يوم القيامة، ويجادل عن صـاحبه فيطلـب مـن اللـــه أن يغفر سيئاته ويتجاوز عن ذنوبه فيقول النبيﷺ:

«القرآن مشفَّع، وماحل ٌمصدّق، مَن جعلـه أمامـه قـاده إلى الجنـة، ومـن جعلـه خلـف ظهره ساقه إلى النار»(3).

ويقول:

(1) رواه البخاري في كتاب التوحيد (باب: قراءة الفاجر والمنافق) ص 1822، حديث 7560، ومسلم -واللفظ له- في كتاب صلاة المسافرين (باب: فضيلة حافظ القرآن) 549/1، حديث 797.

(2) رواه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها (باب: فضل الماهر بالقرآن) 550/1، حديث 798.

(3) رواه ابن حبان في صحيحه (في ذكر البيان بأن القرآن مَن جعله إمامه بالعمل قاده إلى الجنة...) الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان 167/1، حديث 124.

«إقرءوا القران فإنه يأتي يوم القيامة شفيعا لأصحابه»(1).

ويقول:

«الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة، يقول الصيام: أي ربِّ منعته الطعام والشهوات بالنهار فشفعني فيه، ويقول القرآن: منعته النوم بالليل فشفعني، قال: فيُشَفَّعان»(2).

ولما كانت الجنة ليست في درجة واحدة بل هي في درجات، فإن صاحب القرآن يرتقي في درجات الجنة بقدر قراءته لآيات القرآن. يقول النبيﷺ :

«يقال -يعني لصاحب القرآن- إقرأ وأرتقِ ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرأ بها»(3).

قال الخطابي: (جاء في الأثر: أن عدد آي القرآن على قدر درج الجنة، فيقال للقارىء: ارق في الدرج على قدر ما كنت تقرأ من آي القرآن، فمن استوفى قراءة جميع القرآن استولى على أقصى درج الجنة في الآخرة، ومن قرأ جزءا منه كان رقيه في الدرج على قدر ذلك، فيكون منتهى الثواب عند منتهى القراءة)(4).

ولا يقتصر أجر تلاوة القرآن على من يتلوه، بل يتعداه إلى والديه،

(1) رواه مسلم في صلاة المسافرين (باب: فضل قراءة القرآن) 553/1، حديث 804 .

(2) رواه الإمام أحمد في مسنده باسناد صحيح 188/6، حديث 6626

(3) رواه الترمذي في كتاب ثواب القرآن (باب:18) ص651، حديث 2914.

(4) الترغيب والترهيب للمنذري 350/2-351، ضبط أحاديثه وعلق عليه مصطفى محمد عمارة، الطبعة الثالثة 1388-1968، دار إحياء التراث العربي بيروت.

فيقول النبيﷺ:

«من قرأ القرآن وتعلمه وعمل به ألبس يوم القيامة تاجا من نور ضوؤه مثل ضوء الشمس ويكسى والداه حلتين لا تقوم بهما الدنيا فيقولان بما كسينا فيقال بأخذ ولدكما القرآن»(1).

هذا هو ثواب الوالد الذي حفّظ ولده القرآن، وهذه هي منزلته يوم القيامة، فما ظنكم بمنزلة من حفظ القرآن وعمل به؟.

ومن فضل تلاوة القرآن: أن الملائكة تنزل إلى من يتلوه إذا كان التالي له من ذوي الصلاح والصوت الحسن ، وهذا ما وقع للصحابي الجليل أسيد بن حضيرؓ، (فعن أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّؓ أَنَّ أُسَيْدَ بن حُضَيْرٍ، بَيْنَمَا هو لَيْلَةً يَقْرَأُ في مِرْبَدِهِ؛ إِذْ جَالَتْ فَرَسُهُ. فَقَرَأَ، ثُمَّ جَالَتْ أخرى فَقَرَأَ ثُمَّ جَالَتْ -أَيْضًا- قال أُسَيْدٌ: فَخَشِيتُ أَنْ تَطَأَ يحيى، فَقُمْتُ إِلَيْهَا، فإذا مِثْلُ الظُّلَّةِ فَوْقَ رَأْسِي فيها أَمْثَالُ السُّرُجِ عَرَجَتْ فِي الْجَوِّ حتى ما أَرَاهَا؛ قال فَغَدَوْتُ على رسول الله ﷺ فقلت: يا رَسُولَ الله بَيْنَمَا أنا الْبَارِحَةَ من جَوْفِ اللَّيْلِ أَقْرَأُ في مِرْبَدِي؛ إِذْ جَالَتْ فَرَسِي؛ فقال: رسول الله ﷺ اقرأ إبن حُضَيْرٍ، قال: فَقَرَأْتُ، ثُمَّ جَالَتْ -أَيْضًا- فقال رسول الله ﷺ: اقرأ إبن حُضَيْرٍ، قال: فَقَرَأْتُ، ثُمَّ جَالَتْ -أَيْضًا- فقال رسول اللهﷺ: اقرأ إبن حُضَيْرٍ قال: فَانصَرَفْتُ - وكان يحيى قَرِيبًا منها خَشِيتُ أَنْ تَطَأَهُ، فَرَأَيْتُ مِثْلَ الظُّلَّةِ، فيها أَمْثَالُ السُّرُجِ عَرَجَتْ فِي الْجَوِّ حتى ما أَرَاهَا؛ فقال رسول الله ﷺ «تِلْكَ الْمَلائِكَةُ كانت تَسْتَمِعُ لك وَلَوْ قَرَأْتَ لأَصْبَحَتْ يَرَاهَا

(1) رواه الحاكم في كتاب فضائل القرآن 757/1، حديث 2086.

الناس: ما تَسْتَتِرُ منهم»)(1).

عناية الصحابة بحفظ وتلاوة القرآن

عني الصحابة أيما عناية بما كان ينزل على النبيﷺ من سور وآيات، فقد علموا ما ورد في القرآن من مدح لمن يتلون كتاب اللـه مثل قوله تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللـه وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾) سورة فاطر.

وسمعوا –أيضا- النبيﷺ وهو يحضهم على حفظه وتلاوته، لذلك أحلوا كتاب اللـه من حياتهم المحل الأرفع: فكانوا يتنافسون في حفظه، ويتسابقون إلى فهمه، ويتفاضلون بمقدار ما يحفظ الواحد منهم، وكانوا رهبان الليل يقومون به تهجدا وتلاوة في الأسحار، قال عبادة بن الصامترضي الله عنه (كان الرجل إذا هاجر دفعه النبيﷺ إلى رجل منا يعلمه القرآن، وكان يسمع لمسجد رسول اللـهﷺ ضجة بتلاوة القرآن، حتى أمرهم رسول اللـه أن يخفضوا أصواتهم لئلا يتغالطوا)(2).

وتلقى الصحابة القرآن عن النبيﷺ يقرؤونه حرفا حرفا فكان منهم

(1) رواه مسلم في كتاب صلاة المسافرين (باب: نزول السكينة لقراءة القرآن) 548/1-549، حديث 796.

(2) مناهل العرفان في علوم القرآن تأليف: محمد عبد العظيم الزرقاني 241/1، دار الفكر.

من حفظه كله، ومنهم من حفظ بعضه في زمن النبيﷺ.

حفاظ القرآن من الصحابة

روى عبد اللـه بن عمرو بن العاص ﷺ قال:سمعت رسول اللـهﷺ يقول: «خُذُوا الْقُرْآنَ من أَرْبَعَةٍ: من عبد اللـه بن مَسْعُودٍ -فَبَدَأَ بِهِ- وَسَالِمٍ مولى أبي حُذَيْفَةَ، وَمُعَاذِ بن جَبَلٍ، وَأُبَيِّ بن كَعْبٍ)(1).

وفي هذا الحديث ذكر النبيﷺ اثنين من المهاجرين الأولين وهما عبد اللـه بن مسعود وسالم مولى أبي حذيفة، واثنين من الأنصار هما: معاذ بن جبل وأبيّ بن كعب.

أما عبد اللـه بن مسعود، فهو من الصحابة الأُول ممن آمن بالنبيﷺ وهاجر إلى الحبشة ثم إلى المدينة، وشهد غزوات النبيﷺ كلها، وكان ممن حفظ القرآن على عهد النبيﷺ، وكان ﷺ يفتخر-وحق له ذلك- فيقول:

(واللـه لقد أخذت من في رسول اللـهﷺ بضعا وسبعين سورة، واللـه لقد علم أصحاب النبيﷺ أني من أعلمهم بكتاب اللـه وما أنا بخيرهم)(2).

وأما سالم مولى أبي حذيفة، فهو سالم بن معقل، كان رقيقا ثم أُعتق، وكان إماماً للمهاجرين من مكة إلى المدينة طوال صلاتهم في مسجد قباء،

(1) رواه البخاري في كتاب مناقب الأنصار (باب: مناقب أُبيّ بن كعب) ص959 حديث 3808

(2) رواه البخاري في كتاب فضائل القرآن (باب: القرآء من أصحاب النبيﷺ) ص1294، حديث 5000.

وكان أقرأهم، وقد تعاهد مع أبي حذيفة على الشهادة، وكان سالم يصيح: بئس حامل القرآن أنا لو هوجم المسلمون من قبلي، وقد حمل الراية بعد أن استشهد زيد بن الخطاب، في حروب الردة، وقد بُترت يمناه، فحمل الراية بيسراه وهو يتلو قول اللـه تعالى:

(**وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللـه وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللـه يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾**)سورة آل عمران. وقد استشهد في المعارك مع المرتدين.

وأما معاذ بن جبل، فهو صحابي جليل من الأنصار، شهد العقبة الثانية وكان عمره ثماني عشرة سنة، وقد آخى النبيﷺ بينه وبين عبد اللـه ابن مسعود، وشهد المشاهد كلها مع رسول اللـهﷺ، وهو من أفقه الصحابة وأعلمهم بالحلال والحرام، وأرسله النبيﷺإلى اليمن قاضيا ومعلما، وظل فيها إلى أن توفي النبيﷺ، وعاد إلى المدينة في خلافة الصديق، وفي خلافة عمر بن الخطاب ذهب في جيش أبي عبيدة عامر بن الجراحرضي الله عنه وقد استخلف ابن الجراح معاذاً لمّا أصيب في طاعون عمواس، وأقره عمر بن الخطاب على ذلك.

وأما أُبيّ بن كعب فهو أقرأ الأئمة. قرأ القرآن على النبيﷺ، وأخذ عنه القراءة: عبد اللـه بن عباس وأبو هريرة، وعبد اللـه بن السائب، وعبد اللـه بن عياش بن أبي ربيعة وأبو عبد الرحمن السلمي وقد شهد بدرا والمشاهد كلها. وقال عمر بن الخطاب يوم مات أُبيّ اليوم مات سيد المسلمين. وليس هؤلاء الصحابة الأربعة هم من حفظ القرآن الكريم

وحدهم في حياة النبيﷺ، فهناك جمع غفير ممن حفظه منهم، ويكفينا أن نعلم أن من قتل من الصحابة ببئر معونة ويوم اليمامة أربعين ومائة: قُتل ببئر معونة في عهد رسول اللـهﷺ سبعون، وقتل يوم اليمامة في حرب المرتدين سبعون، ومن هؤلاء الحفظة عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وأبيّ بن كعب وزيد بن ثابت، وأبو موسى الأشعري، وأبو الدرداء عويمر بن زيد، وهؤلاء كلهم أخذوا القراءة عن رسول اللـهﷺ. أما الذين عرضوا القرآن على قسم من المذكورين قبلهم فمنهم:

أبو هريرة عبد الرحمن بن صخر ، وعبد اللـه بن عباس، وعبد اللـه ابن السائب، والمغيرة بن عبد اللـه بن عمرو بن المغيرة، وغيرهم.

ولقد كثر قراء القرآن وحفاظه كثرة هائلة، وما ورد عن مسلم بن مشكم خير دليل على ذلك فقد قال:

(قال لي أبو الدرداء: أعدد من يقرأ عندي القرآن، فعددتهم ألفا وستمائة ونيفا، وكان لكل عشرة منهم مقرئ. وكان أبو الدرداء يكون عليهم قائما، وإذا أحكم الرجل منهم تحول إلى أبي الدرداءرضي الله عنه)(1).

تلاوة القرآن

يحسن بالمسلم أن يجعل له وردا خاصا من القرآن الكريم، قليلا كان أو كثيراً، كأن يقرأ في اليوم جزءا أو نصف جزء أو أقل من ذلك أو أكثر، والمهم أن يستقيم لقاؤه مع كتاب اللـه؛ إذ التلاوة اليومية –ولو كانت قليلة- أفضل من تلاوة كثيرة يتلوها انقطاع لأيام عدة، وقد قال النبيﷺ

(1) حملة القرآن من الصحابة الكرام تأليف: أ.د سيد محمد ساداتي الشنقيطي ص38 الطبعة الأولى 1428-2007، دار الحضارة، الرياض.

«أحب الأعمال إلى اللـه أدومها وإن قلّ»(1).

ويفضل أن تكون التلاوة بطريق الختمة من بداية القرآن إلى نهايته، فإذا انتهى من تلاوة سورة الناس افتتح بسورة البقرة فيقرأ خمس آيات منها إلى قوله تعالى (**أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾**) سورة البقرة.

ومن الضروري أن يراعي التالي لكتاب اللـه أحكام التجويد، وأن يكون قلبه حاضرا عند تلاوته، وأن يستشعر عظمة من يتلو كلامه، وهو مأجور على تلاوته ولو لم يفهم معاني الآيات التي يتلوها، ولا ريب أنّ فهمها والعمل بها أكثر ثوابا وآجراً.

ويستحب لمن يتلو القرآن أن يسأل اللـه الرحمة إذا مر بآية رحمة كأن يقول: (اللـهم إني اسألك العافية)، ويستعيذ باللـه من العذاب أو النار أو الشر أو المكروه إذا مرّ بآية تذكر ذلك، فقد روى حذيفة بن اليمانﷺ قال: (صليت مع النبيﷺ ذات ليلة، فافتتح البقرة، فقلت يركع عند المائة، ثم مضى... وفيه قال: يقرأ مترسلاً إذا مرّ بآية فيها تسبيح سبّح، وإذا مرّ بسؤال سأل، وإذا مرّ بتعوذ تعوّذ..)(2).

وروى عوف بن مالك قال: (قمت مع رسول اللـهﷺ ليلة فقام فقرأ سورة البقرة لا يمرّ بآية إلا وقف فسأل، ولا يمرّ بآية عذاب إلا وقف

(1) رواه مسلم في كتاب صلاة المسافرين (باب: فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره) 541/1، حديث 783.

(2) رواه مسلم في كتاب صلاة المسافرين (باب: صلاة الليل وعدد ركعات النبيﷺ 536،537/1، حديث 772.

وتعوذ...)(1).

العمل بأحكام وأخلاق القرآن

أنزل اللـه تعالى القرآن الكريم ليعمل المسلمون بكل حكم من أحكامه وكل خلق من أخلاقه، ومدح العاملين بذلك وذمّ الذين يقرؤون كتاب اللـه ولا يعملون به.

وحين نقرأ ما أثر عن السلف الصالح في هذا المجال، نرى العجب العجاب من تأكيدهم على أهمية العمل بأحكام وأخلاق القرآن. قال أبو عبد الرحمن السلمي –رحمه اللـه-:

(حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن أنهم كانوا يستقرئون من النبيﷺ، فكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل؛ فتعلمنا القرآن والعمل جميعا)(2).

وقال:

(كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن)(3).

وقال أيضا:

(ينبغي لحامل القرآن أن يعرف بليله إذا الناس نائمون، وبنهاره إذا

(1) رواه أبو داؤد في كتاب الصلاة (باب: ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده) ص154، حديث 873.

(2) تفسير الطبري 80/1، بتحقيق وتعليق محمود محمد شاكر ومراجعة أحمد محمد شاكر، الطبعة الأولى 2008، دار ابن الجوزي القاهرة.

(3) تفسير الطبري 80/1.

الناس يفرطون وبحزنه إذا الناس يفرحون، وببكائه إذا النـاس يـضحكون، وبـصمته إذا النـاس يخلطون وبخشوعه إذا الناس يختالون، وينبغي لحامل القرآن أن يكون باكيا محزونـا، حكـيما حليما، عليما سكيتا، وينبغي لحامل القرآن أن لا يكون جافيا ولا غافلا، ولا صـخابا، ولا صـياحا ولا حديداً)(1).

وقال القرطبي (... وينبغي له أن يتعلم أحكام القرآن، فيفهم عن الـلـه مراده، وما فرض عليه، فينتفع بما يقرأ، ويعمل بما يتلو، فما أقبح لحامل القرآن ان يتلو فرائـضه وأحكامـه عـن ظهر قلب وهو لا يفهم ما يتلو، فكيف يعمل بما لا يفهم معناه، وما أقبح أن يُسأل عـن فقـه ما يتلوه ولا يدريه، فما مثل من هذه حالته إلا كمثل الحمار يحمل أسفارا)(2).

وقال الآجري:

(المؤمن العاقل إذا تلا القرآن استعرض القرآن، فكان كالمرآة يرى بها ما حسن مـن فعله وما قبح فيه، فما حذّره مولاه حذِره، وما خوفه به من عقابه خافه، وما رغب فيه مولاه رغب فيه ورجاه. فمن كانت هذه صفته، أو ما قارب هذه الصفة، فقد تلاه حـق تلاوته، ورعاه حق رعايته، وكان له القـرآن شـاهدا وشـفيعا وأنيـسا وحـرزا، ومـن كـان هذا وصفه نفع نفسه، ونفع أهله، وعاد على والديـه وعـلى ولـده كـل خـير في الـدنيا

(1) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء 130/1، الطبعة الأولى 1409-1988، دار الكتب العلمية، بيروت.

(2) تفسير القرطبي 39/1 حققه وخرج أحاديثه. د عماد زكي البارودي وخيري سعيد، المكتبة التوفيقية، القاهرة.

والآخرة)(1).

وقال سيد قطب –رحمه الـلـه- متحدثا عن منهج الصحابة في تلقي القرآن:

(إنهم في -الجيل الأول- لم يكونوا يقـرؤون القـرآن بقـصد الثقافـة والإطـلاع، ولا بقـصد التذوق والمتاع. لم يكن أحدهم يتلقى القرآن ليستكثر به مـن زاد الثقافـة، لمجـرد الثقافـة، ولا ليضيف إلى حصيلته من القضايا العلمية والفقهية محصولا يمـلأ بـه جعبتـه، إنمـا كـان يتلقـى القرآن ليتلقى أمر الـلـه في خاصة شأنه وشأن الجماعة التي يعيش فيهـا، وشـأن الحيـاة التـي يحياها هو وجماعته، يتلقى ذلك الأمر ليعمل به فور سماعة، كما يتلقـى الجنـدي في الميـدان (الأمر اليومي) ليعمـل بـه فـور تلقيـه! ومـن ثـم لم يكـن احـدهم ليـستكثر منـه في الجلـسة الواحدة؛ لأنه كان يحسّ أنه إنما يـستكثر مـن واجبـات وتكـاليف يجعلهـا عـلى عاتقـه، فكـان يكتفي بعشر آيات، حتى يحفظها ويعمل بها، كما جاء في حديث ابن مسعودﷺ)(2).

قضية نسيان سور وآيات من القرآن

من الضروري أن يحـافظ المـسلم عـلى مـا حفظـه مـن كتـاب الـلــه، وألا يُفرّط فيه، وذلك بدوام ما حفظ؛ خشية النسيان؛ إذ القرآن الكريم أشـد تفلتـا مــن الإبــل في عقلهــا، لــذلك دعــا النبــيﷺ إلى تعهــد القــرآن بكــثرة التكــرار

(1) أخلاق حملة القرآن للآجري ص 39-40 بتحقيق فواز أحمد زمرلي الطبعة الأولى 1407، دار الكتاب العربي بيروت.

(2) معالم في الطريق تأليف: سيد قطب ص33، اعتنى به وقدم له وعلق عليه: الدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي، الطبعة الأولى 1430-2009، دار عمار الأردن عمان.

والمراجعة خشية نسيان شيء منه فقالﷺ:

«تعاهدوا هذا القران، فوالذي نفس محمد بيده، لهو أشد تفلتاً من الإبل في عقلها»(1).

ولا حجة لمن يتعلل بنسيان سور أو آيات من القرآن، إذ إن النسيان أتى من تفريط صاحبه بعدم المداومة على استذكاره، وقد ذمّ النبيﷺ من يتعلل بالنسيان فقال:

«بئسما لأحدكم يقول: نسيت آية كيت وكيت، بل هو نُسِّي، استذكروا القرآن، فلهو أشد تفصِّياً من صدور الرجال من النعم بعقلها»(2).

وقد حذر العلماء من نسيان شيء من القرآن تحذيرا شديدا، حتى صرح الإمام النووي بأن ذلك يعدّ كبيرة من الكبائر، ودليلهم حديث النبيﷺ:

«.. وعُرضت عليّ ذنوب أمتي، فلم أجد ذنبا أعظم من سورة من القرآن أو آية أوتيها رجل ثم نسيها»(3).

---

(1) رواه مسلم في كتاب صلاة المسافرين (باب: فضائل القرآن وما يتعلق به) 545/1، حديث 791.

(2) رواه البخاري في كتاب فضائل القرآن (باب: استذكار القران وتعاهده) ص 1301 حديث 5032 ومسلم –واللفظ له- في كتاب صلاة المسافرين (باب: فضائل القرآن وما يتعلق به) 544/1، حديث 790.

(3) رواه أبو داؤد في مسنده في كتاب الصلاة (باب: في كنس المسجد) ص 86، حديث 461، وربما اريد بالنسيان عدم العمل بالقران؛ لأن النسيان هو الترك كما قال تعالى(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ) سورة الأنعام/٤٤. أي تركوا ما أُمروا بالعمل به، وقد ذهب إلى هذا سفيان بن عيينة.

وأخيرا: فإني على يقين بأن المسلمين اليوم لو اتجهوا نحو حفظ كتاب الله والعمل به، لتغير منهاج حياتهم، ولَشعروا بالطمأنينة والسعادة الحقيقية التي يطمح لها الطامحون، ويسعى لها الساعون، ولتغيرت أوضاعهم كما تغيرت أوضاع الأمة العربية بعد بعثة النبيﷺ.

الدعـــاء

الدعاء في اللغة: مصدر دعوت اللـه أدعوه دعاءاً، ومعنـاه: ابتهلـت إلى اللـــه بالـسؤال، ورغبت فيما عنده من الخير.

الدعاء في الاصطلاح: هو التضرع إلى اللـه، والافتقار إليه بطلب تحقيق المطلوب أو دفع مكروه بصيغ السؤال والخبر.

قال الخطابي: (حقيقة الدعاء استدعاء العبد من ربـه العنايـة، واسـتمداده إيـاه المعونـة. وحقيقته: إظهار الافتقار إليه، والـبراءة مـن الحـول والقـوة التـي لـه، وهـي سـمة العبوديـة، وإظهار الذلة البشرية، وفيه معنى الثناء على اللـه، وإضافة الجود والكرم إليه)(1).

الدعاء في القرآن والسنة

لا نستطيع أن نجد ديناً من الاديان عُني بالدعاء كما عُني به الاسلام، فقـد جعلـه عبـادة من أجل العبادات، وسلاحاً للمؤمن، وعدته على الاعداء، وبه يستنزل النصر من الـسماء، وبـه تستجلب النعم، وتدفع النقم، ويمثل حقيقة العبودية؛ إذ يتـبرأ المـسلم مـن حولـه وقوتـه الى حول اللـه وقوته، وهو دليل من أدلة صدق الإيمان. وأكثر حـالات الـذل والافتقـار في الـدعاء: حين يتجه المسلم بدعائه الى اللـه، متوسلاً إليه أن يرضى عنه ويتقبل أعماله الـصالحة بقبـول حسن، ويقضي حاجته وييسر أمره لما فيه خيره. وحين يشعر المـؤمن بذلـه وافتقـاره الى اللـــه وعجزه، يستجيب اللـه له، فيأتيه المدد الالهي، ويلهمه اللـه الهداية والسداد.

---

(1) إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين، تأليف: محمد بن محمد الزبيدي، 5/27-28، دار الفكر.

ولقد رغبنا اللـه تعالى بالدعاء منه وحده، ووعدنا بالإجابة، وأمرنا أن ندعوه في الصلاة وفي غير الصلاة، ووردت نصوص القرآن في تبيان فضله، فمن تلك النصوص قوله تعالى:

(وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾) سورة غافر.

ففي هذه الآية أمر اللـه عباده بالدعاء منه وحده، ووعدهم بالإجابة، وحذّرهم من تركه استغناءاً عنه أو استصغاراً له، فان من يستغني عن دعاء اللـه يدخل في هذا الوعيد الشديد؛ إذ يدخله سبحانه جهنم صاغراً مهيناً. يقول الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي وفقه اللـه:

(فوضعت الآية الكريمة لفظة (عبادتي) مكان لفظة (دعائي)؛ ذلك لأن روح العبادة ومخها: هو الشعور بالافتقار إلى اللـه تعالى والابتهال إليه، وهذا يتجسد في الدعاء والضراعة الى اللـه سبحانه)(1).

ولقد بيَّن اللـه تعالى أنه قريب من عباده، يجيب دعاء من دعاه، فليدعوه وليسألوه، فقال تعالى:

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾) سورة البقرة.

وهذه الآية صريحة في قرب اللـه من عباده، فهو يستجيب للداعين،

(1) ابتهالات ودعوات للشيخ الدكتور يوسف القرضاوي ص9، الطبعة الاولى1422-2001، مكتبة وهبة، القاهرة.

ويحقق لهم ما فيه خيرهم من غير وساطة بين العبد والرب. وهناك دقيقة من الدقائق تستحب ملاحظتها، وهي أن لفظ (يسألونك) ورد في القرآن الحكيم خمس عشرة مرة، وفي كل مرة يأمر الله نبيه محمداًﷺ أن يتولى هو الرد على اسئلتهم بما يوحيه الله إليه كقول الله ﷻ في **الآيات الآتية:**

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ)سورة البقرة/189.

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ) سورة البقرة/٢٢٠.

(يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ) سورة المائدة/٤.

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي) سورة الأعراف/١٨٧.

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي) سورة الإسراء/٨٥.

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾) سورة طه/١٠٥.

هكذا جاء جواب السؤال مقترناً بقل، وأما حين ورد السؤال في قوله تعالى:

(**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ**) سورة البقرة/١٨٦ ، فقد تولى الله تعالى بنفسه الكريمة المقدسة الإجابة عن السؤال فقال: (**فَإِنِّي قَرِيبٌ**)، ولم يخاطب نبيه بقوله: فقل إني قريب. وربما كانت الحكمة في ذلك: تبيان قرب الله من عبده إذا دعاه، فلم يحتج الى وساطة بينه وبين الداعي.

ويدعو الـلـه ﷻ في آيات أخرى عبـاده الى الـدعاء منـه وحـده، وأن يكونـوا متـضرعين في ذلك، طامعين في رحمته، غير متجاوزين للحدود التي حدّها الـلـه في الدعاء، وأن يظهر العبـد تضرعه وتذلـلـه وافتقاره في دعائه تارة، وان يكون في سر واستخفاء تارة أُخرى، فقال تعالى:

(ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾) سورة الأعراف.

وقال:

(هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْـدُ لـلــه رَبِّ الْعَـالَمِينَ ﴿٦٥﴾) سورة غافر.

دعوة النبيﷺ صحابته الى الدعاء

لقد كان من منهج النبيﷺ في تبليغه شريعة الـلـه، جلوسه الدائم مع صحابته، فكان يبـيّن لهم أن أعظم أنواع العبادة يكون في الدعاء؛ لأن الـلـه تعالى أَمَرَ به أولاً، وفِعْلُ مـا أمـر الـلــه به عبادة..، ولأن المؤمن في دعائه يُقبل بكليته الى الـلـه، معرضاً عمّا سواه بعد ذلك، فقالﷺ:

«الدعاء هو العبادة»(1).

وممن علم ذلك أنس بن مالكرضي الله عنه. فلما سأله سائل: يا أبا حمزة، أبلغـك أن الـدعاء نـصف العبادة؟ فأجابه: لا، بل هو العبادة كلها.

وقالﷺ:

(1) رواه أبو داؤد في باب الدعاء، حديث1479، والترمذي في كتاب تفسير القرآن، حديث2969، وابن ماجه في كتاب الدعاء، حديث3828.

« ليس شىء أكرمَ على اللـه تعالى من الدعاء »(1).

وروى أبو ذرﷺ عن النبيﷺ قال: إنّ اللـه تبارك وتعالى قال:

« يا عبادي! إني حرّمت الظلم على نفسي وجعلتُه بينكم محرَّما فلا تظالموا. يا عبادي! كلكم ضال إلاَّ من هديته، فاستهدوني أهدكم. يا عبادي! كلكم جائع إلا من أطعمته، فاستطعموني أطعمكم. يا عبادي! كلكم عار إلا من كسوته، فاستكسوني أكسكم. يا عبادي! إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً، فاستغفروني أغفر لكم. يا عبادي! إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني. يا عبادي! لو أنَّ أوّلكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئا. يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد، ما نقصَ ذلك من ملكي شيئا. يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيتُ كل إنسان مسألته ما نقصَ ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أُدخِلَ البحر. يا عبادي! إنما هي أعمالكم أُحصيها لكم ثم أوفيكم إياها. فمن وَجَدَ خيراً فليحمد اللـه، ومَنْ وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلاَّ نفسه »(2).

هـذا الحديث القدسي، خطاب الهي حكيم، صاغه النبيﷺ، مصوراً

(1) رواه الترمذي في كتاب الدعوات (باب: فضل الدعاء)، حديث3370، وابن ماجه في كتاب الدعاء (باب: فضل الدعاء)، حديث3829، والحاكم في مستدركه: كتاب الدعاء والتكبير والتهليل، حديث1801.

(2) رواه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب (باب: تحريم الظلم) 4/1994-1995، حديث2577.

علاقة الانسان بالـلـه. وفيه النهي عن أي نوع كان من أنواع الظلم، والدعوة الى طلب الهداية من الـلـه تعالى وحده: فهو الذي يملكها ولا يملكها غيره، فلا عجب أن يكرر المسلم في كل صلاة من صلواته طلب الهداية من الـلـه فيقول: (**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾**)، وفيه طلب الرزق من الـلـه، فانه تعالى هو المطعم من الجوع، والكاسي من العري، والغني عن طاعة عباده، وإيمان الناس كلهم لا يزيد في ملكه شيئاً، وكفر الناس كلهم لا ينقص من ملكه شيئاً، ولو أن الناس-كل الناس- طلبوا من الـلـه فأعطاهم ما يريدون ما نقص مما عنده شيئاً...

ويتحدث النبيﷺ عن كرم الـلـه الجزيل، وعطائه الواسع فيعطي السائل ما أراد، أو يصرف عنه من السوء مثلها، فيقول النبيﷺ:

«ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الـلـه بها إحدى ثلاث: إما أن تُعَجَّلَ له دعوته، وإما أن يدّخرها له فى الآخرة، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها»، قالوا: إذاً نُكثر، قال: «الـلـه أكثر»(1).

واضح من الحديث أن الاجابة متحققة على وجه من الوجوه الثلاثة. وفرح الصحابة بهذا الحديث؛ إذ إن الدعاء اذا كان لا يُرَدُّ منه شئ، فنحن نكثر من الدعاء لعظيم فوائده. وجاء الجواب من النبي الكريم: «الـلـه أكثر»: أي عطاياه تعالى كثيرة كثيرة، فهو-سبحانه- أكثر عطاءاً، فان

(1) رواه الامام أحمد في مسنده باسناد حسن 59/10، حديث11075، ورواه الترمذي بنحوه في أبواب الدعوات(باب: في إنتظار الفرج) ص812، حديث3573.

كرمه لا ينفد، وخزائن رحمته لا تفنى؛ فهو تعالى أكثر ثواباً.

ويحبب النبي الكريم إلى المسلم مرة أخرى أن يدعو ربه، مبيناً أنه تعالى يستجيب لعبـده، ولا يرد يديه صفراً خائبتين اذا دعاه فيقول:

«إن ربكم - تبارك وتعالى- حييٌّ كريم، يستحيي من عبـده إذا رفـع يديـه إليـه أن يـردهما صفراً»(1).

ويبين ﷺ أن اللـه تعالى يغضب على من لا يسأله فيقول:

«من لم يسأل اللـه يغضبْ عليه»(2).

ومن يغضب اللـه عليـه لا يكـون محبوبـاً عنـده ولا عنـد النـاس. وبـين النبـيﷺ أنّ مـن أضعف الناس رأياً مَنْ لم يدع اللـه ﷻ، وبخاصة عند الشدائد؛ وذلك لتركه ما أَمَرَ اللــه بـه، فقال:

«أعجز الناس مَنْ عجز في الدعاء، وأبخل الناس من بخل بالسلام»(3).

فهم الصحابة الكرام هذا، فحرصوا على الدعاء، بعد أن أخذوا بأسبابه مـن حـضور القلـب، وإخلاص النية، وعدم الدعاء باثم أو قطيعة رحم، فقد كان عمر بن الخطابؓ يقول:

---

(1) رواه أبو داؤد في كتاب الصلاة (باب: الدعاء) ص256، حديث 1488، والترمذي في كتاب الدعوات (باب: في كرم اللـه تعالى) ص808، حديث3556.

(2) رواه الترمذي في كتاب الدعوات (باب: مَنْ لم يسأل اللـه يغضب عليه)، حديث3373، وابن ماجه في كتاب الدعاء (باب: فضل الدعاء)، حديث 3827.

(3) رواه الطبراني في الاوسط 166/4، حديث 5591. وانظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني 150/2.

(إني لا أحمل همّ الإجابة، وإنما أحمل همّ الدعاء، فاذا أُلهِمْتُ الدعاء، فان الإجابة معه)(1).

منهج النبيﷺ في الدعاء

كان صلوات اللـه وسلامه عليه كثير الدعاء في نهاره وليله فيبدأ صباحه ومساءه بهذا الدعاء:

«اللـهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة. اللـهم أسألك العفوَ والعافية في ديني ودنياي، وأهلي ومالي. اللـهم استر عوراتي، وآمن روعاتي، اللـهم احفظني من بين يديّ، ومن خلفي، وعن يميني وعن شمالي، ومن فوقي وأعوذ بعظمتك أن أُغتال من تحتي»(2).

وكانﷺ يعلم صحابته أنواعاً من الدعاء، فقد علم أبا بكر الصديق رضي الله عنه أن يقول إذا أصبح وإذا أمسى:

«اللـهمَ عالمَ الغيب والشهادة، فاطر السموات والأرض، ربَّ كل شيء ومليكه، أشهد أن لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شرِّ نفسي، وشرّ الشيطان وشِرْكه»(3).

ويبدأ النبي نهاره بقوله:

---

(1) الدعاء - آدابه للشيخ: عبد اللـه سراج الدين الحسيني ص14، مكتبة الفلاح 1416-1995، حلب، سوريا.

(2) رواه الامام أحمد في مسنده 397/4، حديث4785، وابن أبي شيبة 35/6-36، حديث 29269.

(3) رواه الامام أحمد في مسنده 187/1، حديث51، وأبو داؤد في (باب: ما يقول اذا أصبح) ص916، حديث 5067، والدارمي172/2، حديث2689.

«أصبحنا على فطرة الإسلام، وكلمة الإخلاص، وعلى دين نبينا محمد، وعلى ملة أبينا إبراهيم حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين»(1).

وكان يقول في صباحه:

«اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحد من خلقك، فمنك وحدك لا شريك لك، فلك الحمد ولك الشكر»(2).

وروى ابن عباس رضي الله عنهما أن النبيﷺ خرج الى الصلاة بعد سماع الأذان وهو يقول:

«اللهم اجعل في قلبي نوراً، وفي بصري نوراً، وفي سمعي نوراً، وعن يميني نوراً، وعن يساري نوراً، وفوقي نوراً، وتحتي نوراً، وأمامي نوراً، وخلفي نوراً، واجعل لي نوراً»(3).

وكان عليه الصلاة والسلام اذا دخل المسجد، حمد الله تعالى، وسمّى وقال: «اللهم افتح لي أبواب رحمتك»، واذا خرج قال: «اللهم إني أسألك

---

(1) رواه الامام أحمد في مسنده 145/12، حديث 15296، والنسائي في سننه الكبرى 1534/3، حديث 9745.

(2) رواه أبو داؤد في (باب: ما يقول اذا أصبح) ص917، حديث 5073، وابن حبان في (ذكر الشيء الذي اذا قاله المرء عند الصباح كان مؤدياً لشكر ذلك اليوم) الاحسان بترتيب صحيح ابن حبان 111/2، حديث 858.

(3) رواه البخاري في كتاب الدعوات (باب: الدعاء اذا انتبه بالليل) ص1561، حديث 6316، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين (باب: الدعاء في صلاة الليل وقيامه) 525/1، حديث 763.

من فضلك»(1).

وقد علَّمَ النبيﷺ الصحابة أن يقولوا بعد الأذان: «اللـهم رب هـذه الـدعوة التامـة، والـصلاة القائمة، آت محمداً الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته»(2).

وكانﷺ إذا خرج من البيت قال:

«اللـهم إني أعوذ بـك أن أضـل أو أُضـل، أو أزلَّ أو أُزل، أو أظلِـمَ أو أُظْلـم، أو أجهـل أو يجهل عليّ»(3).

وكان يقول عند تناول الطعام:

«اللـهم بارك لنا فيما رزقتنا وقنا عذاب النار»(4).

وإذا انتهى من الطعام قال:

«الحمد لـلـه الذي أطعمنا وسقانا وكفانا وآوانا، فكم ممن لا كافي له ولا مؤوي»(5).

ويقول عند رفع المائدة:

«الحمد لـلـه كثـيرا طيبـا مباركـا فيـه غـير مكفـي ولا مـودع ولا مـستغنى

(1) رواه أبو داؤد في كتاب الصلاة (باب: ما يقول الرجل عند دخوله المسجد) ص87، حديث465.

(2) رواه البخاري في كتاب الأذان (باب: الدعاء عند النداء) ص217، حديث614.

(3) رواه أبو داؤد في(باب: إذا خرج من بيته) ص922، حديث5094، وابن ماجه في كتاب الدعاء (باب: ما يدعو به الرجل إذا خرج من بيته) 1278/2، حديث3884.

(4) رواه الإمام مالك في الموطأ 524/2، حديث 2700.

(5) رواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء (باب: ما يقول عند النوم وأخذ المضجع) 2085/4، حديث 2715.

عنه ربنا»(1).

ويقول عند الإفطار:

«ذهب الظمأ، وابتلت العروق، وثبت الأجر إن شاء اللـه»(2).

ويقول عند دخول الخلاء:

«اللـهم إنِّي أعوذ بك من الخُبُث والخبائث»(3).

وعند الخروج من الخلاء يقول:

«غفرانك»(4).

وإذا لبس ثوبا قال:

«اللـهم لك الحمد أنت كسوتنيه، أسألك من خيره وخير ما صنع له، وأعوذ بـك مـن شره وشر ما صنع له»(5).

وكان يقول في نهاية المجلس:

«اللـهم اقـسم لنـا مـن خـشيتك مـا يحـول بيننـا وبـين معاصـيك، ومـن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقـين مـا تهـوِّن بـه علينـا مـصائب الـدنيا،

---

(1) رواه البخاري في كتاب الأطعمة (باب: ما يقول إذا فرغ من طعامه) ص1394، حديث 5458.

(2) رواه أبو داؤد في كتاب الصيام (باب: القول عند الإفطار) ص414، حديث 2357.

(3) رواه البخاري في كتاب الوضوء (باب: ما يقول عند الخلاء) ص112، حديث 142، ومسلم في كتاب الحيض (باب: ما يقول إذا أراد دخول الخلاء) 283/1، حديث 375.

(4) رواه أبو داؤد في (باب: ما يقول الرجل إذا خرج من الخلاء) ص11، حديث 30، والترمذي في كتاب الطهارة (باب: ما يقول إذا خرج من الخلاء) ص13، حديث 7 وغيرهما.

(5) رواه أبو داؤد في كتاب اللباس (باب: ما يقول: إذا لبس ثوبا جديدا) ص720، حديث 4020.

ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منا، واجعل ثأرنا على من ظلمنا، وانصرنا على من عادانا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا، ولا مبلغ علمنا، ولا تسلط علينا من لا يرحمنا»(1).

وكان يقول عند النوم:

«اللهم باسمك أموت وأحيا»(2).

«باسمك رب وضعت جنبي وبك أرفعه، إن أمسكت نفسي فاغفر لها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين»(3).

«اللهم أسلمت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك، اللهم آمنت بكتابك الذي أنزلت، ونبيك الذي أرسلت»(4).

هذه نماذج قليلة جدا مما كان يدعو به النبيﷺ. ونتأمّل في حياته عليه الصلاة والسلام، فنرى قضية دعائه من الله وحده كانت منهاج حياته في نهاره وليله، وقد ربّى صحابته عليه؛ ذلك لأنّه غذاء روحي لا غنى للمسلم عنه.

---

(1) رواه الترمذي في (باب: 80) ص795، حديث 3502.

(2) رواه البخاري في كتاب الدعوات (باب: وضع اليد اليمنى تحت الخد الأيمن) ص1560، حديث 6314.

(3) رواه البخاري في كتاب التوحيد (باب: السؤال بأسماء الله تعالى والاستعاذة بها) ص1795، حديث 7393.

(4) رواه البخاري في كتاب الوضوء (باب: فضل من بات على الوضوء) ص135، حديث 247.

ولقد أخذ الصحابة بتوجيهات النبيﷺ بأمر الدعاء؛ فأحلوه من أنفسهم المحل الأرفع، فكانوا يحافظون عليه في يومهم وليلهم في حالتي الرخاء والشدة، ويعلمون أبناءهم وإخوانهم وأقرباءهم وجيرانهم ومعارفهم ما تعلموه من أدعية النبيﷺ، وظهر من الصحابة من كان مجاب الدعوة، منهم: سعد بن أبي وقاص، والبراء بن مالك، والنعمان بن مقرن، وسعيد ابن زيد وغيرهم، وأخبارهم في كتب الحديث والتاريخ معروفة مشهورة.

من شروط الدعاء وآدابه(1).

للدعاء شروط وآداب يجب على من توجه إلى الله بدعائه أن يراعيها لتتم الإجابة، منها ما يأتي:

1- أن يكون الداعي مخلصاً لله وحده في دعائه، فلا يُقبل دعاء إنسان فقَدَ هذا الشرط. وقد قال الله تعالى:

(**وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ**) سورة البينة/5.

والمسلم يردد في صلواته كلها قوله تعالى:

(**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾**) سورة الفاتحة.

2- أن يكون الداعي متوضئاً؛ إقتداءاً بالنبيﷺ.

3- أن يستقبل القبلة –إن أمكن- ففي الحديث: أن النبيﷺ لمّا أراد أن يدعو في الاستسقاء استقبل القبلة(2).

---

(1) عن كتابنا الذكر والدعاء في القرآن والسنة ص25-29، الطبعة الأولى 1424-2003، مطبعة أنوار دجلة، بغداد.
(2) رواه البخاري في كتاب الاستسقاء (باب: الاستسقاء في المصلى)، أنظر البخاري مع الفتح 515/2.

وقال صلوات الـلـه وسلامه عليه:

«إنّ لكلِ شيءٍ سيداً، وإن سيد المجالس قبالة القبلة»(1).

4- أن يبدأ بحمد الـلـه، ثم بالصلاة على النبيﷺ، ويختم دعاءه بذلك. فإن رسـول الـلـهﷺ قال:

«كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لا يُبْدَأُ فِيهِ بِالْحَمْدِ أَقْطَعُ»(2).

وعن فضالة بن عبيدﷺ قال: سمع رسول الـلـه ﷺ رجلاً يدعو في صلاته لم يمجد الـلـه تعالى، ولم يصل على النبيﷺ؛ فقال رسول الـلـهﷺ:

«عَجِلَ هَذَا»، ثُمَّ دَعَاهُ فَقَالَ لَهُ أَوْ لِغَيْرِهِ:

«إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ فَلْيَبْدَأْ بِتَحْمِيدِ الـلـه وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، ثُمَّ لْيُصَلِّ عَلَى النَّبِـيِّﷺ، ثُـمَّ لْيَـدْعُ بَعْدُ بِمَا شَاءَ»(3).

5- أن يكون صوت الداعي بين المخافتة والجهر: فلا يرفع صـوته عاليـاً، ولا يخفـض صوته بحيث لا يسمع نفسه. قالت عائشة رضي الـلـه عنها في تفسير قوله تعالى:

(وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا)فِي الدُّعَاءِ(4).

---

(1) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد 59/8 وقال: رواه الطبراني في الأوسط وإسناده حسن.

(2) رواه أبو داؤد في كتاب الأدب (باب: الهدي في الكلام)، وابن ماجه –واللفظ له- في كتاب النكاح (باب: خطبة النكاح) رقم 1894.

(3) رواه أبو داؤد في كتاب الصلاة (باب: الدعاء) 162/2 بتعليق الدعاس، والترمذي في كتاب الدعوات (باب: جامع الدعوات) رقم 3478 بتحقيق أحمد محمد شاكر.

(4) رواه البخاري في كتاب التوحيد (باب: [وأسروا قولكم أو اجهروا به ...] رقم الحديث مع الفتح 7526.

وعَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ﷛ قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللـهِﷺ فَكُنَّا إِذَا أَشْرَفْنَا عَلَى وَادٍ هَلَّلْنَا وَكَبَّرْنَا، ارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُنَا، فَقَالَ النَّبِيُّﷺ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ؛ فَإِنَّكُمْ لا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلا غَائِبًا، إِنَّهُ مَعَكُمْ، إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ، تَبَارَكَ اسْمُهُ، وَتَعَالَى جَدُّهُ»(1).

6- أن يكون متضرعاً في دعائه، خاشعاً فيه، يدعو ربه رغَباً ورَهباً. قال اللـه تعالى مادحاً أنبياءه:

(إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾) سورة الأنبياء.

7- أن يعترف الداعي بذنبه، ويستغفر اللـه عنه، والنبيﷺ يقول:

«سَيِّدُ الاسْتِغْفَارِ: اللـهمَّ أَنْتَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلاّ أَنْتَ خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ وَأَبُوءُ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي؛ فَإِنَّهُ لا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاّ أَنْتَ...»(2).

8- أن يكون قلب الداعي حاضراً أثناء الدعاء؛ لأن اللـهﷻ قال:

(وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً) سورة الأعراف/205.

وقال رسول اللـهﷺ:

(1) رواه البخاري في كتاب الجهاد (باب: التكبير عند الحرب) رقم الحديث مع الفتح 2992.

(2) رواه البخاري في كتاب الدعوات (باب: لكل نبي دعوة مستجابة)، والترمذي في كتاب الدعوات (باب: رقم 15)، رقم الحديث 3393 بتحقيق أحمد محمد شاكر.

«ادْعُوا اللـه وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالإِجَابَـةِ، وَاعْلَمُـوا أَنَّ اللــه لا يَـسْتَجِيبُ دُعَـاءً مِـنْ قَلْـبٍ غَافِلٍ لاهٍ»(1).

لذلك ينبغي أن يكون الداعي متدبراً في كلِّ كلمةٍ من كلـمات دعائـهِ، وإذا جهـل شـيئاً فعليه أن يتعلمه، كما عليه أن لا يحرص على كثرة الدعاء بالعجلة؛ فإن قليل الدعاء مع حضور القلب أفضل من الدعاء الكثير مع الغفلة والجهل.

9- أن يكون مطعم الداعي ومشربه وملبسه ومسكنه وكل ما معه من حـلال، فقـد جاء في الحديث الشريف قولهﷺ:

«أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللــه طَيِّـبٌ لا يَقْبَـلُ إِلاّ طَيِّبًـا، وَإِنَّ اللــه أَمَـرَ الْمُـؤْمِنِينَ بِمَـا أَمَـرَ بِـهِ الْمُرْسَلِينَ فَقَالَ: (**يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِـيمٌ ﴿٥١﴾**) وَقَالَ: (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَـاتِ مَـا رَزَقْنَـاكُمْ**) ثُـمَّ ذَكَـرَ الرَّجُـلَ يُطِيـلُ الـسَّفَرَ، أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ: يَا رَبِّ! يَا رَبِّ! وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ»(2).

10- أن يرد المظالم إلى أهلها، ويتوب إلى اللـه منها فإن لم يقدر عـلى رد المظـالم، فعليـه أن يطلـب مـن النـاس أن يـسامحوه، ويعقـد العـزم بينـه وبـين ربـه أن يـرد المظـالم متـى قـدر عـلى ذلـك، ويـسأله تعـالى أن يعينـه

(1) رواه الترمذي في كتاب الدعوات (باب: 66) رقم الحديث 3479 بتحقيق أحمد محمد شاكر، والحاكم برقم 17/1818 بتحقيق مصطفى عبد القادر عطا.

(2) رواه مسلم في كتاب الزكاة (باب: قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها) 703/2.

على ذلك.

11- أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر؛ فإن رسول اللـهﷺ قال:

«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوُنَّ عَنْ الْمُنْكَرِ، أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللـه أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْهُ ثُمَّ تَدْعُونَهُ فَلا يُسْتَجَابُ لَكُمْ»(1).

12- أن يجزم في دعائه ولا يقل: اللـهم اغفر لي إن شئت؛ فإن رسول اللـهﷺ قال:

«ادْعُوا اللـه وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالإِجَابَةِ ...»(2).

وقال:

«لا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: اللـهمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ، اللـهمَّ ارْحَمْنِي إِنْ شِئْتَ؛ لِيَعْزِمْ الْمَسْأَلَةَ؛ فَإِنَّهُ لا مُستكْرِهَ لَهُ»(3).

وقال سفيان بن عيينة: لا يمنعن أحدكم من الدعاء ما يعلم من نفسه، فإن اللـه عز وجل أجاب دعاء شرِّ الخلق إبليس لعنه اللـه إذ قال:

(قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٣٧﴾) سورة الحجر.

13- أن يلحَّ في الدعاء ولا ييأس، ولا يقل: دعوت فلم يستجب لي، فقد قال رسول اللـه ﷺ:

(1) رواه الترمذي في كتاب الفتن (باب: 9 ما جاء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) رقم 2169.

(2) رواه الترمذي في كتاب الدعوات (باب: 66) رقم الحديث 3479.

(3) رواه البخاري في كتاب الدعوات (باب: ليعزم المسألة) البخاري مع الفتح 139/11.

«يُسْتَجَابُ لأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ يَقُولُ: دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي»(1).

وفي رواية لمسلم:

«لا يَزَالُ يُسْتَجَابُ لِلْعَبْدِ مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةِ رَحِمٍ مَا لَمْ يَسْتَعْجِلْ». قِيلَ: يَا رَسُولَ اللـه مَا الاسْتِعْجَالُ؟ قَالَ: «يَقُولُ قَدْ دَعَوْتُ، وَقَدْ دَعَوْتُ، فَلَمْ أَرَ يَسْتَجِيبُ لِي، فَيَسْتَحْسِرُ عِنْدَ ذَلِكَ وَيَدَعُ الدُّعَاءَ»(2).

14- أن يدعو اللـه في الرخاء والشدة، فقد قال رسول اللـهﷺ:

«مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَسْتَجِيبَ اللـه لَهُ عِنْدَ الشَّدَائِدِ وَالْكَرْبِ، فَلْيُكْثِرْ الدُّعَاءَ فِي الرَّخَاءِ»(3).

15- أن لا يدعو بإثم أو قطيعة رحم. ومن أحاديث النبيﷺ في هذا قوله:

«مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَدْعُو بِدَعْوَةٍ لَيْسَ فِيهَا إِثْمٌ وَلا قَطِيعَةُ رَحِمٍ إلاّ أَعْطَاهُ اللـه بِهَا إِحْدَى ثَلاثٍ: إِمَّا أَنْ تُعَجَّلَ لَهُ دَعْوَتُهُ، وَإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَهَا لَهُ فِي الآخِرَةِ، وَإِمَّا أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُ مِنْ السُّوءِ مِثْلَهَا»(4).

16- أن يرفع يديه في الدعاء: فعن أنس بن مالكرضي الله عنه قال:

«رَأَيْتُ رَسُولَ اللـهﷺ يَرْفَعُ يَدَيْهِ فِي الدُّعَاءِ حَتَّى يُرَى بَيَاضُ

(1) رواه البخاري، البخاري مع الفتح 140/11 في كتاب الدعوات (باب: يستجاب للعبد ما لم يعجل).

(2) رواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء (باب: بيان أنه يستجاب للداعي ما لم يعجل ...) 2096/4.

(3) رواه الترمذي في كتاب الدعوات (باب: 9) (ما جاء أن دعوة المسلم مستجابة) رقم 3382.

(4) رواه الإمام أحمد والحاكم والبزار وأبو يعلى.

إِبْطَيْهِ»(1).

17- أن يبتعد في دعائه عن تكلف السجع، إذ الداعي متضرع إلى اللـه، ولا يناسبه التكلف، والرسولﷺ يقول:

«سَيَكُونُ قَوْمٌ يَعْتَدُونَ فِي الدُّعَاءِ»(2).

وفي حديث ابن عباسرضي الله عنهما:

«... فانْظُرْ السَّجْعَ مِنْ الدُّعَاءِ فَاجْتَنِبْهُ، فَإِنِّي عَهِدْتُ رَسُولَ اللـهﷺ وَأَصْحَابَهُ لا يَفْعَلُونَ إِلاّ ذَلِكَ الاجْتِنَابَ»(3).

ونشير هنا إلى أن أفضل الدعاء ما كان مأثوراً عن النبيﷺ.

18- أن يبدأ الدعاء لنفسه أولاً، ثم لغيره بعد ذلك، كما قال تعالى:

(**رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ**)سورة الحشر/10.

وقال على لسان سيدنا موسىعليه السلام:

(**قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾**)سورة الأعراف.

19- أن يكون الدعاء بجوامع الكلم: أي بالكلام المختصر المفيد، كما كان رسول اللـه ﷺ يفعل في دعائه، وقد قالت السيدة عائشة

---

(1) رواه مسلم في كتاب صلاة الاستسقاء (باب: رفع اليدين بالدعاء في الاستسقاء). 612/2.

(2) رواه ابن ماجه في كتاب الدعاء (باب: كراهية الاعتداء في الدعاء) 1271/2.

(3) رواه البخاري في كتاب الدعوات (باب: ما يكره من السجع في الدعاء) البخاري مع الفتح 138/11.

رضي اللـه عنها:

«كَانَ رَسُولُ اللـهﷺ يَسْتَحِبُّ الْجَوَامِعَ مِنْ الدُّعَاءِ، وَيَدَعُ مَا سِوَى ذَلِكَ»(1).

20- أن يدعو اللـه ثلاثاً؛ لأن النبيﷺ كان يفعل ذلك. قال ابن مسعودﷺ:

«... وَكَانَ (رسول اللـهﷺ) إِذَا دَعَا، دَعَا ثَلاثاً، وَإِذَا سَأَلَ، سَأَلَ ثَلاثاً»(2).

أنواع إجابة الدعاء

ينقسم الدعاء على نوعين: دعاء عبادة، ودعاء مسألة، وتنقسم الاستجابة على نوعين – أيضا-: فتكون استجابة دعاء العبادة بإعطاء الثواب والأجر، وتكون استجابة دعاء المسألة بإعطاء الداعي سؤله. وقد نصّ على ذلك ابن قيم الجوزية –رحمه اللـه- فقال:

(الدعاء نوعان: دعاء ثناء، ودعاء مسألة، والنبيﷺ كان يكثر في سجوده من النوعين، والدعاء الذي أَمَرَ به في السجود يتناول النوعين. والاستجابة –أيضا- نوعان: استجابة دعاء الطالب بإعطائه سؤاله، واستجابة دعاء المثني بالثواب، وبكل واحد من النوعين فُسِّرَ قوله تعالى:

(1) رواه الإمام أحمد 148/6، وأبو داؤد -واللفظ له- في كتاب الصلاة (باب: الدعاء) رقم الحديث 1482 بتحقيق الدعاس.

(2) رواه مسلم في كتاب الجهاد والسير (باب: ما لقي النبيﷺ من أذى المشركين والمنافقين) 1418/3.

(**أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ**) والصحيح أنه يعم النوعين)(1).

فما أحوج المسلم في كل وقت وحين أن يتبرّأ من حوله وقوته إلى حول الله وقوته، ويهتبل الفرص فيكثر من التضرّع إليه سبحانه بالدعاء ليمده بالمعونة، ويوفقه لما فيه خيره في الدنيا والآخرة.

---

(1) زاد المعاد لابن قيم الجوزية 235/1، حقق نصوصه وخرج أحاديثه وعلّق عليه: شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط، الطبعة الأولى 1399-1979، مكتبة المنار الإسلامية، الكويت.

التوبة

قضت حكمة اللـه تعالى أن يخلق الإنسان في هذه الحياة مختارا: يُقدم على أعمال الخير وأعمال الشر بإرادته واختياره، على خلاف طبيعة الملائكة، فإنّها لا تـصدر عنها أيـة معـصية، وقد قال اللـه تعالى فيهم: (**لَّا يَعْصُونَ اللـه مَا أَمَـرَهُمْ وَيَفْعَلُـونَ مَـا يُـؤْمَرُونَ ﴿٦﴾**) سـورة التحريم. وليست خلقة الإنسان كذلك؛ لأنّ اللـه ﷻ ركّب فيه غرائز، ووضع له تشريعا أمـره بالسير على وفقه، أحلّ فيه الطيبات وحرّم الخبائث، فصارت أمامه مغريـات كثـيرة، وشـهوات عديدة محرمة، يزينها له الشيطان. فلابد-والحالة هـذه- أن تـصدر منـه خطايـا وذنـوب. فـلا يستغني الإنسان عن التوبة منها ولو بلغ أعلى درجات التقوى؛ لأنّ كل بنـي آدم خطّـاء، وقـد أوجب اللـه على الناس –كل الناس- التوبة، حتى خيار خلق اللـه من البشر وآل بيت النبـي الأطهار فقال تعالى:

(**وَتُوبُوا إِلَى اللـه جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾**) سورة النور.

وقال:

(**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللـه تَوْبَةً نَّصُوحًا**) سورة التحريم/8.

وقد كان فـتح بـاب التوبـة الـذي ذكـره القـرآن الكـريم، وذكـره النبـيﷺ نعمة من أجلّ النعم؛ إذ لو لم يُفتح هذا البـاب، لازداد أهـل الفجـور والفـساد والظلم بفجورهم وفسادهم وظلمهم إذا يئسوا من توبة اللـه علـيهم. ونجـد الدعوات تتوالى من اللـه تعالى ومـن رسـوله محمـدﷺ بـالإسراع بالتوبـة عنـد

ارتكاب ذنب من الذنوب وعدم التسويف؛ خشية أن تتمكن المعاصي مـن الـنفس، ويـصعب اقتلاعها عند ذاك. ويضرب ابن قدامة المقدسي مثالا رائعا على من يُـسوّف ولم يُـسرع بالتوبـة عند ارتكاب الذنب فيقول:

(.. وما مثال المسوِّف إلا مثال من احتاج إلى قلع شجرة، فرآها قوية لا تنقطـع إلا بمـشقة شديدة، فقال: أؤخرها سنة ثم أعود إليها، وهو لا يعلم أن الشجرة كلما بقيت ازداد رسـوخها، وهو كلما طال عمره ازداد ضعفه)(1).

التوبة في القرآن الكريم

في القران الكريم آيات كثـيرة دعـت إلى التوبـة مـن الـذنوب مهـما كانـت ورغبـت بهـا، ووعدت التائبين بمغفرتها ولو كانت كثيرة، قال اللـه تعالى:

(**قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللـه إِنَّ اللـه يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾**) سورة الزمر.

وقد ورد في سبب نزول الآية ما رواه ابن عباسﷺ قال:

(نزلت في أهل مكة، قالوا: يزعم محمد أنّ من عبد الأوثان، وقتل النفس التي حرم اللـه لم يغفر له، فكيف نهاجر ونسلم، وقد عبدنا مـع اللــه إلهـاً آخـر، وقتلنـا الـنفس التـي حـرّم اللـه؟ فأنزل اللـه تعالى هذه الآية.

وقـال ابـن عمـرﷺ: نزلـت هـذه الآيـة في عيـاش بـن أبي ربيعـة، والوليـد ابن الوليـد، ونفـر مـن المـسلمين كـانوا أسـلموا، ثـم فُتنـوا، وعُـذّبوا فـافتتنوا؛

(1) مختصر منهاج القاصدين لابن قدامة المقدسي ص332، تحقيق: زهير الشاويش، الطبعة التاسعة 1421-2000، المكتب الإسلامي، بيروت.

وكنا نقول: لا يقبل اللـه من هؤلاء صرفاً ولا عدلاً أبداً، قوم أسلموا ثـم تركـوا ديـنهم بعـذاب عُذّبوا به، فنزلت هذه الآيات. وكان عمر كاتباً، فكتبها إلى عيـاش بـن أبي ربيعـة، والوليـد بـن الوليد، وأولئك النفر؛ فأسلموا وهاجروا)(1).

وقال تعالى:

(وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللـه يَجِدِ اللـه غَفُـورًا رَحِـيمًا ﴿١١٠﴾) سورة النساء.

ومدح اللـه التائبين عن ذنوبهم والمستغفرين اللـه منها، ووعدهم بالمغفرة والخلـود في جنات النعيم فقال تعالى:

(وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُـسَهُمْ ذَكَـرُوا اللـــه فَاسْـتَغْفَرُوا لِـذُنُوبِهِمْ وَمَـنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللـه وَلَمْ يُـصِرُّوا عَـلَى مَـا فَعَلُـوا وَهُـمْ يَعْلَمُـونَ ﴿١٣٥﴾ أُولَئِـكَ جَـزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْـمَ أَجْـرُ الْعَـامِلِينَ ﴿١٣٦﴾)سورة آل عمران.

ويشير القرآن الكريم إلى أنّ اللـه تعالى يتوب على الإنسان الظالم إذا تاب وأصلح، وذلـك قوله تعالى:

(فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللـه يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللـــه غَفُـورٌ رَحِـيمٌ ﴿٣٩﴾)سورة المائدة.

وفي هذا المعنى ورد قوله تعالى:

---

(1) أسباب نزول القرآن للواحدي ص389-390.

(وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٥٣﴾)سورة الأعراف.

ومن رحمة الله تعالى أنّ الإنسان مهما ارتكب من ذنوب وتاب منها توبة صادقة وآمن وعمل عملا صالحا، فإنّ الله يتوب عليه، ويُبدّل سيئاته حسنات، وذلك قوله تعالى:

(وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾) سورة الفرقان.

ولقد أخذ الله تعالى على نفسه مغفرة ذنوب من تاب وآمن وعمل عملا صالحا ثم اهتدى، قال تعالى:

(وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ﴿٨٢﴾) سورة طه.

وآيات القرآن في قبول توبة عباده التائبين عن ذنوبهم، والمصلحين لما اقترفوه كثيرة كثيرة، تفتح الأمل الباسم أمام المذنبين؛ ليُسعِدوا أنفسهم في الدنيا قبل الآخرة.

التوبة في الحديث النبوي الشريف

وردت أحاديث نبوية كثيرة، حضّ فيها النبيﷺ الناس على التوبة والاستغفار، مبينا أنّه صلوات الله وسلامه عليه كان يتوب إلى الله

ويستغفره كثيرا، وأنّ كل ابن آدم خطاء، فقالﷺ:

«كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ»(1).

وقال:

«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللـه بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللـه فَيَغْفِرُ لَهُمْ»(2).

ولا يُفهم من هذا الحديث أنّه دعوة لارتكاب الذنوب، بل هو تقرير لطبيعة الإنسان في ارتكابه للذنوب، ودعوة للتوبة بعد ذلك.

وإذا كان النبيﷺ قد غفر اللـه له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فإنّه مع هذا كان كثير الاستغفار والتوبة إلى اللـه وقد قال:

«وَاللـه إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللـه وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً»(3).

وقال:

«يَا أَيُّهَا النَّاسُ تُوبُوا إِلَى اللـه فَإِنِّي أَتُوبُ فِي الْيَوْمِ إِلَيْهِ مِائَةَ مَرَّةٍ»(4).

ولفظ (سبعين) و (مائة) في هذين الحديثين لا يُراد بهما التحديد، بل يُراد بهما الكثرة.

---

(1) رواه الترمذي ص563، حديث 2499، وابن ماجه 321/5، رقم 4251 بتحقيق: شعيب الأرنؤوط ومحمد كامل قرة بللي.

(2) رواه مسلم في كتاب التوبة (باب: سقوط الذنوب بالاستغفار) 2104/4، حديث 2749.

(3) رواه البخاري في كتاب الدعوات (باب: استغفار النبيﷺ في اليوم والليلة) ص1558، حديث 6307.

(4) رواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء (باب: استحباب الاستغفار والاستكثار منه) 2076/4، حديث 2702.

وقال:

«إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي وَإِنِّي لأَسْتَغْفِرُ اللـه فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ»(1).

ولقد كان النبيﷺ يبين لصحابته عظم رحمة اللـه بعباده وعفوه عنهم؛ ليحضهم على المسارعة إلى التوبة، موضحا أنّ باب التوبة مفتوح لا يُغلق في ليل أو نهار، فالليل كله فرصة للتوبة، والنهار كله فرصة للتوبة فقال:

«إِنَّ اللـه ﷻ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»(2).

والمراد ببسط اليد: قبول التوبة.

ومن دعوة النبيﷺ الناس إلى التوبة: تبيانه أنّ باب التوبة يظل مفتوحا إلا في حالة الاحتضار، حين تبلغ الروح الحلقوم، ويتردد الماء في فمه فلا يقدر على ابتلاعه، فقال:

«إِنَّ اللـه يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ»(3).

ويضرب النبيﷺ هذا المثل لتبيان فرح اللـه تعالى بتوبة عبده المؤمن؛ ذلك لأنّ ضرب الأمثال يقرّب المعنى إلى المخاطب فيقول:

«للـه أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ

(1) رواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء (باب: استحباب الاستغفار والاستكثار منه) 2075/4، حديث 2702.
(2) رواه مسلم في كتاب التوبة (باب: قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة) 2113/4، حديث 2760.
(3) رواه الترمذي في (باب: فضل التوبة والاستغفار) ص803، حديث 3537.

بِأَرْضٍ فَلاَةٍ فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ فَأَيِسَ مِنْهَا فَأَتَى شَجَرَةً فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ اللهمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ. أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ»(1).

وهذا المثل الذي ضربه النبيﷺ واضح المعنى؛ لأنّ التوبة ترضي الله تعالى، وفيه صفة الفرح له سبحانه، وهي صفة تليق بجلاله، وفيه رحمة الله بعباده؛ إذ ردّ للرجل ناقته التي أيس منها، وقد ضرب لنا النبيﷺ هذا المثل؛ ليعلمنا أنّه لا يريد عذابنا فهو أشد فرحا حين يتوب إليه العبد ويستغفره من ذنبه من ذلك الإنسان البائس الذي فَقَدَ أعز ما يملك حين تفلتت منه دابته في الصحراء وعليها طعامه وشرابه فأيقن بالهلاك! وكيف لا يوقن بذلك وهو يعلم أنّه سيكون فريسة للسباع الضواري في الصحراء، فإن لم يكن ذلك؛ فإنّ الجوع والعطش يؤديان إلى موته. ولكن لننظر إلى فرحة ذلك الإنسان كيف تكون حين يغفو إغفاءه فيستيقظ، فيرى دابته قد عادت إليه.!! إنّ أقلام البلغاء وفصاحة الفصحاء وبيان أهل البيان يعجزون عن وصف فرح ذلك الإنسان حين عثر على راحلته. ويأتي الحديث الشريف ليوضح أنّ الله تعالى أشد فرحا بتوبة عبده من ذلك الإنسان.

ويحذر النبيﷺ من تتابع الذنوب على قلب المؤمن من غير توبة فيقول:

(1) رواه مسلم في كتاب التوبة (باب: في الحض على التوبة والفرح بها) 2104/4-2105، حديث 2747.

«إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ كَانَتْ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ فِي قَلْبِهِ فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ صُقِلَ قَلْبُهُ وَإِنْ زَادَ زَادَتْ حَتَّى يَعْلُوَ قَلْبَهُ ذَاكَ الرَّيْنُ الَّذِي ذَكَرَ اللـه ﷻ فِي الْقُرْآنِ (**كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾**)»(1).

ومن أساليب النبيﷺ في تحبيب التوبة إلى النفوس، ضربه الأمثلة الواقعية عن الأمم الماضية فقال:

«كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا فَسَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَاهِبٍ فَأَتَاهُ فَقَالَ إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا فَهَلْ لَهُ مِنَ تَوْبَةٍ فَقَالَ لاَ. فَقَتَلَهُ فَكَمَّلَ بِهِ مِائَةً ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ فَقَالَ إِنَّهُ قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ فَقَالَ نَعَمْ وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ انْطَلِقْ إِلَى أَرْضِ كَذَا وَكَذَا فَإِنَّ بِهَا أُنَاسًا يَعْبُدُونَ اللـه فَاعْبُدِ اللـه مَعَهُمْ وَلاَ تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ فَإِنَّهَا أَرْضُ سَوْءٍ. فَانْطَلَقَ حَتَّى إِذَا نَصَفَ الطَّرِيقَ أَتَاهُ الْمَوْتُ فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلاَئِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلاَئِكَةُ الْعَذَابِ فَقَالَتْ مَلاَئِكَةُ الرَّحْمَةِ جَاءَ تَائِبًا مُقْبِلاً بِقَلْبِهِ إِلَى اللـه. وَقَالَتْ مَلاَئِكَةُ الْعَذَابِ إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ. فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ فِي صُورَةِ آدَمِيٍّ فَجَعَلُوهُ بَيْنَهُمْ فَقَالَ قِيسُوا مَا بَيْنَ الأَرْضَيْنِ فَإِلَى أَيَّتِهِمَا كَانَ أَدْنَى فَهُوَ لَهُ. فَقَاسُوهُ فَوَجَدُوهُ أَدْنَى إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أَرَادَ فَقَبَضَتْهُ مَلاَئِكَةُ الرَّحْمَةِ»(2).

إنّ هذا الحديث ينص على أنّ ذنوب الناس ولو كانت عظيمة، وجرائمهم كبيرة، وخطاياهم لا يحصيها عدّ، فإنّ هذه القصة تفتح للعصاة

(1) رواه الإمام أحمد في مسنده 72/8، حديث 7939، وإسناده صحيح.

(2) رواه مسلم في كتاب التوبة (باب: قبول توبة القاتل وإن كثر قتله) 2118/4، حديث 2766.

الذين أسرفوا على أنفسهم بارتكاب الذنوب والخطايا الأمل لهم: ففيها تبيان رحمة اللـه ببني آدم، فلا يكون عند المسلم شيء من اليأس من رحمة اللـه. وعقيدتنا -نحن أهل السنة والجماعة- أنّ كل ذنب يجوز أن يغفره اللـه تعالى إن شاء إلا الشرك؛ لأنّه تعالى يقول: (**إِنَّ اللـه لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللـه فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾) سورة النساء.**

الذنوب كبائر وصغائر

تنقسم الذنوب على قسمين: كبائر وصغائر. والأصل في هذا التقسيم: القرآن الكريم والسنة النبوية. أمّا الدليل من القرآن، فقوله تعالى:

(إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾) سورة النساء.

وقوله:

(**الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ**) سورة النجم/٣٢.

وأمّا السنة، فحديث النبيﷺ:

«الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتَنَبَ الْكَبَائِرَ»(1).

وتُعد من الكبائر كل معصية فيها حد في الدنيا، أو وعيد في الآخرة، أو نفي الإيمان عن مرتكبها، أو ورود اللعن على فاعلها ونحو ذلك. وقد

(1) رواه مسلم في كتاب الطهارة (باب: الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة...) ص117، حديث 552.

نصّ النبيﷺ على الكبائر وسماها بأسمائها في أحاديثه الكثيرة، ولا تُمحى إلا بالتوبة الصادقة.

أمّا الصغائر، فهي اللمم، والمراد بها: صغائر الذنوب كالنظرة مثلا. وقد حذّر النبيﷺ من الوقوع بها، كما حذّر من الوقوع بالكبائر، فقال موصيا زوجه عائشة رضي اللـه عنها:

«يا عائشة، إياك ومحقّرات الذنوب، فإنّ لها من اللـه ﷻ طالبا»(1).

وقال:

«إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ فَإِنَّهُنَّ يَجْتَمِعْنَ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يُهْلِكْنَهُ»(2).

وتكبر الصغائر بالإصرار عليها، أو استصغارها، أو المواظبة عليها، أو الفرح والتباهي بها، والتهاون بحلم اللـه عنه حين ستره ولم يفضحه أو يعاقبه. وإذا استعظم العبد ذنبه صغر عند اللـه، وإذا استصغره كبر عنده تعالى، وقد نصّ على هذا الصحابي الجليل عبد اللـه بن مسعود رضي الله عنه فقال:

«إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ قَاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ، وَإِنَّ الْفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ مَرَّ عَلَى أَنْفِهِ. فَقَالَ بِهِ هَكَذَا» (3).

وحق للمؤمن الذي يذنب ذنبا فيراه عظيما؛ لأنّه يعلم عظمة اللـه الذي عصاه؛ ولذلك صار ينظر إلى الذنب الصغير نظره إلى الذنب الكبير؛ ليروّض نفسه على الاستقامة وعدم الوقوع بالمعصية، وقد قال أنس بن مالك رضي الله عنه:

(1) سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني رقم 513.

(2) رواه الإمام أحمد 367/6، حديث 3818. أشرف على التحقيق: شعيب الأرناؤوط.

(3) رواه البخاري في كتاب الدعوات (باب: التوبة) حديث 6308.

(إِنَّكُمْ لَتَعْمَلُونَ أَعْمَالاً هِيَ أَدَقُّ فِي أَعْيُنِكُمْ مِنَ الشَّعَرِ، إِنْ كُنَّا لَنَعُدُّهَا عَلَى عَهْدِ رسول اللهﷺ من الْمُوبِقَاتِ)(1).

وعلى هذا سار سلف الأمة. فهذا بلال بن سعد رحمه الله يقول:

(لا تنظر إلى صغر الخطيئة، ولكن انظر من عصيت)(2).

التسويف بالتوبة

من أساليب الشيطان: دعوته من يريد التوبة إلى التسويف؛ ليظل الإنسان في تيهه وضلاله عن صراط الله المستقيم، وبعده عن سبيل خالقه ﷻ. فإذا استجاب الإنسان لما يوحيه إليه الشيطان من التسويف، فإنّ الموت قد يأتيه وهو على ذلك. وهناك يندم العاصي على تفريطه في جنب الله، حين ظل يعلل نفسه بالتسويف ولم يتب، ويقول فيما يقول:(يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (٥٦)) سورة الزمر.

ولقد كثرت أقوال الصحابة والتابعين والحكماء في هذا، فقال أبو هريرةرضي الله عنه:

(تعودوا الخير؛ فإنّ الخير عادة، وإياكم وعادة السُّوّاف من سوفٍ أو من سَوْفَ)(3).

وقال الحسن البصري رحمه الله:

(1) رواه البخاري في كتاب الرقاق (باب: ما يُتقى من محقرات الذنوب) حديث 6492.

(2) حلية الأولياء 223/5، الطبعة الرابعة 1405، دار الكتاب العربي، بيروت.

(3) موسوعة رسائل ابن أبي الدنيا 133/3، تحقيق وتخريج الشيخ أحمد فريد المزيدي، الطبعة الأولى 2010، دار الكتب العلمية، بيروت.

(يا ابن آدم، إياك والتسويف؛ فإنّك بيومك ولست بغد..)(1).

وقال حيلان بن فروة المعروف بأبي الجلد:

(وجدت التسويف جندا من جنود إبليس، قد أهلك خلقا من خلق اللـه كثيرا)(2).

وقيل لرجل من بني عبد القيس: أوصِ. قال: إحذروا سوف)(3).

وقال أبو بكر العدوي:

(كتب رجل من الحكماء إلى أخ له: [أخي إياك وتأمير التسويف على نفسك، وإمكانه من قلبك؛ فإنّه محل الكلال، وموئل الملال، وبه تُقطع الآمال، وبه تنقضي الآجال...فبادر ثـم بـادر؛ فإنّك مبادر به، وأسرعْ فإنّك مسروع بك، وكأنّ الأمر قد بغتـك، فاغتبطـت بالتـسرع، ونـدمت على التفريط، ولا قوة بنا وبك إلا باللـه])(4).

الصحابة والتوبة

إنّ دعوة اللـه تعالى عباده المؤمنين إلى التوبة، ودعوة النبيﷺ لها أيضا، جعلت الصحابة أكثر الناس توبة من أيّ ذنب يقعون فيه، حتى لو تحملوا ما تحملوا فيه مـن المعانـاة والآلام، بل حتى لو استوجبت توبتهم أن يموت الواحد منهم في تلك التوبة.

ونـستطيع أن نـرى هــذه الظـاهرة واضـحة لـدى الـصحابة، فـإنّ بعـضا

(1) موسوعة رسائل ابن أبي الدنيا 134/3.

(2) حلية الأولياء 55/6.

(3) موسوعة رسائل ابن أبي الدنيا 132/3.

(4) موسوعة رسائل ابن أبي الدنيا 133/3.

منهم قد يرتكب الذنب من غير أن يعلم به أحد، ومن غير أن تصل إليه يد القانون، لكنّه كان يُحاسب نفسه على ذلك، ويظل ضميره يؤنبه؛ لأنّه كان يعلم أنّ اللـه يسمع ويرى، لا تخفى عليه خافية: فلا يقرّ له قرار حتى يسارع إلى التوبة، وقد يُعرّض نفسه للعقوبة الشديدة وهو مطمئن النفس، مرتاح البال؛ خشية العقوبة في الدار الآخرة، وهذه أمثلة على ذلك:

1- **توبة ماعز بن مالك**ﷺ

عن عَبْدُ اللـه بْنُ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ مَاعِزَ بْنَ مَالِكٍ الأَسْلَمِيَّ، أَتَى رَسُولَ اللـهﷺ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللـه إِنِّي قَدْ ظَلَمْتُ نَفْسِي وَزَنَيْتُ وَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ تُطَهِّرَنِي. فَرَدَّهُ فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ أَتَاهُ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللـه إِنِّي قَدْ زَنَيْتُ. فَرَدَّهُ الثَّانِيَةَ فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللـهﷺ إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ «أَتَعْلَمُونَ بِعَقْلِهِ بَأْسًا تُنْكِرُونَ مِنْهُ شَيْئًا» فَقَالُوا مَا نَعْلَمُهُ إِلاَّ وَفِيَّ الْعَقْلِ مِنْ صَالِحِينَا فِيمَا نُرَى فَأَتَاهُ الثَّالِثَةَ فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ أَيْضًا فَسَأَلَ عَنْهُ فَأَخْبَرُوهُ أَنَّهُ لاَ بَأْسَ بِهِ وَلاَ بِعَقْلِهِ فَلَمَّا كَانَ الرَّابِعَةَ حَفَرَ لَهُ حُفْرَةً ثُمَّ أَمَرَ بِهِ فَرُجِمَ.(1).

2- **توبة الغامدية رضي اللـه عنها**

جاءت الْغَامِدِيَّةُ فَقَالَتْ يَا رَسُولَ اللـه إِنِّي قَدْ زَنَيْتُ فَطَهِّرْنِي. وَإِنَّهُ رَدَّهَا فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ قَالَتْ يَا رَسُولَ اللـه لِمَ تَرُدُّنِي لَعَلَّكَ أَنْ تَرُدَّنِي كَمَا رَدَدْتَ مَاعِزًا فَوَاللـه إِنِّي لَحُبْلَى. قَالَ «إِمَّا لاَ فَاذْهَبِي حَتَّى تَلِدِي». فَلَمَّا وَلَدَتْ أَتَتْهُ بِالصَّبِيِّ فِي خِرْقَةٍ قَالَتْ هَذَا قَدْ وَلَدْتُهُ. قَالَ «اذْهَبِي فَأَرْضِعِيهِ

---

(1) رواه مسلم في كتاب الحدود (باب: من اعترف على نفسه بالزنا) 1323/3، حديث 1695.

حَتَّى تَفْطِمِيهِ». فَلَمَّا فَطَمَتْهُ أَتَتْهُ بِالصَّبِيِّ فِي يَدِهِ كِسْرَةُ خُبْزٍ فَقَالَتْ هَذَا يَا نَبِيَّ اللهِ قَدْ فَطَمْتُهُ وَقَدْ أَكَلَ الطَّعَامَ. فَدَفَعَ الصَّبِيَّ إِلَى رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ثُمَّ أَمَرَ بِهَا فَحُفِرَ لَهَا إِلَى صَدْرِهَا وَأَمَرَ النَّاسَ فَرَجَمُوهَا فَيُقْبِلُ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ بِحَجَرٍ فَرَمَى رَأْسَهَا فَتَنَضَّحَ الدَّمُ عَلَى وَجْهِ خَالِدٍ فَسَبَّهَا فَسَمِعَ نَبِيُّ اللهِﷺ سَبَّهُ إِيَّاهَا فَقَالَ «مَهْلاً يَا خَالِدُ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ تَابَهَا صَاحِبُ مَكْسٍ لَغُفِرَ لَهُ». ثُمَّ أَمَرَ بِهَا فَصَلَّى عَلَيْهَا وَدُفِنَتْ(1).

3- **توبة أبي لبابة**

أبو لبابة صحابي جليل، اسمه رفاعة بن عبد المنذر بن زبر، وقيل بشر بن عبد المنذر، وقيل غير ذلك. شهد العقبة، وأراد الاشتراك في غزوة بدر فردّه النبيﷺ إلى المدينة ليكون خليفته عليها، وضرب له بسهمه وأجره.

وملخص قصة توبة أبي لبابة: أنّ المشركين جاءوا بأحزابهم وقضهم وقضيضهم ليغزوا المسلمين في غزوة عُرفت باسم غزوة الأحزاب، وكان النبيﷺ قد عقد عهدا مع بني قريظة ليدافعوا عن المدينة إذا داهمهم عدو، وفي أشد الساعات حرجا بعد مجيء الأحزاب نقض بنو قريظة عهدهم الذي عقدوه مع النبيﷺ، فصار المسلمون يواجهون عدوين: عدوا خارجيا متمثلا بالأحزاب، وعدوا من الداخل متمثلا في بني قريظة، وبعد أن رجعت الأحزاب، أمر النبيﷺ بالسير إلى بني قريظة وحاصر حصونهم

(1) رواه مسلم في كتاب الحدود (باب: من اعترف على نفسه بالزنا) 3/1323-1324، حديث 1695.

خمسا وعشرين ليلة. قال ابن هشام:

(ثُمّ إنّهُمْ بَعَثُوا –يعني بني قريظة- إلَى رَسُولِ اللـهﷺ: أَنْ ابْعَثْ إلَيْنَا أَبَا لُبَابَةَ بْنَ عَبْدِ الْمُنْذِرِ أَخَا بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ وَكَانُوا حُلَفَاءَ الْأَوْسِ، لِنَسْتَشِيرَهُ فِي أَمْرِنَا، فَأَرْسَلَهُ رَسُولُ اللـهﷺ إلَيْهِمْ، فَلَمّا رَأَوْهُ قَامَ إلَيْهِ الرّجَالُ وَجَهَشَ إلَيْهِ النّسَاءُ وَالصّبْيَانُ يَبْكُونَ فِي وَجْهِهِ، فَرَقّ لَهُمْ، وَقَالُوا لَهُ: أَبَا لُبَابَةَ! أَتَرَى أَنْ نَنْزِلَ عَلَى حُكْمِ مُحَمّدٍ؟ قَالَ: نَعَمْ. -وَأَشَارَ بِيَدِهِ إلَى حَلْقِهِ إنّهُ الذّبْحُ-. قَالَ أَبُو لُبَابَةَ: فَوَ اَللـه مَا زَالَتْ قَدَمَايَ مِنْ مَكَانِهِمَا حَتّى عَرَفْتُ أَنّي قد خُنْتُ اللـه ورسولهﷺ، ثُمّ انْطَلَقَ أَبُو لُبَابَةَ عَلَى وَجْهِهِ، وَلَمْ يَأْتِ رَسُولَ اللـهﷺ حَتّى ارْتَبَطَ فِي الْمَسْجِدِ إلَى عَمُودٍ مِنْ عُمُدِهِ وَقَالَ: لا أَبْرَحُ مَكَانِي هَذَا حَتّى يَتُوبَ اللـه عَلَيّ مِمّا صَنَعْت ... فَلَمّا بَلَغَ رَسُولَ اللـه ﷺ خَبَرُهُ وَكَانَ قَدْ اَسْتَبْطَأَهُ قَالَ: أَمَا إنّهُ لَوْ جَاءَنِي لاسْتَغْفَرْتُ لَهُ، فَأَمّا إذْ قَدْ فَعَلَ مَا فَعَل فَمَا أَنَا بِالّذِي أُطْلِقُهُ مِنْ مَكَانِهِ حَتّى يَتُوبَ اللـه عَلَيْهِ)(1).

وظلّ أبو لبابة على حاله مرتبطا بالجذع ست ليال، وكانت امرأته تأتيه في كل وقت صلاة فتحلّه ليصلي ثم يرتبط بالجذع. وهكذا حتى نزلت توبته على رسول اللـه وهو في بيت أمّ سلمة. ولما أراد الناس أن يطلقوه أبى إلا أن يطلقه رسول اللـهﷺ. وهكذا كان.

وذكر الواحدي أنّه (شدّ نفسه على سارية من سواري المسجد وقال: واللـه لا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى أموت أو يتوب اللـه علي، فمكث سبعة

(1) سيرة ابن هشام مع شرح أبي ذر الخشني 3/328-329، حققه وعلق عليه: الدكتور همام سعيد ومحمد عبد اللـه أبو صعيليك، الطبعة الأولى 1409-1988، مكتبة المنار، الزرقاء، الأردن.

أيام لا يذوق فيها طعاماً حتى خرّ مغشياً عليه... ثم تاب اللـه تعالى عليه... ثم قال أبو لبابـة: إنّ من تمام توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيهـا الـذنب، وأن أنخلـع مـن مـالي؛ فقـال رسول اللـهﷺ: يجزيك الثلث أن تتصدق به)(1).

لقد تاب أبو لبابة توبة نصوحا، فلم يلتفت إلى صـورته أمـام النبـيﷺ كيـف تكـون، ولم يلتفت إلى صورته بين إخوتـه وبـين النـاس كيـف تكـون، ولم يلتفـت إلى الحالـة النفـسية التـي يعانيها أهله من ذلك، ولم يلتفت إلى المعاناة التي يعايشها وهو مربـوط بعمـود المـسجد؛ لقـد فرض هذا العقاب على نفسه ليتوب اللـه عليه، وكان قبول توبته أمنية من أعزّ الأمـاني عنـده، وتحقق له ما أراد. إنّها توبة صحابي وكفى.

4- **<u>توبة أبي مسعود البدريﷺ</u>**

اسمه عقبة بن عمرو بـن ثعلبـة، وقـد اشـتهر بكنيتـه، وقـد شـهد بيعـة العقبـة الثانيـة، واختلف كُتّاب السير في شهوده غزوة بدر، فذهب بعضهم إلى أنّه شهدها، وذهب آخـرون إلى أنّه لم يشهدها. يروي لنا أبو مسعود البدريﷺ هذا الحديث فيقول:

(كُنْتُ أَضْرِبُ غُلاَمًا لِي؛ فَسَمِعْتُ مِنْ خَلْفِي صَوْتًا: «اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ لـلـه أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَيْهِ». فَالْتَفَتُّ فَإِذَا هُوَ رَسُولُ اللـهﷺ؛ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللـه! هُـوَ حُـرٌّ لِوَجْـهِ اللــه. فَقَـالَ: «أَمَا لَوْ لَمْ تَفْعَلْ لَلَفَحَتْكَ النَّارُ، أَوْ لَمَسَّتْكَ النَّارُ»(2).

(1) أسباب نزول القرآن لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي ص232.

(2) رواه مسلم في كتاب الأيمان (باب: صحبة المماليك، وكفارة من لطم عبده) 1281/3، حديث 1659.

ويبدو أنّ هذا الغـلام (العبـد) قـصّر فـيما أراد سـيده أبـو مـسعود؛ فـصار يـضربه. ورأى الرسول الرحيمﷺ ما يفعله أبو مسعود بالغلام، فأنكر عليه فعله، وحـذّره مغبـة عملـه؛ لأنّـه تجاوز في عقوبته، وذكّره أنّ قدرة الـلـه عليه أقوى من قدرته على غلامه.

وسرعان ما ندم أبو مسعود على ما بدر منه، فسارع إلى عتق الغلام، وجعلـه حـرّا؛ تكفـيرا لما ارتكبه بضربه الغلام.

5- **<u>توبة الـلـه على الثلاثة الذين خُلّفوا</u>(1).**

دعا النبيﷺ الصحابة إلى الخروج معه في (غزوة تبوك)، وتخلّـف في هـذه الغـزوة أكـثر من ثمانين رجلا، وكان منهم ثلاثة رجال عُرفوا بقوة إيمانهم وجهادهم في سبيل الـلـه، وهـؤلاء الثلاثة هم: 1- كعب بن مالك 2- مرارة بـن الربيـع 3- هـلال بـن أميـة، وقـد أنـزل الـلــه في توبته عليهم قرآنا يُتلى آناء الليل وأطراف النهار.

أمّا كعب بن مالك، فقد شهد مع النبيﷺ بيعة العقبة، ولم يتخلف عن غزوة غزاها النبيﷺ إلا هذه الغزوة (غـزوة تبـوك). ولمّـا عـاد النبـيﷺ مـن غزوتـه، جـاء المخلفـون يعتذرون عن تخلفهم، فقبل النبيﷺ منهم علانيتهم واستغفر لهم. وجاء كعب بن مالـك إلى النبي: فسأله: ما خلّفك؟ فقال: والـلــه مـا كـان لي مـن عـذر؛ فقـال النبـيﷺ: «أمـا هذا، فقد صدق، فقم حتى يقضي الـلـه فيـك». أمّـا الـرجلان الآخـران: مـرارة بـن الربيـع وهلال بن أمية، فقد صدقا النبـيﷺ، وقـالا مثـل مـا قـال كعـب، وقـد كانـا ممـن شـهد

(1) قصة تخلفهم وتوبة الـلـه عليهم تجدونها مفصلة في صحيحي البخاري ومسلم.

بدرا. ونهى النبيﷺ عن الكلام مع هؤلاء الثلاثة، وظلوا هكذا خمسين يوما، حتى نزلت آية الله في التوبة عليهم، قال تعالى:

(وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ الله إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ الله هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾) سورة التوبة.

وأراد كعب بن مالك أن ينخلع من ماله كله صدقة لله ورسوله، لكنّ النبي الكريم قال له: «أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك».

لقد تاب الله على كعب بن مالك ورفيقيه؛ لأنّه -سبحانه- علم أنّ توبتهم كانت صادقة؛ فرضي الله عن كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية.

6- <u>**توبة أبي خيثمة**</u>

اسمه عبد الله بن خيثمة، وقيل مالك بن قيس، شهد غزوة أحد والمشاهد كلها مع النبيﷺ وتخلّف عن غزوة تبوك عشرة أيام ثمّ لحقه، قال ابن عبد البر متحدثا عن غزوة تبوك وتخلف أبي خيثمة عنها في أول الأمر فقال:

(إنّ أبا خيثمة بعد أن سار رسول اللهﷺ أياماً، دخل على أهله فوجد امرأتين له في عريشين لهما في حائط، قد رشت كل واحدة منهما عريشها، وبردت له فيه ماءاً، وهيأت له طعاماً، فلمّا نظر أبو خيثمة إلى ذلك قال: رسول اللهﷺ في الضح والريح والحر، وأبو خيثمة في ظل بارد وطعام وامرأة حسناء، مقيم في ماله، ما هذا بالنصف، والله لا أدخل

عريش واحدة منكما حتى ألحق النبيﷺ، فهيئا لي زاداً. ففعلتا. ثم قدم ناضحه فارتحله، ثـم خرج في طلب رسول الـلـهﷺ. وقد كان عمير بن وهب الجمحي أدرك أبا خيثمة في الطريـق، يطلب رسول الـلـهﷺ فترافقا، حتى إذا دنوا من تبوك قال أبو خيثمة لعمير بن وهـب: إنّ لي ذنباً، فلا عليك أن تتخلف عني، حتـى آتي رسـول الـلــهﷺ، ففعـل، حتـى إذا دنـا مـن رسـول الـلـهﷺ وهو نازل بتبوك، قال الناس: هذا راكب في الطريق مقبل؛ فقال رسول الـلـهﷺ: «كن أبا خيثمة». فقالوا: يا رسول الـلـه هو والـلـه أبو خيثمة. فلما أنـاخ أقبـل فـسلم عـلى رسـول الـلـهﷺ فقال له رسول الـلـهﷺ: « أولى لك يا أبا خيثمة ». ثـم أخـبر رسـول الـلــهﷺ الخـبر؛ فدعا له رسول الـلـه ﷺ وقال له خيراً)(1).

إنّ النفس البشرية قد يصيبها الضعف في حالة من الحالات، فتحب حياة الدعة والراحـة، وتعزف عن حياة الجد والجهاد والتعب والنصب، والشيطان شغله الشاغل صدّ المـؤمنين عـن المواقـف الإيمانيـة، ولكـنّ المـؤمن سرعـان مـا ينتبـه لنفـسه، فيـستعيذ بالـلــه مـن وسـاوس الشيطان، منطلقا إلى ما يحبه الـلـه ويرضاه.

وبعد:

فصحيح أنّ الصحابة كانوا بـشرا مثلنـا بحكـم خلقـتهم: يـذنبون ويتوبـون،

(1) الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر 207/4، رقم 2965، تحقيق وتعليق: علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود، الطبعة الثالثة 2010، دار الكتب العلمية، بيروت. وأسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير 41/5-42، الطبعة الثالثة 1429-2008، دار الكتب العلمية، بيروت.

ويخطئون ويستغفرون، لكن توبتهم كانت تختلف عن توبة كثير من الناس: فهم يتوبون من قريب ولا يدعون الآثام تتمكن من نفوسهم، ولا يصرون عـلى ذنـب يقـع مـنهم ولـو كـان في نظرهم صغيرا صغيرا، وكانوا يحرصون على أن يبيت الواحد مـنهم وقـد طهّـر نفـسه مـن أيـة معصية كانت، ولا يـبررون الهفـوات التـي تقـع مـنهم ولا يجـادلون فيهـا، وإذا قُـدّمت لهـم نصيحة قبلوها، وشكروا لمن أسداها لهم.

ومما امتازوا به –أيضا- أنّهم كانوا يُكفّرون عـن خطايـاهم بـالأعمال الـصالحة مـن صـلاة وصيام وصدقة ودعاء، ولا يقنطون من رحمة الـلـه!.

ذكر الموت

خلق اللـه ﷻ الإنسان في هذه الحياة الدنيا للاختبار والامتحان، ولم يخلقه لتكون الدنيا له دار قرار وبقاء، بل لتكون ممرا إلى العالم الآخر الذي هـو عـالم الخلـود. والإنـسان في هـذه الحياة مهما طال عمره، فلابد أن يأتي عليه يـوم تفـارق فيـه الـنفس الجـسد في الموعـد الـذي حدده اللـه، وهذا الموعد هو في علم اللـه، لا يعلم به أحد غيره؛ ليكون الإنـسان عـلى أهبـة الاستعداد للموت في كل لحظة.

ولا يظننّ أحد أنّ أمر الموت يسير، بل هو هول عظيم، وكرب شديد، ولا يـنغّص الإنـسان شيء كما يُنغّصه الموت، وقد أحسن ابن قدامة المقدسي حين قال:

(اعلم: أنه لو لم يكن بين يدي العبد المسكين كرب ولا هول سوى الموت، لكان جـديراً أن يتنغص عليه عيشه، ويتكدر عليه سروره، وتطول فيه فكرته، والعجب أن الإنـسان لـو كـان في أعظم اللذات، فانتظر أن يدخل عليـه جنـدي يـضربه خمـس ضربـات، لكـدّرت عليـه عيـشه ولذته، وهو فى كل نَفَس بصدد أن يدخل عليه ملك الموت بـسكرات النـزع، وهـو غافـل عـن ذكر ذلك، وليس لهذا سبب إلا الجهل والغرور)(1).

الناس في ذكر الموت

والناس في ذكر الموت قسمان:

(1) مختصر منهاج القاصدين لابن قدامة المقدسي، ص487، بتحقيق: زهير الشاويش، الطبعة التاسعة 1421-2000، المكتب الإسلامي، بيروت.

القسم الأوّل: ناس شغلتهم الدنيا، وأنستهم ذكر ربهم عليهم، فهم يغفلـون أو يتغـافلون عن ذكر الموت، فلا يذكرونه، وإذا ذكروه فيذكرونه بقلب غافل لاهٍ، وتنفر نفوسهم حين يُـذكر أمامهم. وهذه الغفلة عن الموت، أو التغافل والإعراض عن ذكره، هي التي تؤدي إلى الخـسارة العظمى في العالم الآخر.

القسم الثاني: ناس أيقنوا أنّ الدنيا زائلة، وكل ما فيهـا مـن مبـاهج ومغريـات ليـست إلا متاع الغرور؛ لذلك وضعوا الموت نصب أعينهم؛ فانطلقوا يعدّون لهذا اليوم عدته من العقيدة السليمة والعمل الصالح، وتنبعث من قلوبهم الخشية والفزع عند ذكره، وذكر مـا بعـده مـن الحياة البرزخية في القبور، ولا يخشون مـن شيء خـشيتهم مـن أن يـتخطفهم المـوت، قبـل أن يُعدوا لهذا اليوم الشديد عدته.

الموت في القرآن الكريم

كان النبع الأوّل الذي استقى منه المسلمون عقيدة الإسلام وشريعته هـو القـرآن الكـريم. فها هي آيات القرآن قد توالى نزولها على النبي الكـريم في أمـر المـوت، وقـد جـاءت في صـور شتى؛ لتغرس في قلب المسلم هذه الحقيقة التي يغفل أو يتغافل عنها الإنسان، حين يغـرق في متع الحياة الدنيا، منها: أنّ كل إنسان مصيره إلى الموت: فلا بقاء ولا خلود لغـير الحـي القيـوم ﷻ. وهناك يوم القيامة الذي يجازي اللـه فيه كل نفس بما كـسبت، وأنّ المـوت يـدرك كـل أحد ولو تحصّن في بروج مشيّدة، قال اللـه تعالى:

(**كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾**)سورة آل عمران.

وقال:

(**وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾**) **سورة الأنبياء.**

وقال:

(أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ)سورة النساء/78.

وقال:

(**... وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾**) **سورة لقمان.**

وقال:

(**قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾**)سورة الجمعة.

وقال:

(**وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾**) سورة ق.

الموت في حديث النبيﷺ

ويقرأ النبيﷺ هذه الآيات وغيرها -وهو يعلم عن أحوال الموت أكثر مما يعلمه غيره- فيغرس ذلك في قلوب صحابته: يربيهم على الاستعداد

له، ويدعوهم إلى الإكثار من ذكره، فقال صلوات اللـه وسلامه عليه:

«أكثروا ذكر هاذم اللذات»(1).

ومعنى هاذم اللذات: أي قاطع ومفرّق ومشتت اللـذات، والمـراد بـه: المـوت. وقـد ذكـر النبيﷺ هذا الحديث في غزوة أُحد على الكلام في قتل وحشي لحمزة بن عبد المطلبؓ.

وقالﷺ:

«ما رأيت منظرا قط إلا والقبر أفظع منه»(2).

ويدعو صلوات اللـــه وسـلامه عليـه إلى الاسـتعداد للمـوت، واصـفا المُكـثرين مـن ذكـره بالأكياس –وهم العقلاء-. فعن ابن عمر رضي اللـه عنهما أنّه قال:

(كنت مع رسول اللـهﷺ، فجاءه رجل من الأنصار، فسلم على النبيﷺ ثم قال: يا رسـول اللـه، أي المؤمنين أفضل؟ قال: «أحسنهم خلقا». قـال: فـأيُّ المـؤمنين أكـيس؟ قـال: «أكـثرهم للموت ذكرا، وأحسنهم لما بعده استعدادا، أولئك الأكياس»(3).

وقالﷺ:

---

(1) رواه الإمام أحمد 36/8، والترمذي في كتاب الزهد (باب: ما جاء في ذكر الموت) ص522، حديث 2307، والنسائي في (كثرة ذكر الموت)، صحيح سنن النسائي 6/2، حديث 1823، وغيرهم.

(2) رواه الترمذي في كتاب الزهد (باب: ما جاء في ذكر الموت) ص522، حديث 2307.

(3) رواه ابن ماجه في كتاب الزهد (باب: ذكر الموت والاستعداد له) 422/2، حديث 4259، وهو في سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني، حديث 1384.

«بادروا بالأعمال سبعا: هل تنتظرون إلا فقرا منسيا، أو غنى مطغيا، أو مرضا مفسدا، أو هرما مفندا، أو موتا مجهزا، أو الدجال فشرٌّ غائب ينتظر، أو الساعةَ فالساعةُ أدهى وأمر»(1).

والمراد بالموت المجهز: أي السريع الذي يأتي بغتة بغير سبب المرض الظاهر الذي يعرفه الإنسان من نفسه: كالسكتة القلبية، أو القتل...

وقال:

«يا أيها الناس، اذكروا الله، اذكروا الله، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه، جاء الموت بما فيه»(2).

والموت هول عظيم، يلاقي الإنسان فيه من الشدة ما يلاقي، وقد روي عن النبيﷺ أنّه كان (بين يديه ركوة أو علبة فيها ماء، فجعل يُدخل يديه في الماء، فيمسح بهما وجهه يقول: «لا إله إلا الله، إن للموت سكرات»(3).

سكرات الموت

والذي يقوم بقبض الأرواح هو ملك الموت، وله أعوان من الملائكة تقوم بهذه المهمة، فتأتي المؤمن بصورة حسنة جميلة، تبشّره برضوان الله

(1) رواه الترمذي في كتاب الزهد (باب: ما جاء في المبادرة بالعمل) ص521، حديث 2306.
(2) رواه الترمذي في كتاب صفة القيامة (باب: 23) ص553، حديث 2457.
(3) رواه البخاري في كتاب المغازي (باب: مرض النبيﷺ ووفاته) ص1104، حديث 4449.

عنه ومغفرته له، وتأتي الكافر والمنافق بصورة مخيفة، وتبـشّره بـسخط اللــه وعذابـه عليـه. والموت له سكرات وكربات وشدائد وغمرات، ولو نجا منها أحد لنجا منهـا النبـيﷺ.. والكـافر والمنافق يعاني من سكرات الموت أكثر مما يعانيه المؤمن، والذين تُخفف عنهم سكرات المـوت هم الشهداء الذين يسقطون في المعارك. ويتمنـى الإنـسان في حالـة الاحتـضار أن يُنـسأ لـه في أجله: فإن كان كافرا فلعله يسلم، وإن كان مسلما لكنّه مفرّط في جنب اللــه، فلعلّـه يتـوب، قال اللـه تعالى:

(حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾)سورة المؤمنون.

ولا تنفع التوبة إذا حضر الإنسان الموت وهو في النزع الأخير في الغرغرة.

إنّ قلب المؤمن يرتجف حين تُذكر أمامه سكرات الموت. ويزداد خوفه ووجله أكثر، حـين يقرأ الحديث الذي مرّ بنا آنفا في أمر سكرات الموت، فقد قال صلوات اللـه وسلامه عليه وقد اختار الرفيق الأعلى: «لا إله إلا اللـه، إن للموت سكرات»(1) أي غشيات شديدات وكربات.

ويبلـغ بالإنـسان الخـوف والوجـل مبلغـه حـين يعـاين تلـك الـسكرات. ولا عجب في ذلك، فـإنّ مـن عبـاد اللــه المعـروفين بالـصلاح مـن كـان يفـزع إذا ذُكرت سكرات الموت أمامه، وإذا سُئل عن سبب ذلـك أجـاب: رؤيـة ملـك

(1) رواه البخاري في كتاب المغازي (باب: مرض النبيﷺ ووفاته) ص1104، حديث 4449.

الموت، رؤية ملك الموت! ذلك لأنّ رؤية ملك المـوت تُـدخل الهلـع والفـزع في قلـب الإنـسان المذنب، وكيف لا يدخله الخوف والهلع والفزع، وهو يتلو آيات القـرآن المتحدثـة في سـكرات الموت؟! قال اللـه تعالى:

(**وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾**) سورة ق.

وسكرة الموت هنا: ما يحدث للمحتضر حين تُنزع النفس منه، فتغـشاه شـدة أيّـة شـدة، حين تنفصل النفس عن الجسد. وقبل أن يتم الانفصال يُدرك الإنسان الحقيقة أمامـه واضـحة لا لبس فيها ولا حجاب، ويتمنى أن يتوب وتُقبل توبته، ولكن هيهات فقد مضى وقت التوبـة وفات الأوان.

وتحدث القرآن عن سكرات الموت في آيات أخرى فقال تعالى:

(كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّـهُ الْفِـرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَالْتَفَّـتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾) سورة القيامة.

وقال:

(فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْـهِ مِـنْكُمْ وَلَكِـنْ لَا تُبْـصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَـوْلَا إِنْ كُنْـتُمْ غَـيْرَ مَـدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَـا إِنْ كُنْـتُمْ صَـادِقِينَ ﴿٨٧﴾) سورة الواقعة.

وقال:

(فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِـنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَامٌ لَـكَ مِـنْ أَصْحَابِ الْيَمِـينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّـا إِنْ كَـانَ مِـنَ الْمُكَـذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُـزُلٌ مِـنْ حَمِـيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَـصْلِيَةُ جَحِـيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَـذَا لَهُـوَ حَـقُّ الْيَقِـينِ ﴿٩٥﴾) سورة الواقعة.

وقال تعالى:

(**إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللـه ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾**) سورة فصلت.

وغير ذلك من الآيات.

ويُفصح النبيﷺ عن هذه الحقيقة بما روته السيدة عائشة –أو بعض أزواجه- فقالت: إنا لنكره الموت. قال: «ليس ذاك، ولكن المؤمن إذا حضره الموت بُشِّرَ برضوان اللـه وكرامته، فليس شيء أَحب إليه مما أمامه، فأحبَّ لقاء اللـه، وأحب اللـه لقاءه، وإن الكافر إذا حُضِرَ، بُشِّر بعذاب اللـه وعقوبته، فليس شيء أكره إليه مما أمامه، فكره لقاء اللـه، وكره اللـه لقاءه»(1).

ويبدو من هذا الحديث أن المحتَضَرَ يعلم: أيكون هو من أهل الجنة أم يكون من أهل النار: فإذا كان من أهل الجنة أحب لقاء اللـه؛ فأحب اللـه لقاءه، وإن كان من أهل النار يصيبه ما يصيبه من الذعر والخوف والفزع، فيكره لقاء اللـه، فيكره اللـه لقاءه، وينزل به الموت. يقول النبيﷺ:

«إنّ أحدكم إذا مات عُرِض عليه مقعده بالغداة والعشي: إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، فيقال

(1) رواه البخاري في كتاب الرقاق (باب:من أحبَّ لقاء اللـه أحبَّ اللـه لقاءه) ص 1128، حديث 6507.

هذا مقعدك حتى يبعثك الـلـه يوم القيامة»(1).

هكذا يشعر من عَمَـرَ الإيمـان قلـوبهم بـالفرح حـين تتـولى الملائكـة قـبض أرواحهـم، إذ يبشرونهم برضوان الـلـه عنهم، ويطمئنون قلوبهم بذلك، ويرحبون بقدومهم، ويعجلـون لهـم بالبشرى؛ فقال تعالى:

(الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّـةَ بِمَـا كُنْـتُمْ تَعْمَلُـونَ ﴿٣٢﴾) سورة النحل.

إنّهم المؤمنون الطائعون لـلـه رب العالمين، فهم (طيبون). وتجمع هذه اللفظـة القرآنيـة (طيبون) المعاني الكثيرة لطاعة الـلـه. فهم قد استجابوا لكل أمر من أوامره تعالى، وانتهوا عـن كل نهي من نواهيه؛ فوصفوا بهذا الوصف الذي ينبعث منه الطيب من كل جانب.

أجل، لا يشعر المؤمن الطائع لـلـه بشيء من العذاب حين تـستل روحـه مـن جـسده؛ إذ تُستل كما تُستل الشعرة من العجين، ويكون ملك المـوت بقـبض روحـه رفيقـا، ولـيس كـذلك الكافر والمنافق، فإنّ كل واحد منهما يُعذّب حين تخرج نفسه. فعن البراء بن عازبﷺ قال:

(خرجنا مع النبيﷺ فى جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا إلى القبر، ولمّا يُلحد، فجلـس رسـول الـلـهﷺ، وجلسنا حوله، كأن على رؤوسنا الطير، وفي يده عـود ينكـت بـه في الأرض، فرفـع رأسـه فقال: «استعيذوا بالـلـه من عذاب القبر». مرتين أو ثلاثا، ثم قـال: «إنّ العبـد المـؤمن إذا كـان في

(1) رواه البخاري في كتاب الجنائز (باب: الميت يُعرض عليه مقعده بالغداة والعشي) ص221، حديث 1379.

انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه، كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة، وحنوط من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت عليه السلام حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الطيبة، اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان؛ فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من فِيِّ السقاء فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها، فيجعلوها في ذلك الكفن، وفى ذلك الحنوط، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وُجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها، فلا يمرون -يعني بها- على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الطيب؟! فيقولون: فلان بن فلان بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا، حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا، فيستفتحون له، فيفتح لهم، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها، حتى يُنتَهي به إلى السماء السابعة، فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتاب عبدي في عليين، وأعيدوه إلى الأرض؛ فإني منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى؛ فتعاد روحه في جسده... وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه، معهم المُسُوح؛ فيجلسون منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت، حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة، اخرجي إلى سخط من الله وغضب، فَتَفَرّق في جسده، فينتزعها كما ينتزع السُّفُّود من الصوف المبلول، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين، حتى يجعلوها فى تلك المسوح، ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها، فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا:

ما هذا الروح الخبيث؟ فيقولون: فلان بن فلان، بأقبح أسمائه التي كان يـسمى بهـا في الـدنيا، حتى ينتهي به إلى السماء الدنيا؛ فيستفتح له فلا يفتح له». ثم قرأ رسول اللـهﷺ: (**لَا تُفَـتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَـاطِ**) «فيقـول اللــه ﷻ: اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى فتطرح روحه طرحـا». ثـم قـرأ (**وَمَـنْ يُـشْرِكْ بِاللــه فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾** ...)(1).

الصحابة وذكر الموت

كلما ازداد الإنسان معرفة باللـه تعالى وباليوم الآخـر، ازداد خوفـه مـن اللــه، وخـشيته منه ﷻ، فصار يحاسب نفسه على كل ما يصدر عنه من أقوال وأعمال. ومهما قدّم من طاعة وعبادة له سبحانه، فإنّه يراها قليلة قليلة، ويخـشى أن يـردّ اللــه عليـه مـا قدّمـه مـن عمـل فتكون الخسارة العظمى التي ما بعدها خسارة. وقد كان صحابة النبيﷺ أصـحاب حـساسية مرهفة، تتجلى ببكائهم الطويل من ذكـر المـوت الـذي وضـعوه نـصب أعيـنهم لـيلا ونهـارا لا يفارقهم، متذكرين أهوال يوم القيامة، وما يقدم عليه الإنسان من سفر طويل نهايته الجنة أو النار، وهذه نماذج من خوف الصحابة من الموت وإكثارهم من ذكره.

1- كان أمير المؤمنين عمر بـن الخطـابﷺ قـد نقـش خاتمـه: كفـى بـالموت واعظـا يـا عمر(2).

---

(1) رواه الإمام أحمد في مسنده بإسناد صحيح 30/499-502، حديث 18534.

(2) تهذيب الكمال للمزي 21/323، تحقيق: بشار عواد معروف، الطبعة الأولى 1400-1980، مؤسسة الرسالة، بيروت.

وكان ﷺ يقول: كل يوم يُقال: مات فلان وفلان، ولابد من يوم يقال فيه: مات عمر(1).

ولمّا طعن أبو لؤلؤة فيروز المجوسي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ وهو في صلاة الصبح طعنات مسمومة وأحسّ بدنو أجله، تحدّث وهو على فراش الموت، فكان من آخر كلماته التي تحدث بها: (والذي نفسي بيده، لوددت أني خرجت منها –أي من الخلافة- كما دخلت فيها: لا أجر ولا وزر)(2).

وقال:

(..والله، لو أن لي طلاع الأرض ذهباً لافتديت به من عذاب الله ﷻ قبل أن أراه)(3).

وروى ابن عمر رضي الله عنهما قال: (كان رأس عمر على فخذي في مرضه الذي مات فيه، فقال لي: ضعْ رأسي على الأرض. قال: فقلت: وما عليك كان على فخذي أم على الأرض؟ قال: ضعه على الأرض؛ قال: فوضعته على الأرض فقال: ويلي وويل أمي إن لم يرحمني ربي)(4).

---

(1) رسالة المسترشدين للحارث المحاسبي ص167 بتحقيق: الشيخ عبد الفتاح أبي غدة –حاشية المحقق- الطبعة العاشرة، دار السلام، القاهرة.

(2) حلية الأولياء 89/1.

(3) رواه البخاري في كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ (باب: مناقب عمر بن الخطاب ﷺ) ص935، حديث 3692.

(4) حلية الأولياء 89/1.

قال أمير المؤمنين هذا وهو الذي عُرف بإيمانه العميق، وبصيام النهار وقيام الليل، واهتمامه بتفقد أحوال رعيته، وتواضعه الجم، ومحافظته على مال الأمة..أمّا عدالته، فقد طبقت أرجاء الأرض، وسار بذكرها الركبان، وشهد له حتى الأعداء بذلك، فلا نجد نظيرا لها إلا ما كان من عدالة النبيﷺ فهو خير من طبّق العدالة والخلفاء الراشدين، وقد فتح للإسلام العراق وبلاد فارس والشام ومصر وأطرافا من إفريقية، ثم كانت خاتمته سقوطه شهيدا وهو يصلي في المحراب...، فكيف بغيره من الناس؟!!!

2- عن هانئ مولى عثمان بن عفانﷺ قال: كان عثمان إذا وقف على قبر بكى حتى يبلّ لحيته، فقيل له: تذكر الجنة والنار فلا تبكي، وتبكي من هذا؟! فقال: إن رسول اللهﷺ قال: «إنّ القبر أول منزل من منازل الآخرة، فإن نجا منه، فما بعده أيسر منه، وإن لم ينج منه، فما بعده أشد منه»(1).

3- وكان سيدنا علي بن أبي طالبﷺ يقول: (إذا كنت في إدبار، والموت في إقبال، فما أسرع الملتقى)(2).

وخطبﷺ خطبة قال فيها:

(أيها الناس، اتقوا الله الذي إن قلتم سمع، وإن أضمرتم علم. وبادروا الموت الذي إن هربتم منه أدرككم، وإن أقمتم أخذكم)(3).

(1) رواه الترمذي في (باب: ما جاء في ذكر الموت 5) ص522، حديث 2308.

(2) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد 69/18، تحقيق: محمد عبد الكريم النمري، الطبعة الأولى 1418-1998، دار الكتب العلمية، بيروت.

(3) الكامل في اللغة والأدب لأبي العباس المبرد 254/1، تحقيق: جمعة الحسن، الطبعة الأولى 1425-2004، دار المعرفة، بيروت.

وكانﷺ يقول:

أشـــــدد حـيازيمـــــك للمـــــو	ت فـــــإنّ المـــــوت لاقيكـــــا
ولا تجـــــزع مـــــن المـــــو	ت وإن حــــــــلّ بناديكـــــا

4- ولمّا نزل الموت بالحسن بن علي رضي اللـه عنهما قال:

(أخرجوا فراشي إلى صحن الدار؛ فأُخرج، فقال: اللـهم إني أحتسب نفسي عنـدك؛ فـإنّي لم أُصب بمثلها)(1).

5- وقال عبد اللـه بن عمر رضي اللـه عنهما:

(إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضـك، ومن حياتك لموتك)(2).

وكانﷺ إذا ذُكر الموت والقيامة انتفض انتفاض الطـير، وكـان يجمـع كـل ليلـة الفقهـاء، فيتذاكرون الموت، ثم يبكون، حتى كأنّ بين أيديهم جنازة)(3).

6- وقال أبو الدرداءﷺ:

(إذا ذُكر الموتى، فعدّ نفسك كأحدهم)(4).

وقال:

(من أكثر ذكر الموت، قلّ فرحه وقلّ حسده)(5).

---

(1) مختصر منهاج القاصدين، ص498.

(2) رواه البخاري في كتاب الرقاق (باب: قول النبيﷺ: كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل) ص1580-1581، حديث 6416.

(3) مختصر منهاج القاصدين ص482.

(4) مختصر منهاج القاصدين، ص483.

(5) سير أعلام النبلاء 353/2.

وقال:

(لو تعلمون ما أنتم لاقون بعد الموت لما أكلتم طعاما على شهوة، ولا شربتم شرابا على شهوة، ولا دخلتم بيتا تستظلون فيه، ولخرجتم إلى الصعيد تضربون صدوركم، وتبكون على أنفسكم، ولوددت أنّي شجرة تُعضد -تقطع- ثمّ تؤكل)(1).

وكانﷺ يقعد إلى القبور. فقيل له في ذلك فقال: (أجلس إلى قوم يُذكّروني معادي، وإن غبت لم يغتابوني)(2).

7- وقال أويس القرنيﷺ لهرم بن حيان حين طلب منه أن يوصيه:

(توسد الموت إذا نمت، واجعله نصب عينيك، وإذا قمت فادع الله أن يصلح لك قلبك ونيتك، فلن تعالج شيئاً أشد عليك منهما... ولا تنظر في صغر الخطيئة ولكن انظر إلى عظمة من عصيت)(3).

8- وروي عن معاذ بن جبلﷺ قال لمّا حضرته الوفاة:

(مرحباً بالموت زائر مغيّب، وحبيب جاء على فاقة، اللهم إنّي كنت أخافك وأنا اليوم أرجوك، اللهم إنّك تعلم أنّي لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لكري الأنهار، ولا لغرس الأشجار، ولكن لطول ظمأ الهواجر، وقيام ليل الشتاء، ومكابدة الساعات، ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر)(4).

---

(1) الداء والدواء لابن قيم الجوزية ص82، تحقيق: يوسف علي بديوي، الطبعة السابعة 1432-2011، دار ابن كثير، دمشق-بيروت.

(2) مختصر منهاج القاصدين، ص499.

(3) صفة الصفوة لابن الجوزي، 55/3.

(4) مختصر منهاج القاصدين، ص498.

9- ولقد بكى أبو هريرةﷺ في مرضه فقيل له: (ما يبكيك؟ قال: ما أبكي على دنياكم هذه، ولكن على بُعد سفري، وقلة زادي، وأني أمسيت في صعود، ومهبطه على جنة أو نار، فلا أدري أيهما يُؤخذ بي)(1).

10- وبكى سلمان عند الموت، فقيل له ما يبكيك؟ قال: ما أبكي ضنّا –أي بخلا- بدنياكم، ولا جزعا من الموت، ولكن قلة الزاد، وبُعد المفاز)(2).

11- وقالت أم المؤمنين صفية رضي اللـه عنها: إنّ امرأة اشتكت إلى عائشة رضي اللـه عنها قساوة قلبها؛ فقالت: أكثري من ذكر الموت يرق قلبك؛ ففعلت فرقّ قلبها، فجاءت تشكر لعائشة رضي اللـه عنها(3).

وهكذا نرى الإكثار من ذكر الموت دواءا للغفلة التي تصيب الإنسان إذا تأمّل به وبسكراته وكرباته، وأكثر من ذكره ومن زيارة القبور، وتذكّر أنّ من أصحاب هذه القبور التي يزورها من كان أكثر منه مالا وقوة ومكانة اجتماعية، فقد طواهم التراب، وما عاد يذكرهم ذاكر.

إنّ هذا لون من ألوان علاج النفس، يحول بين الإنسان وبين الوقوع فيما حرّم اللـه. إنّه علاج للغفلات التي تصيب كل إنسان، وبخاصة في عصرنا هذا الذي كثرت مغرياته، وتعددت صنوف شهواته.

---

(1) سير أعلام النبلاء 625/2.

(2) موسوعة رسائل ابن أبي الدنيا –كتاب المحتضرين- 299/4-300.

(3) العاقبة في ذكر الموت، تأليف: عبد الحق بن عبد الرحمن بن عبد اللـه الأشبيلي، 41/1، تحقيق: خضر محمد خضر، الطبعة الأولى 1406-1986، مكتبة دار الأقصى، الكويت.

وأحبّ -بعد هذا- أن أنقل لكم ما خطه يراع (الحارث المحاسبي)(1) في رسالته (التوهم) متحدثا عن موت الإنسان الطائع وغير الطائع، بطريقة الخطاب، فطلب من قارئ رسالته أن يستحضر قلبه وعقله لما سيحل به غدا عند الموت، فيضع ذلك أمامه ويفكر فيه، كما طلب منه أن يتخيّل ما يصير إليه؛ ليعدّ لذلك اليوم عدته. وأقتصرُ هنا على نقل ما يتعلق من الرسالة بالموت فقط، لما في ذكر ذلك من ترقيق للقلوب، وجلاء لها من الران الذي يُغلّفها، قال رحمه الله يخاطب كل إنسان طائع أو غير طائع:

(فتوهَّمْ نفسَك وقد صُرِعْتَ للموت صرعة لا تقوم منها إلا إلى الحشر إلى ربك. فتوهَّمْ نفسَك في نزع الموت وكربه، وغصصه وسكراته، وغمِّه وقلقه، وقد بدأ الملَكُ يجذب روحك من قدمك، فوجدت إلمَ جذبه من أسفل قدميك، ثم تداركَ الجذبَ واستحثَّ النزع، وجُذبت الروح من جميع بدنك، فنشطت من أسفلك متصاعدة إلى أعلاك، حتى إذا بلغ منك الكرب منتهاه، وعمّت آلام الموت جميع جسمك، وقلبُك وجل، محزون مرتقب، منتظر

---

(1) هو الحارث بن أسد المحاسبي. ولد بالبصرة، ولم يُعرف تاريخ ولادته. وقد عُرف بالعلم والزهد، وتأثيره بالوعظ، فهو أحد الزهاد المعروفين بالعبادة، وقد أثنى عليه كثير من العلماء، وانتقده علماء آخرون، وربما كان هذا من تكلم الأقران بعضهم في بعض، وكل أحد يؤخذ من كلامه ويُردّ عليه إلا رسول اللهﷺ. وله عدد من المؤلفات المطبوعة وأخرى ما زالت مخطوطة. فمن مؤلفاته المطبوعة: 1- التوهم. 2- الرعاية لحقوق الله. 3- رسالة المسترشدين. 4- كتاب الوصايا...وتوفي -رحمه الله- في بغداد سنة 243.

للبشرى من اللـه ﷻ بالغضب أو الرضا، وقد علمت أنّه لا محيص له دون أن تـسمع إحـدى البشريين من الملك الموكل بقبض روحك)

(فبينما أنـت في كربـك وغمومـك، وألم المـوت بـسكراته، وشـدة حزنـك لارتقابـك إحـدى البشريين من ربك، إذ نظرت إلى صفحة وجه ملك الموت بأحسن الـصورة أو بأقبحهـا، ونظـرت إليه مادا يده إلى فيك ليُخرج روحك من بدنك، فذلت نفسك لما عاينـت ذلـك، وعاينـت وجـه ملك الموت، وتعلق قلبك بماذا يفجؤك من البشرى منه؛ إذ سمعت صوته بنغمته: أبـشر يـا وليّ اللـه برضا اللـه وثوابه، فتستيقن حينئذ بنجاحك وفوزك، ويستقر الأمر في قلبـك فتطمـئنّ إلى اللـه نفسك، أو تستيقن بعطبك وهلاكك، ويحل الإياس قلبك، وينقطع من اللـه ﷻ رجـاؤك وأملك، فيلزم حينئذ غاية الهم والحزن، أو الفرح والسرور قلبك، حين انقضت من الدنيا مدتك، وانقطع منها أثرك، وحُملت إلى دار من سلف من الأمم قبلك)(1).

وأختم حديثي بما قاله عدي بن زيد:

أيـــن أهـــل الـــديار مـــن قـــوم نـــوح ثـــم عـــاد مـــن بعـــدهم وثمـــود

أيــــن آباؤنــــا وأيــــن بنــــوهم أيـــن آبـــاؤهم وأيـــن الجـــدود

ســـلكوا مـــنهج المنايـــا فبـــادوا وأرانـــا قـــد حـــان منـــا ورود

بيـــنما هـــم عـــلى الأسرة والأنمـــاط أفـــضت إلى الـــتراب الخـــدود

ثـــم لم يـــنقض الحـــديث ولكـــن بعـــد ذاك الوعيـــد والموعـــود

(1) كتاب الوصايا للحارث المحاسبي ص243-244، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، الطبعة الأولى 1424-2002، دار الكتب العلمية، بيروت.

وأطبـــــاء بعــــــدهم لحقـــــوهم ضــل عــنهم صــعوطهم واللــدود(1)
وصـــحيح أضـــحى يعـــود مريـــضا هـــو أدنى للمـــوت ممـــن يعـــود

(1) الصعوط والسعوط: اسم للدواء يصب في الأنف، واللدود من الادوية ما يُسقاه المريض في أحد شقي الفم. ينظر: سير أعلام النبلاء للذهبي 110/5.

الزهد

قدوة المسلم العليا في كل مكرمة من المكرمات الباهرات، هو رسول اللــهﷺ. وأول مـن اقتدى به فأحسن الإقتداء بصفاته العليا هم صحابته الكرامﷺ. فقـد عاشـوا معـه، ورأوا مـن أحواله العامة والخاصة ما لم يره غيرهم: رأوا أقواله التي صدقتها الأفعال، ورأوا حقيقة الزهـد في حياته كيف يكون، فاقتدوا به خير اقتداء، فكان الواحد منهم أسعد ما يكـون حـين يقتـدي بكل فعل من أفعاله، وينفذ كل قول من أقواله. وسأكتفي هنا بذكر نماذج من أقواله وأفعالـه في الزهد(1) ثم اتبعها باقتداء الصحابة به في ذلك.

ننظر في سيرة النبيﷺ ، فنرى تأثره الكبير بكل آيـة مـن آيـات القـرآن -وبخاصـة الآيـات الداعية إلى الزهد بزهرة الحياة الدنيا – ومن تلك الآيات قوله تعالى: (**قُلْ مَتَـاعُ الـدُّنْيَا قَلِيـلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا)** سورة النساء/٧٧.

وقوله:

---

(1) تدل مادة (زهد) على القلة في كل شيء، قال تعالى في قصة نبي اللـه يوسف ﷺ (وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ) سورة يوسف/٢٠.

وتقول: زهد في الأمر الفلاني: أي أعرض عنه وتركه، وزهد في الدنيا أي ترك حلالها مخافة الحساب أو طلبا للثواب.

والزهد في الإصطلاح: هو ترك راحة الدنيا طلبا لراحة الآخرة. وقيل هو أن يخلوَ قلبك مما خلت منه يدك(ينظر: التعريفات للجرجاني).

وحقيقته: انصراف الرغبة عن الشيء إلى ما هو خير منه كما يقول الإمام الغزالي في (إحياء علوم الدين).

(**وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾**) سورة آل عمران/١٨٥.

وقوله:

(**تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾) سورة القصص.**

وقوله:

(**لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾) سورة الحديد.**

قرأ النبيﷺ هذه الآيات وغيرها، فطبقها على نفسه خير تطبيق أولا، ثم دعا صحابته إلى الزهد في الحياة الدنيا في أحاديثه الكثيرة، ومنها قوله ﷺ لعبد اللـه بن عمر:

«كن في الدنيا كأنّك غريب أو عابر سبيل»(1).

وقوله:

«واللـه ما الدُّنْيَا في الآخِرَةِ إلا مِثْلُ ما يَجْعَلُ أحدكم اصبعَهُ هذه -وَأَشَارَ يحيى بِالسَّبَّابَةِ- في الْيَمِّ فَلْيَنْظُرْ بِمَ يرجع»(2).

وقوله:

«يقول ابن آدَمَ مَالِي مَالِي قال وَهَلْ لك يا بن آدَمَ من مَالِكَ إلا ما

(1) رواه البخاري في كتاب الرقاق (باب: قول النبيﷺ كن في الدنيا كأنك غريب) ص1580، حديث 6416.

(2) رواه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها (باب: فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة) 2173/4، حديث 2858.

أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ أو لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ أو تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ»(1).

وقوله:

«من أصبح آمنا في سربه معافى في جسده عنده طعام يومه فكأنما حيزت له الدنيا»(2).

وقوله:

« ازْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبَّكَ اللـه وَازْهَدْ فِيمَا فِي أَيْدِي الناس يُحِبُّوكَ»(3).

وقوله:

«ما لِي وَلِلدُّنْيَا ما مثلي وَمَثَلُ الدُّنْيَا إلا كَرَاكِبٍ سار في يوم صائف فاستظل تَحْتَ شَجَرَةٍ ساعة من نهار ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا»(4).

ولننظر كيف كان الزهد العملي للنبيﷺ:

عن عروة عن عائشة رضي اللـه عنهما أنها كانت تقول:

(واللـه يا ابن أختي إن كنا لننظر إلى الهلال ثم الهلال ثم الهلال ، ثلاثة أهلة في شهرين، وما أوقد في أبيات رسول اللـهﷺ نار. قال: قلت: يا خالة، فما كان يعيشكم؟ قالت: الأسودان: التمر والماء، إلا أنه قد كان لرسول اللـهﷺ جيرانٌ من الأنصار، وكانت لهم منايح، فكانوا يرسلون إلى

(1) رواه مسلم في كتاب الزهد والرقائق، 2273/4، حديث 2958.

(2) رواه البخاري في كتاب الأدب المفرد (باب: من أصبح آمنا في سربه)، ص98، حديث 300، خرّج أحاديثه: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت.

(3) رواه ابن ماجه في كتاب الزهد (باب: الزهد في الدنيا)، 1374/2، حديث 4102.

(4) رواه الإمام أحمد 222/3، حديث 2744.

رسول اللـهﷺ من ألبانها فيسقيناه)(1).

وروى ابن عباسﷺ قال: حدثني عمر بن الخطابﷺ قال: (دخلت على رسول اللــهﷺ وهو على حَصِيرٍ. قال فَجَلَسْتُ فإذا عليه إِزَارٌ وَلَيْسَ عليه غَيْرُهُ وإذا الْحَـصِيرُ قـد أَثَّـرَ فِي جَنْبـهِ وإذا أنا بِقَبْضَةٍ من شَعِيرٍ نَحْوِ الصَّاعِ وَقَـرَظٍ فِي نَاحِيَـةٍ فِي الْغُرْفَـةِ وإذا إِهَـابٌ مُعَلَّـقٌ فَابْتَـدَرَتْ عَيْنَايَ فقال: ما يُبْكِيكَ يا بن الْخَطَّابِ فقلت يا نَبِيَّ اللـه وَمَالِي لا أَبْكِي وَهَذَا الْحَصِيرُ قـد أَثَّـرَ فِي جَنْبِكَ وَهَذِهِ خِزَانَتُكَ لا أَرَى فيها إلا ما أَرَى وَذَلِكَ كسرى وَقَيْـصَرُ فِي الـثِّمَارِ وَالأَنْهَـارِ وَأَنْـتَ نَبِيُّ اللـه وَصَفْوَتُهُ وَهَذِهِ خِزَانَتُكَ؟ قال: يا بن الْخَطَّابِ ألا تَـرْضَى أَنْ تَكُـونَ لنـا الآخِـرَةُ وَلَهُـمْ الدُّنْيَا؟ قلت: بَلَى)(2).

وروى النعمان بن بشير قول عمر بن الخطابﷺ:

(لقد رأيت رَسُولَ اللـهﷺ يَظَلُّ الْيَوْمَ يلتوى ما يَجِدُ دَقَلا(3) يَمْلأُ بِهِ بَطْنَهُ)(4).

وعن أنس بن مالـكﷺ أنّ فاطمـة رضي اللــه عنهـا جـاءت بكـسرة خبـز إلى النبيﷺ فقال: «ما هذه؟»، قالت: قُرص خبزتـه فلـم تطـب نفـسي حتـى أتيتك بهذه الكسرة. فقـال: «أمـا إنّـه أول طعـام دخـل فـم أبيـك منـذ ثلاثـة

(1) الجمع بين الصحيحين البخاري ومسلم تأليف: محمد بن فتوح الحميدي 138/4، تحقيق: د. علي حسين البواب، الطبعة الثانية 1423هـ - 2002م ، دار ابن حزم لبنان، بيروت.

(2) رواه ابن ماجه في سننه كتاب الزهد 1390/2-1391، حديث 4153.

(3) الدقل: التمر الرديء

(4) رواه مسلم في كتاب الزهد والرقائق، 2285/4، حديث 2978.

أيام»(1).

هذه أمثلة قليلة من مئات الأمثلة، تنصُّ على زهـد النبـيﷺ بزينـة الحيـاة الـدنيا، فقـد كانعليه السلام يعيش وأزواجه كما يعيش أكثر الناس فقرا في مكة، ولـيس ذلـك لعـدم قدرتـه عـلى الحصول على المال؛ إذ إنه لو أراد ذلك، لجمع من المـال مـا لم يجمعـه أحـد غـيره في الجزيـرة العربية. ألم يساومه مشركو مكة أن يجمعوا له المال ليكون أكثرهم مالا، مقابل أن يتخلى عـن دعوته فأبى ذلك؟.

إنه الزهد الذي ضرب به من الأمثلة أروعها. ويكفينا أن نعلم أنه صلوات اللــه وسـلامه عليه توفي وما في بيته شيء يؤكل إلا شطر شعير في رف للسيدة عائشة أم المـؤمنين رضي اللــه عنها. يقول عمرو بن الحارثرضي الله عنه.

(ما تَرَكَ رسول اللـه ﷺ عِنْدَ مَوْتِهِ دِرْهَمًا ولا دِينَارًا ولا عَبْـدًا ولا أَمَـةً ولا شـيئا إلا بَغْلَتَـهُ الْبَيْضَاءَ وَسِلاحَهُ وَأَرْضًا جَعَلَهَا صَدَقَةً)(2).

إنّ هذا المنهج في الزهد كان له أثره البالغ في صحابته الكرام،فقد اقتدوا به في كل جانـب من جوانب حياته -ومنها جانب الزهد- فكانـت الآخـرة نـصب أعيـنهم، بعـد أن آمنـوا إيمانـا عميقا أنّ الدنيا إنْ هي إلا دار فناء، وأنها لم تكن سوى سُلّم لدار الخلود.

ولننظـر إلى زهــد صـحابة النبــيﷺ، اولئـك الـذين علّمـوا الـدنيا كيـف

(1) سير أعلام النبلاء 401/27.

(2) رواه البخاري في كتاب المغازي (باب: مرض النبي ووفاته) ص1105، حديث 4461.

يكون الزهد، ونبدأ بالخلفاء الراشدين:

زهد أبي بكر الصديق ﷺ

فهذا خليفة رسول الـلـه أبو بكر الصديق كان من التجار الكبار، وكـان لـه أربعـون الـف دينار ذهبا- وفي لفظ اربعون ألف درهم- فأنفقها على رسول الـلـهﷺ ولم يبق عنده منها يوم مات النبيﷺ إلا القليل، فلمّا صار خليفة للمسلمين ألقى بما كان معه من المال في بيـت مـال المسلمين، وماتﷺ ولم يخلف دينارا ولا درهما. ولننظر وصيته قبل أن ينتقـل إلى جـوار ربـه، لنجد الزهد كيف يكون: فقد أوصى بأن يكفن بثوبين قديمين وقال:

(أنظـروا ثـوبيَّ هـذين فاغـسلوهما، وكفنـوني فـيهما؛ فـإن الحـي أحـوج إلى الجديـد مـن الميت)(1).

وأوصى ابنته أم المؤمنين عائشة بقوله:

(إنا ولينا أمر المسلمين، فلم نأخذ لنا دينارا ولا درهما، ولكنا أكلنا من جريش طعامهم في بطوننا، ولبسنا من خشن ثيابهم على ظهورنا، وإنه لم يبق عنـدنا مـن فيء المـسلمين قليـل ولا كثير إلا هذا العبد الحبشي، وهذا البعير الناضح وجرد هذه القطيفة، فـإذا مـت فـأبعثي بهـن إلى عمر)(2).

ولم يكتف أبو بكر بهذا، فقد أوصى ابنته عائشة بقوله:

---

(1) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص64 الطبعة الثانية 1426-2005، دار الكتب العلمية بيروت.

(2) الطبقات الكبرى لابن سعد تأليف: محمد بن سعد بن منيع البصري الزهري، 200/3 دار صادر بيروت.

(انظروا كم أنفقت منذ وليت من بيت المال فاقضوه عني)(1).

ذلك لأن الصحابة كانوا قد فرضوا له شيئا يسيرا من المال ليقتات به مع أهله؛ إذ ترك تجارته، وتفرغ لشؤون الخلافة. وقد قامت أم المؤمنين باعادة ما أخذه في خلافته لبيت المال.!

إنه الزهد في أجمل صورة من صوره، يتحلى به خليفة رسول اللهﷺ! وهيهات أن تجد الدنيا مثيلا له أو شبيها في تواريخ العالم قديمه وحديثه.!

زهد عمر بن الخطابرضي الله عنه

وهذا أمير المؤمنين عمر بن الخطابرضي الله عنه، كان قد بلغ في الزهد قمته؛ إذ تأثر بزهد النبيﷺ في أحاديثه القولية والعملية: فكان طعامه الملح والزيت والخل، ولو شاء أن يأكل من أطايب الطعام لكان ذلك في متناول يده، فقد فتحت الدنيا أمامه: ففتح ما يقرب من نصف العالم في خلافته، لكنّه الزهد الذي لا يدانيه زهد.

دخل يوما على ابنته حفصة أم المؤمنين، فقدمت له مرقا باردا وخبزا وصبت في المرق زيتا، فلم يذق شيئا من ذلك وقال: أُدمان في إناء واحد؟! لا أذوقه حتى ألقى الله(2).

وكان رضي الله عنه كثير الصيام (فلما كان زمان الرمادة، إذا أمسى أُتي بخبز قد ثرد بالزيت، إلى أن نحروا يوما من الأيام جزورا، فأطعمها الناس، وغرفوا له طيبها، فأتي به، فإذا فدر (قطعة) من سنام ومن كبد، فقال أنى

(1) إمام الأمة وقائدها خليفة رسول الله أبو بكر الصديق، تأليف د. حامد محمد الخليفة 852/2، الطبعة الأولى 1428-2007، عمان، الأردن

(2) الطبقات الكبرى319/3.

هذا؟ قال: يا أمير المؤمنين من الجزور التي نحرناها اليوم، قال: بخ بخ، بئس الوالي أنا إن أكلت طيبها، وأطعمت الناس كراديسها(1)، إرفع هذه الجفنة، هات لنا غير هذا الطعام. قال: فأتي بخبز وزيت قال: فجعل يثرد ويكسر ذلك الخبز، ثم قال: ويحك يا يرفأ (اسم غلامه): إحمل هذه الجفنة تأتي بها أهل بيت بثمغ (موضع وقف عمر)؛ فأني لم آتهم منذ ثلاثة أيام، وأحسبهم مقفرين؛ فضعها بين أيديهم)(2).

ومن أقواله التي سارت بذكرها الركبان:

(كيف يعنيني شأن الرعية إذا لم يمسسني ما مسهم؟!)(3).

حتى بعد أن فرج اللـه عن المسلمين زمان الرمادة، وعادت الحياة الطبيعية إلى الناس يأكلون ويشربون وهم في سعة من العيش، ظل أمير المؤمنين زاهدا في متع الحياة الدنيا، فلا يأكل إلا الخشن من الطعام ولا يلبس إلا الخشن من الثياب، وبينما كان الناس يأكلون ويتمتعون (قدمت السوق عكّة من سمن، ووطب من لبن، فاشتراهما غلام لعمر باربعين (درهما) ثم أتى عمر فقال: يا أمير المؤمنين، قد أبرّ اللـه يمينك، وعظم أجرك، قدم السوق وطب من لبن وعكة من سمن فابتعتهما باربعين، فقال عمر: أغليت بها؛ فتصدق بهما؛ فإني أكره أن آكل اسرافاً)(4).

(1) الكراديس: رؤوس العظام.

(2) طبقات ابن سعد 312/3، و 290/3 طبعة الخانجي، والرياض النضرة للمحب الطبري 385/1.

(3) تاريخ الطبري98/4 تحقيق: محمد ابو الفضل إبراهيم، الطبعة السادسة، دار المعارف.

(4) تاريخ الطبري 98/4.

وقد وصف شاعر النيل حافظ إبراهيم زهده فقال:

إن جـــاع في شــــدة قـــوم شركـــتهم   في الجـــوع أو تـــنجلي عـــنهم غواشـــيها
جـــوع الخليفـــة -والـــدنيا بقبـــضته-   في الزهـــد منزلـــة ســـبحان موليهـــا
فمن يباري أبا حفـص وسيـرته   أو من يحاول للفاروق تشبيهـا(1).

أما عن ملابسه فكان يلبس أدنى مما يلبسه عامة الناس، فقد خطب يوما -وهـو خليفـة- وعليه إزار فيه اثنتا عشرة رقعة(2) وطاف ببيت اللـه الحرام وعليه ازار فيه اثنتا عشرة رقعة أحداهن بأدم أحمر(3). وانتظر الناس يوم الجمعة أمير المـؤمنين عمـر ليخطـب بهـم إذ ابطـأ عليهم، ثم خرج فاعتذر اليهم عن احتباسه وقال: إنما حبسني غسل ثوبي هذا، كان يغسل، ولم يكن لي ثوب غيره(4).

ومن زهده ﷺ أنه ما كـان يـضرب لـه فـسطاط ولا خبـاء في سـفره(كـان يلقـي الكـساء والنِّطع على الشجرة فيستظل تحته)(5).

وهذه حفصة ابنة عمر أم المؤمنين قالت: لأبيها يوما: يا امير المؤمنين، لو لبست ثوبـا هـو الـين مـن ثوبك، وأكلت طعاما هو أطيب من طعامك، فقد وسع اللـه ﷻ من الـرزق، واكـثر مـن الخـير قـال: اني

(1) ديوان حافظ إبراهيم 93/1 بتحقيق: أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الأبياري، الناشر: محمد أمين دمج، بيروت، 1969.

(2) الزهد للإمام أحمد ص109 حديث 658، الطبعة الأولى 1426-2005 مؤسسة الريان، بيروت.

(3) الطبقات الكبرى لابن سعد 328/3.

(4) الزهد للإمام أحمد بن حنبل ص108، حديث655.

(5) الطبقات الكبرى لابن سعد 279/3 واسناده صحيح.

سأخصمك إلى نفسك(أي سأجعلك حكما على نفسك)، اما تـذكرين مـا كـان رسـول اللــه ﷺ يلقى من شدة العيش؟ فما زال يذكرها حتى ابكاها فقال لها: ان قلت لك ذاك اني والـلـه لـئن استطعت لأشاركنهما بمثل عيشهما الشديد لعلي ادرك معهما عيشهما الرخيّ)(1).

هذا جانب من جوانب زهد عمر، وهو غني عن أي تعليق كان، ويحق لكـل منـصف أن يسأل. هل عرفت الدنيا قديمها وحديثها من وصل إلى عشر ما وصل اليه عمر في زهده؟!.

زهد عثمان بن عفانؓ

وهذا عثمان بن عفانؓ كان من أكثر المسلمين مالا، وقد ضرب أروع الأمثلـة بالزهـد في العيش والجاه: فقد كان أميراً للمؤمنين، وتوسعت في عهده الفتوحات الإسلامية، ومـع هـذا لم يكن عنده شيء من التباهي بزينة الحياة الدنيا، فكان يلبس الإزار الغليظ، ويقيل في المـسجد في ملحفة وليس حوله أحد، فيقوم وقد أثر الحـصير في جنبـه، ويـراه النـاس راكبـا عـلى بغلـة وغلامه (نائل) خلفه. وقد غضب يوما على عبد له فعرك أذنـه، وتـذكر عـثمان القـصاص يـوم القيامة؛ فندم على ما كان منه وجاء إلى عبده قائلا له:

(إني كنت قد عركت أذنك فاقتصَّ مني!) ويستحيي العبد من كلام أمير المـؤمنين عـثمان، فيلح عليه أن يفعل قائلا له: شدّ شدّ، يا حبذا قصاص في الدنيا ولا قصاص في الآخرة)(2).

(1) الزهد للإمام أحمد بن حنبل ص109، حديث 660.

(2) التذكرة الحمدونية لمحمد بن الحسن بن محمد 212/3، دار صادر بيروت.

وكان رضي الله عنه يطعم الناس طعام الإمارة، ويدخل بيته فيأكل الزيت والخل، وكان يكره التفاخر بالكرم، والتباهي بنوع الطعام أو كثرته، فكان منهجه هذا لونا من ألوان التزهيد بالجاه. فعن حميد بن نعيم: (أن عمر وعثمان رضي الله عنهما دعيا إلى طعام فلما خرجا، قال عثمان لعمر: قد شهدنا طعاما لوددنا أنا لم نشهده، قال: لم؟ قال: إني أخاف أن يكون صنع مباهاة)(1).

ولقد كان رضي الله عنه زاهدا بالجاه -أيضا-. فلما تداعى الغوغاء لقتله، طلب الصحابة أن يدافعوا عنه فأبى، وقد قال له المغيرة بن شعبة:

(إن معك عددا وقوة، وأنت على الحق وهم على الباطل. فقال له عثمان:

(لن أكون أول من خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمته بسفك الدماء)(2).

وطلب منه عبد الله بن الزبير أن يقوم بنصرته فأبى وهكذا الأمر في زيد بن ثابت والحسن بن علي وعبد الله بن عمر وأبي هريرة وغيرهم كثير ..! إنه الزهد بالدنيا الذي تعلمه من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

زهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه

عرف أمير المؤمنين سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه بزهده الذي سارت بذكره الركبان، وكان ذلك من تاثير القرآن الكريم فيه، ومن معايشته لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن اعتقاده الجازم أن هذه الدنيا هي دار اختبار للإنسان

(1) الزهد للإمام أحمد بن حنبل ص111، حديث 669.

(2) رواه البخاري في كتابه التاريخ الصغير 101/1 بتحقيق محمود إبراهيم زايد الطبعة الأولى 1406/ دار المعرفة بيروت.

ليس إلا وأنّ الآخرة هي دار القرار، لذلك استهان بزخارف الحياة الدنيا كلها، بعـد أن جـاءت إليه بمباهجها ومغرياتها، فكان مثلا لكل حاكم صالح. وقد كـان ﷺ يـدعو إلى الزهـد بأقوالـه ويطبق ذلك بأفعاله، فمن أقواله الداعية إلى الزهد:

(طوبى للزاهدين في الدنيا والراغبين في الآخرة، أولئـك قـوم اتخـذوا أرض اللـــه بـساطا، وترابها فراشا، وماءها طيبا، والكتاب شعارا، والدعاء دثارا، ورفضوا الدنيا رفضا)(1).

وقوله:

(ارْتَحَلَتْ الدُّنْيَا مُدْبِرَةً، وَارْتَحَلَتْ الآخِرَةُ مُقْبِلَةً، وَلِكُـلٍّ وَاحِـدَةٍ مِـنْهُمَا بَنُـونَ، فَكُونُـوا مـن أَبْنَاءِ الآخِرَةِ ولا تَكُونُوا من أَبْنَاءِ الدُّنْيَا؛ فإن الْيَوْمَ عَمَلٌ ولا حِسَابَ وَغَدًا حِسَابٌ ولا عَمَلٌ)(2).

وقوله:

(يَا دُنْيَا يَا دُنْيَا أَبِي تَعَرَّضْت, أَمْ لِي تَشَوَّفْت, هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ, غُرِّي غَيْرِي, قَدْ بِنْتُـكِ ثَلاثًـا لا رَجْعَةَ لِي فِيك!, فَعُمُرُك قَصِيرٌ, وَعَيْشُك حَقِـيرٌ, وَخَطَـرُك كَبِـيرٌ, آهِ مِـنْ قِلَّـةِ الـزَّادِ وَبُعْـدِ الـسَّفَرِ وَوَحْشَةِ الطَّرِيقِ)(3).

---

(1) شعب الإيمان 372/7 تأليف: أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي (ت458)، تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول، الطبعة الأولى1410، دار الكتب العلمية بيروت.

(2) رواه البخاري في كتاب الرقاق (باب: الأمل وطوله) ص1581.

(3) مختارات من أدب العرب لأبي الحسن علي الحسني الندوي ص19-20، الطبعة الثانية في دار ابن كثير، نقلا عن كتاب (صفة الصفوة) لأبن الجوزي 196/1، دار الكتب العلمية بيروت.

وأما تطبيقه العملي للزهد، فهذه أمثلة على ذلك:

1- عن علي بن ربيعة الوالبي عن علي بن أبي طالب قال: جاءه ابن النباح فقال: يا أمير المؤمنين، امتلأ بيت مال المسلمين من صفراء وبيضاء. فقال اللـه أكبر! فقام متوكئا على ابن النباح حتى قام على بيت مال المسلمين فقال:

هذا جناي وخياره فيه وكل جان يده إلى فيه

يا ابن النباح عليّ بأشياع الكوفة. قال: فنودي في الناس فأعطى جميع ما في بيت مال المسلمين وهو يقول: يا صفراء ويا بيضاء غري غيري ها وها حتى ما بقي منه دينار ولا درهم، ثم أمره بنضحه وصلى فيه ركعتين(1).

وفي رواية أخرى لأبي نعيم من خبر مجمع التيمي:

(كان علي يكنس بيت المال ويصلي فيه يتخذه مسجدا؛ رجاء أن يشهد له يوم القيامة)(2).

ونلاحظ في هذا الخبر، أن سيدنا علياﷺ لمّا جاءه ابن النباح وأخبره بامتلاء بيت المال بالذهب والفضة، فرح بذلك من أجل التوسعة على المسلمين وقال: اللـه أكبر، وقامﷺ بتفريقه بين المسلمين، وخاطب الدنيا بقوله: (غري غيري)؛ لأن الدنيا حلوة خضرة، فيها من المغريات ما يأخذ بالألباب، فلا يستطيع أن يقف أمام مغرياتها إلا من ملأ اللـه قلبه

---

(1) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء تأليف: أبي نعيم أحمد بن عبد اللـه الأصبهاني (ت430) 81/1 الطبعة الرابعة 1405، دار الكتاب العربي بيروت.

(2) حلية الأولياء لأبي نعيم 81/1

بالإيمان الحق، ومن اجدر بذلك من أمير المؤمنين علي وأمثاله؟! لقد زهد بالـدنيا، ولم يُبـق في قلبه شيئا من حبها.

وتبدو الروعة في صورة من أجمل صورها حين قام وصلى ركعتين في بيت المال الـذي خـلا من ذلك المال؛ لعلَّ هاتين الركعتين تشهد بعدله يوم يقوم الناس لرب العالمين.

2- عن هرون بن عنترة عن أبيه قال: (دخلت على علي بن أبي طالب بالخورنق (موضـع بالكوفة) وهو يرعد تحت سمل قطيفة(أي قطيفة قديمة)؛ فقلت: يا أمـير المـؤمنين، إن اللــه قد جعل لك ولأهل بيتك في هـذا المـال، وأنـت تـصنع بنفـسك مـا تـصنع! فقـال: واللــه مـا أرزؤكم(أي ما أنقصكم) من مالكم شيئا، وإنها لقطيفتي التي خرجت بها مـن منـزلي -أو قـال من المدينة-)(1).

لقد كان باستطاعة أمير المؤمنين عـليﷺ، أن يـشتري لـه أحـسن وأفـضل الملابـس ليقـي نفسه من ذلك البرد القارس: فهو أمير المؤمنين، ويحق له ما يحق لغيره، ولكـن هيهـات! فقـد تغلغل الزهد في أعماق نفسه، فأيقن أنّ ما عند اللـه خير وأبقى، فلم يلتفـت إلى مـا يعانيـه؛ ليُعلِّم الدنيا كيف يكون الزهد.

3- عن عمر بـن قـيس: قيـل لعـليعليه السلام: لمَ ترقـع قميـصك؟ قـال: يخـشع

(1)حلية الأولياء لأبي نعيم 82/1، والبداية والنهاية لابن كثير 4/8، وثّقه وقابل مخطوطاته: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الطبعة الثانية 1426-2005، دار الكتب العلمية، بيروت.

القلب ويقتدي به المؤمن(1).

هذا الأسلوب يفصح عن حقيقة الزهد أولا، وعن اسلوب تربية الناس على الزهد ثانياً، لأنهﷺ كان في مقام القدوة، وترقيع القميص يبعد الإنسان عن الكبرياء.

وعن عبد الرحمن بن شريك عن جده عن علي بن أبي طالبﷺ أنه أتي بفالوذج (نوع من الحلوى) فوضع قدامه بين يديه فقال: (إنك طيب الريح، حسن اللون، طيب الطعم، لكن أكره أن أعوِّد نفسي ما لم تعتده)(2).

وعن مجمع بن سمعان التيمي قال: خرج علي بن أبي طالبﷺ بسيفه إلى السوق فقال: (من يشتري مني سيفي هذا؟ فلو كان عندي أربعة دراهم أشتري بها إزارا ما بعته)(3).

فلا نعجب إذن حين نقرأ عن الحسن بن صالح قوله: تذاكروا الزهاد عند عمر بن عبد العزيز فقال: (أزهد الناس في الدنيا علي بن أبي طالب)(4).

رضي اللـه عن الخلفاء الراشدين وعن الصحابة أجمعين، وجمعنا بهم في جنات النعيم!.

ولا يظنن أحد أن هذا الزهد كان خاصا بالخلفاء الراشدين وحدهم، بل

---

(1) الزهد للإمام أحمد بن حنبل 115/1

(2) حلية الأولياء لأبي نعيم 81/1.

(3) البداية والنهاية لابن كثير 4/8.

(4) البداية والنهاية 6/8.

هو سمة أكثر صحابة النبيﷺ، وهذه نماذج من زهد عدد قليل منهم:

زهد سعيد بن عامرﷺ

(عن مالك بن دينار قال: لما أتى عمرﷺ الشام، وطاف بكورها(1) قال: فنزل بحضرة حمص، فأمر أن يكتبوا له فقراءهم، قال: فرفع إليه الكتاب، فاذا فيه سعيد بن عامر بن حذيم أميرها، فقال: من سعيد بن عامر؟ قالوا: أميرنا، قال: أميركم؟ قالوا: نعم؛ فعجب عمر ثم قال: كيف يكون أميركم فقيرا، أين عطاؤه؟ أين رزقه؟ قالوا: يا أمير المؤمنين لا يمسك شيئا، قال: فبكى عمر ثم عمد إلى الف دينار فصرها، ثم بعث بها إليه وقال: أقرئوه مني السلام وقولوا بعث بهذه إليك أمير المؤمنين تستعين بها على حاجتك. قال: فجاء بها إليه الرسول فنظر فاذا هي دنانير، قال: فجعل يسترجع قال: تقول له امرأته ما شأنك يا فلان؟ أمات أمير المؤمنين؟ قال: بل أعظم من ذلك، قالت: فما شأنك؟ قال: الدنيا أتتني، الفتنة دخلت عليّ، قالت: فاصنع فيها ما شئت، قال: عندك عون؟ قالت: نعم؛ قال: فأخذ دُريعة فصر الدنانير فيها صرارا، ثم جعلها في مخلاة، ثم اعترض جيشا من جيوش المسلمين فأمضاها كلها)(2).

لقد كان سعيد في فقره سعيدا بحق، بل كان يعايش منتهى السعادة، إذ كان مقتديا برسول اللهﷺ في زهده، وهو يعلم ما أعدَّ الله من جزاء في عالم الخلود لمن يزهد في الدنيا، وينفق ماله في سبيل الله.

---

(1) بكورها: بمدنها

(2) صفة الصفوة لأبن الجوزي 664/1.

زهد أبي عبيدة عامر بن الجراح ﷺ

روى الإمام أحمد في كتابه الزهد قال:

(قدم عمر رحمة اللـه عليه الشام، فتلقاه عظماء أهل الأرض وأمراء الأجناد، فقال عمر: أين أخي؟ قالوا: من؟ قال: أبو عبيدة، قالوا: اتاك الان، قال: فجاء على ناقة مخطومة بحبل، فسلم عليه وسأله، ثم قال للناس: انصرفوا، فسار حتى أتى منزله فنزل عليه، فلم ير في بيته الا سيفه وترسه ورمحه، فقال له عمر: لو اتخذت متاعاً أو شيئاً؛ فقال أبو عبيدة: يا امير المؤمنين، إن هذا سيبلغنا المقيل)(1).

إنه الإيمان الحق الذي يجعل الإنسان يضحي بزهرة الحياة الدنيا من أجل الحصول على السعادة الأبدية يوم الدين وقد كان أمين هذه الأمة أبو عبيدة من خير من أنغرس الإيمان في قلبه؛ فادى الأمانة حقها، وزهد بمباهج الدنيا ومغرياتها، وقد بلّغه المتاع الضئيل الذي كان عليه المنزلة التي يستريح بها ويسعد، وذلك من أثر توجيهات النبيﷺ.

زهد عبد اللـه بن عمرﷺ

لما قال النبيﷺ لعبد اللـه بن عمر بن الخطاب: (كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل)(2)، صار بحق كأنه غريب أو عابر سبيل، والحياة

(1) رواه الإمام أحمد في كتاب الزهد، ص166، حديث 1030، والمصنف للحافظ عبد الرزاق الصنعاني 311/11 تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي الطبعة الثانية، المكتب الإسلامي.

(2) رواه البخاري في كتاب الرقاق ص 1580، حديث 6416.

التي يحياها هذا الصحابي خير دليل على ذلك. ولندع التابعي الجليل ميمون بن مهران يـصف لنا منزل ابن عمر فيقول:

(دخلت منزل ابن عمر، فما كان فيه ما يساوي طيلساني هذا)(1). والطيلسان: ضرب من الأوشحة يلبس على الكتف أو يحيط بالبدن، خالٍ عن التفصيل والخياطة.

وعن نافع (أن ابن عمر كان يمكث الشهر لا يذوق فيه مزعة لحم)(2).

(وعن هلال بن خباب عن قزعة قال: رأيت على ابن عمـر -رحمـه اللــه- ثيابـا خـشبة، فقيل أو خشنة فقلت: يا أبا عبد الرحمن، إني قد أتيتك بثوب لين مـما يـصنع بخراسـان فتقـر عيني ان أراه عليك؛ فان عليك ثيابا خشبة أو خشنة، قال أرنيه حتى انظر اليـه، قـال فلمـسه بيده وقال: احرير هو؟ قلت: لا انه من قطن، قال: إني أخـاف إن أنـا لبـسته اخـاف أن أكـون مختالا فخورا، والـلـه لا يحب كل مختال فخور)(3).

زهد عمير بن سعد

وهذا عمير بـن سـعد يوليـه عمـر بـن الخطـاب ولايـة (حمـص)، ويقـوم بـأداء وظيفتـه على خير ما يرام، ومكث عمير في حمص سنة ولم يأته خبره، فكتب إليـه عمـر أن يقبـل عليـه ويحمل ما جباه من الفيء (وأقبل راجـلا، فـدخل المدينـة وقـد شـحب واغـبرَّ وطـال شـعره، فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين! فقال: ما شأنك؟ قال: ألستُ صحيح البدن، معـي الـدنيا.

---

(1) كتاب الزهد للإمام أحمد بن حنبل، ص172، حديث 1055.
(2) كتاب الزهد للإمام أحمد بن حنبل، ص174، حديث1070.
(3) كتاب الزهد للإمام أحمد بن حنبل، ص 174-175، حديث 1073.

فظن عمر أنه جاء بمال، فقال: جئت تمشي؟ قال: نعم، قال: أما كان أحد يتبرع لك بدابة، قال: ما فعلوا ولا سألتهم. قال: بئس المسلمون! قال: يا عمر إن اللـه قد نهاك عن الغيبة، فقال: ما صنعت؟ قال: الذي جبيته وضعته مواضعه، ولو نالك منه شيء لأتيتك به. قال: جددوا لعمير عهدا قال: لا عملتُ لك ولا لأحد؛ قلت لنصراني: أخزاك اللـه...)(1).

وبعث عمر رسولا له بمائة دينار -وكان منزل عمير على أميال من المدينة- فانطلق الرسول فنزل عنده ضيفا ثلاثة أيام، وليس لهم إلا قرص شعير يطعمونه إياه ويبيتان طاويين، وفي اليوم الثالث قال عمير لرسول عمر: قد أجعتنا! فأخرجَ رسول عمر الدنانير فدفعها اليه فلم يقبلها وصاح: لا حاجة لي بها ردها عليه، فطلبت منه زوجته أن يأخذها ويقسمها بين الفقراء من المسلمين، فأخذها وقسمها بين أبناء الشهداء. ولمّا مات عمير قال عمر: وددت لو أن لي رجالا مثل عمير أستعين بهم في أعمال المسلمين.

وبعد:

فهذا جانب من جوانب الأثر الذي تركه رسول اللـهﷺ في صحابته الكرام، وهو ينبئ عن الروح العالية التي كان عليها تلاميذ النبي المعلم. لقد وصلوا إلى منزلة في الزهد هيهات أن يصلها أحد! وما أحوج الناس -وبخاصة في عصرنا هذا- إلى أن يستذكروا هذه النماذج؛ خشية أن

(1) سير أعلام النبلاء للحافظ الذهبي 282/3، اعتنى به: محمد بن عبادي بن عبد الحليم الطبعة الأولى، 1424-2003، مكتبة الصفا القاهرة.

تجرفهم المادية الطاغية أكثر وأكثر، فينساقوا خلفها، وينسوا حق الـلـه وحـق ديـنهم علـيهم. أقول هـذا؛ لأننـا نـرى مـن النـاس مـن يرتكـب المحرمـات، ويـسلك سـبيل الغـش والخديعـة والاحتيال والاحتكار والربا وأكل أموال الناس بالباطل من أجل جمع المال.!

إنها ذكرى، والذكرى تنفع المؤمنين، وعسى الـلـه أن ينفع بها.

الـلـهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا.

انفاق المال في سبيل اللـه

طبعت النفس البشرية على الشح، واللـه تعالى يقول:

(**قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾**) سورة الإسراء.

ويقول:

(**وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ**) سورة النساء/١٢٨.

ويقول النبيﷺ:

«لو كان لابن آدم واديان من مال لأبتغى ثالثا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب اللـه على من تاب»(1).

لذلك نرى الإنسان يحب الخير لنفسه فقط، ويضن به على الناس الآخرين. ولم يترك اللـه عباده تمزقهم الأنانية، فجعل لهم منهجاً يدفع من آمن به على الجود بالخير لعباد اللـه، وهذا الدافع: هو الإيمان باللـه الإيمان الحق، والإعتقاد باليوم الآخر الذي يحاسب اللـه فيه الناس على ما قدموا من عمل. فإذا لامَسَ الإيمان شغاف القلوب، فسرعان ما يغير الأثرة إلى إيثار؛ إذ يعتقد الإنسان صاحب الإيمان الحق -عند ذاك- أن هناك ما هو أفضل من المال، وأفضل من الجاه، وأفضل من السلطة، وأفضل من الإعتبارات الأخرى. إنه الإيمان الحق الذي إذا انغرس في القلب، خلّص

(1) رواه البخاري في كتاب الرقاق (باب: ما يتقى من فتنة المال) ص1584 حديث 6436، ومسلم في كتاب الزكاة (باب: لو أن لابن آدم واديين لأبتغى ثالثا) 725/2، حديث 1048.

صاحبه من المطامع الصغيرة والإهتمامات التافهة التي ترتكس بالإنسان في حمأة الأرض، وتخلصه من الأهداف التي لا وزن لها في ميزان العقلاء، فيحلق -عند ذاك- في آفاق واسعة، حين يؤمن بالدار الآخرة التي يحاسب الله فيها الناس على ما قدموا من عمل. وهذا المنهج هو الذي سلكه القرآن الحكيم، وسلكه النبيﷺ من أجل معالجة الشح في النفس البشرية، والترغيب في إنفاق المال في سبيل الله.

وحين نقرأ سيرة النبيﷺ نجد أن أكثر الناس تأثرا بتلاوة آيات القران هو من أُنزل عليه القرآن رسول اللهﷺ فكان يصلي ولصدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء، وذلك من شدة تأثره بكل آية من آياته. وقد ثبت بما لا يقبل الشك أن أي إنسان كان لم يمتثل ويطبق ما تدعو إليه آيات القرآن كما كان يمتثلها ويطبقها رسول اللهﷺ، ففي أمر الإنفاق في سبيل الله نقرأ قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٥٤﴾) سورة البقرة.

وقوله:

(مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ الله كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَالله يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَالله وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ الله ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾) سورة البقرة.

وقوله:

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ) سورة التوبة/١٠٣.

وقوله:

(وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللـه يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللـه بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾) سورة البقرة.

وقوله:

(لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللـه بِهِ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾) سورة آل عمران.

وقوله:

(آمِنُوا بِاللـه وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾)

سورة الحديد.

وقوله:

(وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللـه وَلِلـه مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) سورة الحديد/١٠.

واضح من هذه الآيات الكريمات: الدعوة إلى إنفاق المال في سبيل اللـه، وأن المنفق يضاعف اللـه له أضعافا كثيرة، ويجزيه عليه الجزاء

الأوفى يوم الدين، وإن الإنفاق في سبيل اللـه يطهر النفس ويزكيها فيسهل قيادها عند ذاك، وان المنزلة العالية عند اللـه لا ينالها إلا الذين أنفقوا مما يحبون من المال، وأن الملكية في هذه الحياة ليست بملكية حقيقية، ولكنها ملكية انتفاع فقط إذ الملكية الحقيقية للـه وحده، والناس مستخلفون فيها، ولا ريب أن المستخلَف لا يجوز له أن يعمل إلا على وفق ما يريد المستخلِف.

ويقرأ النبي الكريم هذه الآيات وغيرها، فيدعو صحابته إلى الإنفاق في سبيل اللـه. وقبل أن يدعوهم اليه كان صلوات اللـه وسلامه عليه المثل الأعلى في إنفاق المال -كما ذكرنا-: فكان ينفق إنفاق من لا يخشى الفقر، وقد اتخذ ذلك الترغيب من النبيﷺ صوراً عدة، منها قوله ﷺ:

«إن الصدقة تطفيء غضب الرب، وتدفع ميتة السوء»(1).

وقوله:

« ما من يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فيه إلا مَلَكَانِ يَنزِلانِ فيقول أَحَدُهُمَا اللـهم أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا وَيَقُولُ الآخَرُ اللـهم أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا»(2).

وقوله:

«لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه اللـه القرآن، فهو يتلوه آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه اللـه مالا فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار» (3).

(1) رواه الترمذي في السنن (باب: ما جاء في فضل الصدقة)، ص167، حديث 664.

(2) رواه البخاري في كتاب الزكاة (باب: مثل المتصدق والبخيل)، ص402، حديث 1442، ومسلم في كتاب الزكاة (باب: في المنفق والممسك) حديث 1010.

(3) رواه البخاري في كتاب التوحيد (باب: قول النبيﷺ: [رجل آتاه اللـه القرآن..])، ومسلم في كتاب صلاة المسافر وقصرها (باب: فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه) 558/1، رقم 815.

ومع ترغيبه ﷺ بالانفاق في سبيل اللـه، جاء تحذيره من الشح فقال:

«اتَّقُوا الظُّلْمَ فإن الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يوم الْقِيَامَةِ وَاتَّقُوا الشُّحَّ فإن الشُّحَّ أَهْلَكَ من كان قَبْلَكُمْ حَمَلَهُمْ على أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ»(1).

وقال:

«لا يَجْتَمِعُ غُبَارٌ فِي سَبِيلِ اللـه وَدُخَانُ جَهَنَّمَ فِي جَوْفِ عَبْدٍ وَلا يَجْتَمِعُ الـشُّحُّ وَالإِيمَـانُ فِي جَوْفِ عَبْدٍ »(2).

وقال:

«شر ما في الرجل شحٌّ هالع وجبن خالع»(3).

والرسولﷺ حين تحدث بهذه الأحاديث الداعية الى الإنفاق في سبيل اللـه، كان قد بلغ القمة في تطبيقه لما يقول: فهو يعطي المال لمن سأله ولمن لم يسأله، لا يدخر منه شيئا. ولندع الصحابي الجليل عبد اللـه بن عباس رضي الله عنهيصف لنا جود رسول اللـهﷺ فيقول:

(كان رسول اللـهﷺ أَجْوَدَ الناس وكان أَجْوَد ما يَكُونُ فِي رَمَضَانَ حين يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ وكان يَلْقَاهُ جبريل في كل لَيْلَةٍ من رَمَضَانَ فَيُدَارِسُهُ الْقُرْآنَ

(1) رواه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب (باب: تحريم الظلم) 1996/4، حديث 2578.

(2) رواه النسائي في كتاب الجهاد (باب: فضل من عمل في سبيل اللـه على قدمه) 11/6، حديث 3112

(3) رواه ابن حبان، ينظر الإحسان بترتيب حديث ابن حبان 103/5، حديث 3239، قدم له وضبط نصه : كمال يوسف الحوت، الطبعة الثانية 1417-1996، دار الكتب العلمية بيروت.

فَلَرَسُولُ اللـه ﷺ حين يلقاه جبريل أَجْوَدُ بِالْخَيْرِ من الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ)(1).

وحين ننظر في سنن النبـي ﷺ القوليـة والفعليـة نجـد تـصريحه ﷺ بالـدعوة إلى الجـود والندى والكرم. روى أبو ذر الغفاري هذا الحديث فقال:

«كنت أَمْشِي مع النبي ﷺ في حَرَّةِ الْمَدِينَةِ فَاسْتَقْبَلَنَا أُحُدٌ فقال يا أَبَا ذَرٍّ: قلـت: لَبَّيْـكَ يـا رَسُولَ اللـه، قال: ما يَسُرُّنِي أَنَّ عِنْدِي مِثْلَ أُحُدٍ هذا ذَهَبًا تَمْضِي عَلَيَّ ثَالِثَةٌ وَعِنْـدِي منـه دِينَـارٌ، إلا شيئا أَرْصُدُهُ لِدَيْنٍ إلا أَنْ أَقُولَ بِهِ في عِبَادِ اللـه هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا عن يَمِينِهِ وَعَنْ شِـمَالِهِ وَمِنْ خَلْفِهِ»(2).

وعن سهل بن سعدﷺ قال:

« كانت عِنْدَ رسول اللـهﷺ سَبْعَةُ دَنَانِيرَ وَضَعَهَا عِنْدَ عَائِشَةَ رضي اللـه عنها فلـما كان عِنْدَ مَرَضِهِ قال: يا عَائِشَةُ اذْهَبِي بِالذَّهَبِ إلى عَلِيٍّ ثُمَّ أُغْمِيَ عليـه، وَشَـغَلَ عَائِـشَةَ ما بِهِ حتى قال ذلك مِرَارا، كُلَّ ذلك يُغْمَى عـلى رسـول اللــهﷺ ويَـشْغَلُ عَائِـشَةَ رضي اللـه عنها ما بِهِ، فَبَعَثَ بِهِ إلى عَلِيٍّ ﷺ فَتَصَدَّقَ بها وَأَمْسَى رسول اللـهﷺ لَيْلَةَ الإثنـين في حَدِيدِ الْمَوْتِ، فَأَرْسَلَتْ عَائِشَةُ رضي اللــه عنهـا بِمِـصْباحٍ لهـا إلى امْـرَأَةٍ مـن نِـسَائِهَا فقالت: اهْدِي لنا في مِصْباحِنَا من عُكَكِ الـسَّمْنِ فـإن رَسُـولَ اللــهﷺ أَمْـسَى في حَدِيـدِ

(1) رواه البخاري في كتاب بدء الوحي (باب: 5) ص67، حديث 6، ومسلم في كتاب الفضائل (باب: كان النبيﷺ أجود الناس) ص1020، حديث 6009.

(2) رواه البخاري في كتاب الرقاق (باب: ما يسرني أن عندي مثل أحد ذهبا)، ص1586. حديث 6444.

الْمَوْتِ»(1).

وعن أَنَسٍ قال: «ما سُئِلَ رسول اللـهﷺ على الإِسلامِ شيئا إلا أَعْطَاهُ قال فَجَاءَهُ رَجُلٌ فَأَعْطَاهُ غَنَمًا بين جَبَلَيْنِ فَرَجَعَ إلى قَوْمِهِ فقال يا قَوْمِ أَسْلِمُوا فإن مُحَمَّدًا يُعْطِي عَطَاءً لا يَخْشَى الْفَاقَةَ قال أنس: إن الرجل ليسلم ما يريد إلا الدنيا، فما يسلم حتى يكون الإسلام أحب اليه من الدنيا وما عليها»(2).

«وعن جبير بن مطعمﷺ أَنَّهُ بَيْنَا هو مع رسول اللـهﷺ وَمَعَهُ الناس مُقْبِلاً من حُنَيْنٍ عَلِقَتْ رَسُولَ اللـه ﷺ الأَعْرَابُ يَسْأَلُونَهُ حتى اضْطَرُّوهُ إلى سَمُرَةٍ فَخَطِفَتْ رِدَاءَهُ فَوَقَفَ رسول اللـه ﷺ فقال: أَعْطُونِي رِدَائِي فَلَوْ كان عَدَدُ هذه الْعِضَاهِ نَعَماً لَقَسَمْتُهُ بَيْنَكُمْ ثُمَّ لا تَجِدُونِي بَخِيلاً ولا كَذُوبًا ولا جَبَانًا»(3).

وكثيرا ما كان النبيﷺيذكّر صحابته باليوم الآخر، ليسارعوا إلى طاعة اللـه وعمل البر؛ لأن الإنسان لا يعلم متى يأتيه أجله. فعن ابن مسعودﷺ قال:

«دخل النبيﷺ على بلال وعنده صبر من تمر فقال: ما هذا يا بلال؟

(1) رواه الطبراني في المعجم الكبير ورواته ثقات محتج بهم في الصحيح 198/6، حديث 5990.

(2) رواه مسلم في كتاب الفضائل (باب: ما سئل رسول اللـهﷺشيئا قط فقال لا) 1806/4، حديث 2312.

(3) رواه البخاري في كتاب فرض الخمس (باب: ما كان النبي ﷺيعطي المؤلفة قلوبهم وغيرهم من الخمس ونحوه) حديث ص807، 3148.

قال: أعد ذلك لأضيافك قال: أما تخشى أن يكون له دخان في نار جهنم، أنفق يا بلال ولا تخش من ذي العرش إقلالا» (1).

كانت هذه الأحاديث وغيرها قد أثرت بصحابة النبيﷺ؛ فاندفعوا ينفقون المال في سبيل الـلـه إنفاقاً، هيهات أن نجد له نظيرا أو شبيها في أي مجتمـع كـان مـن المجتمعـات قـديما أو حديثا. ولم يكن انفاق المال خاصاً بالاغنياء من ذوي اليسار والثروات الكبرى، بل حتى الفقـراء منهم كان ينفق ما يستطيع إنفاقه ولو كان صاحب النفقـة في حاجـة الى نفقتـه؛ لـذلك نجـد القران الكريم قد أثنى على الأنصار أيما ثناء فقال تعالى:

(وَالَّـذِينَ تَبَـوَّءُوا الـدَّارَ وَالْإِيمَـانَ مِـنْ قَـبْلِهِمْ يُحِبُّـونَ مَـنْ هَـاجَرَ إِلَـيْهِمْ وَلَا يَجِـدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْـسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾) سورة الحشر.

وهذه الآية الكريمة تنص على هذه الصورة الوضيئة المشرقة لإيثار الأنصار؛ سـخاءا وبـذلا وسماحة، فقد آثروا المهاجرين على أنفسهم ولو كـانوا هـم في حاجـة لما يبـذلون. إنـه القمـة السامقة في الخلق والنبل(2).

ولقد ترك الإسلام الباب مفتوحا لمن أراد أن ينفق في سبيل الـلـه، حتى لو أنفق ما يعادل شق تمرة، فلا يضيع الـلـه إنفاقه.

(1) رواه البزار باسناد حسن 348/5-349، حديث 1978 تحقيق الدكتور: محفوظ الرحمن ، الطبعة الأولى 1409، مؤسسة علوم القرآن، ومكتبة العلوم والحكم.

(2) لزيادة الإطلاع ينظر: في تفسير الآية كتابنا: صور من صحابة رسول الـلـه في القرآن والسنة ص 69-76، الطبعة الأولى 1431-2010، مطبعة أنوار دجلة، بغداد.

ويقرأ صحابة النبي في القرآن دعوة اللـه عباده المؤمنين إلى إنفاق المال في سبيل اللـه في أساليب عديدة، ويسمعون من النبي دعوته لـذلك -وهـم في طبيعـتهم أهـل جـود وكـرم- وينظـرون إلى التطبيـق العمـلي لرسـول اللـهﷺفي الـسماحة والنـدى، فيـسارعون إلى البـذل والسخاء، ويشهد المجتمع الإسلامي الأول مـن بـذل المعـروف حتـى صار مـضرب الأمثـال في المجتمعات الأخرى، وهذه أمثلة قليلة على ذلك:

1- **طلحة بن عبيد اللـه**ﷺ(1)

قالت سعدى بنت عوف المرية زوجة طلحة بن عبيد اللـه (دخلـت عـلى طلحـة ذات يوم فقلت: ما لي أراك حزيناً أرابك شيء من أهلك فنعتب(أي نترضاك) قال: نعم حليلـة المـرء أنت؛ ولكن عندي مال قد أهمني أو غمني قالت: اقسمه؛ فـدعا جاريتـه فقـال: ادخـلي عـليَّ قومي، فأخذ يقسمه. فسألها (راوي الحديث) كم كان المال؟ فقالت: أربعمائة ألف)(2).

والمتأمل في هذه الواقعة يرى البذل والسخاء قـد وصـل قمتـه لـدى هـذا الصحابي، حتى صار كثرة المال لديـه حزنـا عليـه، ولم ينجـل الغـم والحـزن عـن نفـسه إلا بعـد أن قـام بتفريقـه بـين قومـه.! فأيـة منزلـة في بـذل المـال

---

(1) هو طلحة بن عبيد اللـه بن عثمان بن عمر القرشي التيمي: صحابي جليل، وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة. أسلم على يد أبي بكر الصديق، فكان من السابقين إلى الإنضواء تحت راية الإسلام، وقد أوذي في سبيل اللـه، وهاجر إلى المدينة المنورة، وكان تاجرا من كبار التجار، وذا ثروة واسعة، ويضرب به المثل بسماحته وإنفاقه المال في سبيل اللـه.

(2) الطبقات الكبرى لإبن سعد 201/3 طبعة الخانجي.

وصل هذا الصحابي الجليل؟!

كما تدل هذه الواقعة على التربية العالية في البذل والسخاء التي تربت عليها الصحابيات، فهي تعين زوجها على الجود والندى.

وعن الحسن البصري (أن طلحة بن عبيد الله باع أرضا له من عثمان بن عفان بسبعمائة ألف، فحملها إليه، فلما جاء بها قال: إن رجلا تبيت هذه عنده في بيته لا يدري ما يطرقه من أمر الله لغرير بالله! فأرسل رسله في سكك المدينة يوزعها حتى أسحر وما عنده منها درهم)(1).

تدل هذه الرواية على حقيقة اعتقاده﵁ باليوم الآخر، وأن الموت أقرب إلى الانسان من شراك نعله، فهو يخشى أن يموت وفي بيته هذا المال؛ لذلك ظل ساهرا الليل، ولم تغمض له عين حتى أنفق ذلك المال؛ لأنه كان يعتقد أن متاع الدنيا –مهما كثر- فهو قليل، وأن ما عند الله خير وأبقى.

وعن قبيصة بن جابر قال:

(ما رأيت أحدا أعطى لجزيل مال من غير مسألة من طلحة بن عبيد الله)(2) وهذا من أعلى مستويات البذل في سبيل الله. فهو لا ينتظر من الناس أن يسألوه ليعطيهم، بل كان يبادرهم بالعطاء من غير أن يسألوه، وقد كان بهذا مقتديا برسول الله ﷺ فكان يعطي الناس من غير أن يسألوه.

---

(1) الطبقات الكبرى لإبن سعد 3/201-202 طبعة الخانجي.

(2) الطبقات الكبرى لإبن سعد 3/202، طبعة الخانجي.

وقال الذهبي:

(أتى طلحة مال من حضرموت سبع مائة ألف، فبات ليلته يتململ فقالت له زوجته: مالك؟ قال: تفكرت منذ الليلة فقلت: ما ظن رجل بربه يبيت وهذا المال في بيته؟ قالت: فأين انت عن بعض أخلائك، فإذا اصبحت فادع بجفان وقصاع فقسِّمه، فقال لها: رحمك الله إنك موفقة بنت موفق، وهي أم كلثوم بنت الصديق، فلما أصبح دعا بجفان فقَسَّمها بين المهاجرين والأنصار فبعث إلى علي منها بجفنة فقالت له زوجته: أبا محمد، أما كان لنا في هذا المال من نصيب؟ قال: فأين كنت منذ اليوم؟ فشأنك بما بقي. قالت: فكانت صرة فيها نحو ألف درهم)(1).

(وجاء أعرابي إلى طلحة يسأله، فتقرب إليه برحم فقال: إن هذه لرحم ما سألني بها أحد قبلك، إن لي أرضا قد أعطاني بها عثمان ثلاث مئة ألف، فاقبضها، وإن شئت بعتها من عثمان ودفعت إليك الثمن، فقال: الثمن؛ فأعطاه)(2).

فلا نعجب إذا علمنا ما حازه من ألقاب وأوصاف من رسول اللهﷺ، إذ سماه (طلحة الخير) و (طلحة الفياض) و (طلحة الجود)؛ وذلك لجوده وإسراعه في فعل الخير. وهذا أثر من آثار رسول اللهﷺ في تربيته لأصحابه، وينطبق عليه ما قاله بعض الشعراء يمتدح واحدا من الأجواد:

تعوَّد بسط الكف حتى لو انه ثناها لقبض لم تجبه أنامله

(1) سير أعلام النبلاء 30/1-31.

(2) سير أعلام النبلاء 30/1.

تـــــراه إذا مــــــا جئتـــــه مـــــتهللا	كأنـــك تعطيـــه الـــذي أنـــت ســـائله
ولـــو لم يكـــن في كفـــه غـــير روحـــه	لجـــاد بهـــا فليتـــق اللــــه ســـائله
هـــو البحـــر مـــن أي النـــواحي أتيتـــه	فلجتـــه المعـــروف والجـــود ســـاحله

عبد الرحمن بن عوفﷺ(1)

عن الزهري: تصدق عبد الرحمن بن عوف على عهد رسـول اللــه ﷺ بـشطر مالـه، ثـم تصدق بعد بأربعين ألف دينار، ثم حمل عـلى خمـسمائة فـرس في سـبيل اللــه، وخمـسمائة راحلة، وكان أكثر ماله من التجارة(2).

وعن المسور بن مخرمةﷺ قال:

(باع عبد الرحمن بن عوف أرضا له من عثمان بأربعين ألف دينار، فقسم ذلك المـال في بني زهرة، وفقراء المسلمين، وأمهات المؤمنين، وبعث إلى عائـشة معـي بمـال مـن ذلـك المـال؛ فقالت: عائشة أما إني سمعت رسول اللـه ﷺ يقول: «**لن يحنو عليكم بعدي إلا الصالحون**»

---

(1) هو عبد الرحمن بن عوف بن عبد عوف بن الحارث القرشي الزهري: صحابي جليل، وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة، ومن السابقين إلى الإنضواء تحت لواء الإسلام، أسلم على يد أبي بكر الصديق قبل أن يدخل النبيﷺدار الأرقم، وهاجر الهجرتين إلى الحبشة ثمَّ إلى المدينة، وشهد بدرا وسائر الغزوات، وآخى النبي بينه وبين سعد بن الربيع في المدينة، وقد استخلفه عمر بن الخطاب سنة ولي الخلافة على الحج، وأثنى عليه فقال: (عبد الرحمن سيد من سادات المسلمين) الإصابة 348/4، وكان آية من آيات اللـه بالسماحة والندى والجود والإنفاق في سبيل اللـه. مات سنة إحدى وثلاثين، وقيل اثنتين وثلاثين، ودفن بالبقيع.

(2) الإصابة في تمييز الصحابة 4/ 347، والحلية لأبي نعيم 99/1

سقا اللـه ابن عوف من سلسبيل الجنة)(1).

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللـهﷺ:

«خيركم خيركم لأهلي من بعدي. قال: فباع عبـد الـرحمن بـن عـوف حديقـة باربعمائـة الف فقسمها في أزواج النبيﷺ»(2).

وأوصى عبد الرحمن بن عوف لمن شهد بدرا باربعمائة دينار، فكانوا مائة رجل(3).

تدل هذه الروايات -وغيرها كثير- على الروح العالية التي كان يتمتع بها هـذا الـصحابي: فقد أنفق ما أنفق من ماله في عهد رسول اللـهﷺ وبعد مماته -أيضا- ولم ينسَ أزواج النبـي، فكان يغدق المال عليهن بعد وفاته صلوات اللـه وسلامه عليه، ولم ينسَ –أيضا- إخوانه ممـن شهدوا غزوة بدر فكان يصلهم، ونعم المال الصالح للرجل الصالح.!

رضي اللـه عن عبد الرحمن بن عوف، فقد صـحب النبـي فأحـسن الـصحبة، ونـال كـل شرف وفخر حين عدّه النبيﷺ من العشرة المبشرين بالجنة.!.

(1) حلية الأولياء 98/1-99.

(2) أخرجه ابن ابي عاصم في السنة 616/2 تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني حديث 1414، الطبعة الأولى،1400، المكتب الإسلامي بيروت.

(3) التاريخ الكبير للإمام البخاري 167/1، حديث 499، تحقيق: السيد هاشم الندوي، دار الفكر، لبنان.

عائشة أم المؤمنين رضي اللـه عنها(1)

عن أم ذرّة – وكانت تغشى عائشة- قالت:

(بعث إليها ابن الزبير بمال في غرارتين، قالت: أراه ثمانين ومائة ألف، فدعت بطبق وهي يومئذ صائمة، فجلست تقسمه بين الناس، فأمست وما عندها من ذلك درهم. فلما أمست قالت: يا جارية، هلمي فطري، فجاءتها بخبز وزيت فقالت لها أم ذرة: أما استطعت مما قسمت اليوم أن تشتري لنا بدرهم لحما نفطر عليه؟ فقالت: لاتعنفيني؛ لو كنت ذكرتني لفعلت)(2).

وعن عروة بن الزبير قال: (لقد رأيت عائشة تقسم سبعين الفا وهي تُرقِّع درعها)(3).

وقال ابن الزبير : (ما رأيت امرأة قط أجود من عائشة وأسماء، وجودهما مختلف، أما عائشة، فكانت تجمع الشيء إلى الشيء، حتى إذا اجتمع عندها وضعته مواضعه، وأما أسماء فكانت لا تدخر شيئا لغدٍ)(4).

---

(1) هي عائشة بنت أبي بكر الصديق بن أبي قحافة (عثمان بن عمر) القرشية التيمية، زوج النبيﷺ، لم ينكح بكرا غيرها، عاشت في بيت النبوة ثمانية أعوام وخمسة أشهر، وكانت أفقه وأعلم الناس في عصرها، روت عن النبيﷺ 2210 من الأحاديث، وكانت على دراية بعلل الأحكام أثنى عليها الصحابة والتابعون، فقال أبو موسى الأشعري: (ما أشكل علينا أصحاب رسول اللـهﷺ حديث قط فسألنا عائشة إلا وجدنا عندها منه علما) رواه الترمذي، تحفة الأحوذي 354/10، حديث 3892.

(2) صفة الصفوة لأبن الجوزي 21/2-22.

(3) صفة الصفوة 22/2.

(4) سير أعلام النبلاء 292/2.

وبلغ الإمام مالك عن عائشة زوج النبيﷺ: (ان مِـسْكِينًا سَـأَلَهَا وَهِـيَ صَـائِمَةٌ، وَلَـيْسَ فِي بَيْتِهَا الا رَغِيفٌ؛ فقالت لِمَوْلاَةٍ لها: أَعْطِيهِ إِيَّاهُ. فقالت: ليس لَـكِ مـا تُفْطِـرِينَ عليـه. فقالـت: أَعْطِيهِ إِيَّاهُ. قالت: فَفَعَلْتُ. قالت: فلما أَمْسَيْنَا أَهْدَى لنا أَهْلُ بَيْتٍ أو إِنْسَانٌ ما كان يهدي لنا شَاةً وَكَفَنَهَا، فَدَعَتْنِي عَائِشَةُ فقالت: كُلِي من هذا، هذا خَيْرٌ من قُرْصِكِ)(1). وهذه فضيلة من فضائل أم المؤمنين عائشة، تُقبل عليها الدنيا، وتنهال عليهـا الأمـوال مـن هنـا وهنـاك، فتقـوم بتوزيعها على المستحقين لها لا تدخر منها أي شيء كان، إذ كانت زاهدة بالـدنيا غـير متطلعـة لشيء من مباهجها ، وقد آثرت أن تعيش بعد مـوت النبـيﷺكـما عاشـت في عهـده: لا تأكـل الطيب من الطعام، ولا تلبس الجديد من الثياب، ولا تهتم بأمر كاهتمامها بتوزيـع مـا يردهـا من أموال إلى المستحقين لها. وفوق ذلك، فكانت تؤثر السائل بـالرغيف الواحـد الـذي أعدتـه لفطرها! فرضي اللـه عنك يا أم المؤمنين.!

عبد اللـه بن عمررضي الله عنه(2)

كـان لعبـد اللـــه بـن عمـر غـلام (رقيـق) فكاتبـه ابـن عمـر،-أي تعهـد لـه بعتقـه مـن الـرق- إذا دفـع إليـه أربعـين الـف درهـم. فخـرج إلى الكوفـة فكـان

(1) الموطأ للإمام مالك –رواية يحيى بن يحيى الليثي– 596/2.

(2) هو عبد اللـه بن عمر بن الخطاب بن نفيل القرشي العدوي. ولد سنة ثلاث من البعثة النبوية، وهاجر إلى المدينة وعمره عشر سنين. وعرض على النبيﷺ يوم بدر فاستصغره، ثم بأحد فاستصغره -أيضا- وسمح له بالقتال يوم الخندق وعمره خمسة عشر سنة. وقد عرف بالصلاح منذ نعومة أظفاره، حتى قال سعيد بن المسيِّب: (لو شهدت لأحد من أهل الجنة لشهدت لأبن عمر) الإصابة 184/4 ، توفي رضي الله عنه سنة أربع وثمانين. ينظر: الإصابة 181/4.

يعمل على حُمُر له، حتى جمع من عمله خمسة عشر ألفا، فجاء إنسان فقال: أمجنون أنت؟ أنت ها هنا تعذب نفسك، وابن عمر يشتري الرقيق يمينا وشمالا ثم يعتقهم، ارجع إليه فقل: عجزت. فجاء الغلام بصحيفته التي تعاقد فيها إلى ابن عمر وقال له: يا أبا عبد الرحمن، قد عجزت، وهذه صحيفتي فامحها. فقال: لا، امحها أنت إن شئت، فمحاها، ففاضت عينا عبد الله وقال: اذهب فأنت حر. قال أصلحك الله، أحسن إلى ابنيَّ. قال: هما حران. قال: أصلحك الله، أحسن إلى أُمّي ولديّ. قال: هما حُرتان(1).

وكان لابن عمر -ايضا- غلام اسمه (نافع)،وقد صار -فيما بعد- من أئمة التابعين، وقد أراد ابن جعفر أن يشتري منه نافعا بعشرة الآف درهم أو بألف دينار ذهبا، فدخل عبد الله على زوجته صفية بنت عبيد وقال لها: أعطاني ابن جعفر بنافع عشرة آلاف درهم أو الف دينار؛ فقالت: يا أبا عبد الرحمن، فماذا تنتظر أن تبيع؟! قال: فهلا ما هو خير من ذلك؟ هو لوجه الله ﷻ(2).

وقال نافع: (إن كان ابن عمر ليقسم في المجلس الواحد ثلاثين ألفا، ثم يأتي عليه شهر ما يأكل فيه مزعة لحم)(3).

وقال نافع: (ما مات ابن عمر حتى أعتق الف إنسان أو زاد)(4).

---

(1) سير أعلام النبلاء 217/3.

(2) كتاب الزهد للإمام أحمد بن حنبل ص 175-176 وسير أعلام النبلاء 217/3.

(3) حلية الأولياء لأبي نعيم 296/1.

(4) سير أعلام النبلاء 218/3.

وقال نافع: (مرض ابن عمر فاشتهى عنبا أول ما جاء، فأرسلت امرأته بدرهم فاشترت به عنقودا، فاتبع الرسول سائل، فلما دخل قال السائل: السائل. فقال ابن عمر: أعطوه إياه. ثم بعثت بدرهم آخر، قال فاتبعه السائل. فلما دخل قال السائل: السائل. فقال ابن عمر: أعطوه إياه، فأعطوه، وأرسلت صفية (زوجة ابن عمر) إلى السائل تقول: والله لئن عدت لا تصيب مني خيرا، ثم أرسلت بدرهم آخر فاشترت به)(1).

بين أبي عبيدة ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما

وهذه صورة مشرقة اخرى تفصح عما كان عليه الصحابة من البذل والسخاء وحب انفاق المال في سبيل الله، يمثلها صحابيان اثنان هما: أبو عبيدة عامر بن الجراح، ومعاذ بن جبل -رضي الله عنهما- فقد أخذ عمر بن الخطاب أربعمائة دينار فجعلها في صرة فقال للغلام: اذهب بها إلى أبي عبيدة بن الجراح، ثم تلبث ساعة في البيت حتى تنظر ما يصنع؟ فذهب بها الغلام فقال: يقول لك أمير المؤمنين: اجعل هذه في بعض حاجتك؛ فقال: وصله الله ورحمه! ثم قال: تعالي يا جارية، اذهبي بهذه السبعة إلى فلان، وبهذه الخمسة إلى فلان، وبهذه الخمسة إلى فلان، حتى أنفدها. فرجع الغلام إلى عمر رضي الله تعالى عنه وأخبره، فوجده قد أعد مثلها لمعاذ بن جبل فقال: اذهب بها إلى معاذ وتَلَهَّ في البيت ساعة حتى تنظر ما يصنع؟ فذهب بها إليه فقال: يقول لك أمير المؤمنين: اجعل هذه في بعض حاجتك. فقال: رحمه الله ووصله! تعالي يا جارية، اذهبي

(1) سير أعلام النبلاء 220/3.

إلى بيت فلان بكذا، واذهبي إلى بيت فلان بكذا، فاطلعت امرأة معاذ فقالت: ونحن –والـلـه- مساكين فأعطنا -ولم يبق في الخرقة إلا ديناران- فدحا بهما إليها، ورجع الغلام إلى عمر فأخبره؛ فسرَّ بذلك وقال: إنهم أخوة بعضهم من بعض)(1).

وبعد

فهذا هو منهج صحابة النبيﷺ في إنفاق المال، فقد حققوا فيه معنى الأخوة الحقيقية التي ذكرها الـلـه في قرآنه فقال تعالى: (**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**)سورة الحجرات/١٠. وذكرها رسول الـلـهﷺ فقال: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»(2).

وقد فهم هذه الحقيقة صحابة النبي، فكان الواحد منهم أسعد ما يكون حين يمد لإخوته يد العون بما يمتلكه ليغنيهم؛ لذلك كان المجتمع الإسلامي الأول مجتمعا فريدا في كل جانب من جوانب الحياة. فلم تكن الدنيا لدى الواحد منهم إلا جسرا للآخرة؛ إذ النعيم نعيمها والخير خيرها.

الـلـهم حبب الينا الإنفاق في سبيلك، واجعلْ ما عندك أحب الينا مما عندنا، فنحن نؤمن بقولك الكريم: (**مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ الـلـه بَاقٍ**) سورة النحل/٩٦.

---

(1) حلية الأولياء 237/1.

(2) رواه مسلم في كتاب البر والصلة (باب: تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم) حديث 2586، 1999/4.

الجهاد في سبيل اللـه

مقدمة

إذا كان المسلم قد وجب عليه أن يربي نفسه على الخلق القويم، ويهذبها بالصلاة والصيام وقيام الليل وذكر الموت، ويزكيها بإنفاق ماله في سبيل اللـه، وإصلاح مجتمعه حسب قدرته بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإنّ هناك واجبا آخر عليه هو أصل أصيل في الإسلام: إنّه واجب الجهاد في سبيل اللـه بشروطه وأركانه، وقد ورد النص بوجوبه في القرآن في آيات عديدة، نذكر قسما منها فيما بعد إن شاء اللـه.!

تعريف الجهاد في اللغة والاصطلاح

أمّا في اللغة، فالجهاد مصدر جاهد، وهو من الجهد –بفتح الجيم وضمها- أي الطاقة والمشقة، وقيل: الجهد –بفتح الجيم-: المشقة، وبالضم الطاقة(1).

وفي الاصطلاح: قتال المسلمين الكفار من غير المعاهدين، بعد دعوتهم إلى الإسلام وإبائهم؛ إعلاءا لكلمة اللـه(2).

يتبين من هذين التعريفين اللغوي والاصطلاحي، أنّ المراد بالجهاد هو استفراغ الوسع في قتال العدو، ولا يكون إلا في سبيل اللـه؛ لتحقيق الخير للأفراد والمجتمعات.

---

(1) لسان العرب لابن منظور، تاج العروس للزبيدي، مادة جهد.

(2) فتح القدير للكمال بن الهمام 277/4، وشرح الزرقاني على الموطأ 287/2.

ولقد كان للجهاد في سبيل الـلـه أثره الواضح في إدخال أمم وشعوب في هذا الـدين، كـان قد حيل بينها وبينه من قبل، وذلك باضـطهاد وتعـذيب كـل مـن يريـد الانـضواء تحـت رايـة الإسلام. فقد أزاح الجهاد في سبيل الـلـه هـذه العقبـات، وتـرك للنـاس حـريتهم في اختيـار مـا يريدون من عقائد؛ لأنّ قضية الدين قضية قناعة، فلا يجبر أحد عـلى الـدخول فيـه، وهـذا مـا نصّ عليه القرآن الكريم، وما نصّ عليه رسول الـلـهﷺ وطبقه خير تطبيق، قال الـلـه تعالى:

(**لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ**)سورة البقرة/256.

وقال:

(**وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ**)سورة الكهف/29.

وقال:

(**قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾**)سورة الكافرون.

ولمّـا جـاء صـحابي مـن الأنـصار إلى النبـيﷺ، وأراد أن يُكـره ولديـه عـلى الإسـلام –وقـد كانـا تنـصرا قبـل مبعـث النبـيﷺ- فنهـى النبـي الأنـصاري

عن ذلك(1).

وحين نتأمّل بتشريع الجهاد، نرى أنّه أسلوب من أساليب تبليغ دعوة اللــه إلى الناس، وحماية المسلمين في كل مكان، وردٌ لعدوان المعتدي على ديار المسلمين، وقد اتفق الفقهاء والأصوليون والمفسرون والمحدثون على أنّ العدو إذا دخل أرضا إسلامية، فإنّ واجبا حتما على أهل ذلك البلد أن يقوموا بصدّهم وإخراجهم منها، فإن قصّروا أو لم يستطيعوا ذلك انتقل فرض العين إلى من يليهم. وهكذا حتى يعم فرض العين الأرض كلها، فيخرج الولد من غير إذن والده إلى الجهاد، وتخرج المرأة من غير إذن زوجها؛ ذلك لأنّ الجهاد هو ذروة سنام الإسلام. وقد ثبت بما لا يقبل الشك أنّ المسلمين يظلون أقوياء ما لم يعطلوا هذه الشعيرة، فإن عطّلوها أصابهم الذل وحل بهم غضب اللـه، ويُعد تعطيل هذه الشعيرة كبيرة من الكبائر. وقد قال أمير المؤمنين سيدنا علي بن أبي طالبﷺ:

(الجهاد باب من أبواب الجنة، فمن تركه رغبة عنه ألبسه اللــه الذل... فوالذي نفسي بيده ما غزي قوم قط في عقر دارهم إلا ذلوا)(2).

الجهاد في القرآن الكريم

ونقرأ القرآن الكريم، فنرى فيه آيات كثيرة داعية إلى الجهاد في سبيل اللــه، منها قوله تعالى:

---

(1) تفسير البغوي المسمى معالم التنزيل للحسين بن مسعود (البغوي) تفسير قوله تعالى (لا إكراه في الدين).

(2) الكامل في اللغة والأدب، تأليف: أبي العباس المبرد 16/1 بتحقيق: جمعة الحسن، الطبعة الأولى 1425-2004، دار المعرفة، بيروت.

(فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللـه الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللـه فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾) سورة النساء.

وقوله:

(انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللـه)سورة التوبة/41.

وقوله:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللـه وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾) **سورة المائدة.**

وقوله:

(قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللـه وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللـه بِأَمْرِهِ وَاللـه لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾) سورة التوبة.

وحذّر اللـه تعالى من التثاقل عن الجهاد فقال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللـه اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللـه عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾) سورة التوبة.

ومدح اللـه المجاهدين في سبيله فقال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللـه أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللـه وَاللـه غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢١٨﴾)سورة البقرة.

وقال:

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللـه وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾) سورة الأنفال.

وتوجه خطاب اللـه تعالى –أيضا- إلى رسوله محمدﷺ فقال تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾) سورة التوبة.

الجهاد في الحديث النبوي

وبعد نزول آيات الجهاد، نرى النبي الكريم صلوات اللـه وسلامه عليه يحض صحابته عليه، ويرغبهم به بأحاديث كثيرة، منها قولهﷺ:

«والذي نفسي بيده، وددتُ أني لأقاتل فى سبيل اللـه، فأقتل، ثم أُحيا ثم أُقتَل، ثم أُحيا، ثم أُقتل،..»(1).

والمعروف أن منزلة النبوة هي أعظم من منزلة الشهادة في سبيل اللـه. ويأتي قَسَمُ النبيﷺ هنا؛ ليبين المكانة العظمى التي يتبوأها الشهداء عند اللـه.

ويتحدث النبيﷺ عن الكرامة التي ينالها الشهيد في سبيل اللـه فيقول:

«ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا، وله ما على الأرض

---

(1) رواه البخاري في كتاب التمني (باب: ما جاء في التمني ومن تمنى الشهادة) ص1752، حديث 7227.

من شيء إلا الشهيد: يتمنى أن يرجع إلى الدنيا، فيقتل عشر مرات؛ لما يرى من الكرامة»(1).

واذا كان كل ميت يختم على عمله ويجازى به، فان المرابط في سبيل اللـه ليس كذلك، فلا يختم على عمله، بل ينمى له عمله إلى يوم القيامة، ويأمن من فتنة القبر، فقالﷺ:

«كل ميت يختم على عمله إلا الذي مات مرابطاً في سبيل اللـه، فإنه ينمى له عمله إلى يوم القيامة، ويأمن من فتنة القبر»(2).

والجهاد في سبيل اللـه أعظم عمل يتقرب به المسلم إلى اللـه بعد الإيمان باللـه. فعن أبي هريرةؓ قال: سئل النبيﷺ أيّ الأعمال أفضل؟ قال: «إيمان باللـه ورسوله»، قيل: ثم ماذا؟ قال: «جهاد في سبيل اللـه»، قيل: ثم ماذا؟ قال: «حج مبرور»(3).

وقال:

«مثل المجاهد في سبيل اللـه - واللـه أعلم بمن يجاهد في سبيله - كمثل الصائم القائم، وتوكَّلَ اللـه للمجاهد في سبيله بأن يتوفاه أن يُدخله الجنة، أو يرجعه سالماً مع أجر أو غنيمة»(4).

---

(1) رواه البخاري في كتاب الجهاد (باب: تمني المجاهد أن يرجع الى الدنيا) ص732، حديث 2817. ومسلم في كتاب الإمارة (باب: فضل الشهادة في سبيل اللـه) 1498/3، حديث 1877.

(2) رواه الترمذي في كتاب فضائل الجهاد (باب: ما جاء في فضل مَنْ مات مرابطاً) ص382، حديث 1621.

(3) رواه البخاري في كتاب الحج (باب: فضل الحج المبرور) ص423، حديث 1519.

(4) رواه البخاري في كتاب الجهاد (باب: أفضل الناس مؤمن يجاهد بنفسه وماله في سبيل اللـه) ص725، حديث 2787.

وقال:

«إن في الجنة مائة درجة أعدّها اللـه للمجاهدين فى سبيل اللـه، ما بين الـدرجتين كـما بـين السماء والأرض...»(1).

ومن ترغيب النبيﷺ للمسلم على عقد نية الشهادة في سبيل اللـه قوله:

«مَنْ سأل اللـه الشهادة بصدق بلّغه اللـه منازل الشهداء وإن مات على فراشه»(2).

وحذّر النبيﷺ مَنْ مات ولم يغز ولم يحدِّث نفسه بالغزو فقال:

«مَنْ مات ولم يغز، ولم يحدِّث به نفسه، مات على شعبة من نفاق»(3).

الرسول المجاهد

لم يجاهد أحد قط كجهاد رسول اللـهﷺ: فقد كان يرسل السرايا، ويجهز الغـزوات التي يقودها بنفسه، فقاد بنفسه 28 غـزوة خـلال سـبع سـنوات، وأدار صـلوات اللـــه وسلامه عليه (معركة حنين) لما انهزم المسلمون بعشرة من أصحابه وأهل بيته، بعـد أن فرّ اثنا عشر ألفاً من المسلمين، ووقف النبي وسط المعركة يناشـد المـسلمين العـودة الى ميدان الجهاد، وكان يدل الناس على نفسه ويقـول: «أنـا النبـي لا كـذب، أنـا ابـن عبـد

(1) رواه البخاري في كتاب الجهاد والسير (باب: درجات المجاهدين في سبيل اللـه) ص726، حديث 2790.

(2) رواه مسلم في كتاب الإمارة (باب: استحباب طلب الشهادة في سبيل اللـه تعالى) 1517/3، حديث 1909.

(3) رواه مسلم في كتاب الإمارة (باب: استحباب طلب الشهادة في سبيل اللـه تعالى) 1517/3، حديث 1910.

المطلب»، وهذا منتهى الشجاعة؛ فعاد المسلمون إلى ميدان المعركة، وغيّرﷺ مسيرتها من الهزيمة الى النصر.

وكان ثباته صلوات الله وسلامه عليه في غزوة الأحزاب آية من آيات الله، لايقدر عليه غيره: فقد صمد أمام عشرة آلاف مقاتل من المشركين، وكان عدد المسلمين زهاء ثلاثة آلاف مجاهد، وتحرَّج موقف النبيﷺ لما نكثت قريظة عهدها مع رسول اللهﷺ، فصار المسلمون يواجهون عدوين: عدواً خارجياً يتمثل بالأحزاب، وعدواً داخلياً يتمثل في بني قريظة الذين نكثوا عهدهم معه، وخرج النبيﷺ من ذلك كله منتصراً بنصر الله..!!.

لقد كانﷺ المجاهد الذي لا مثيل له في دنيا الجهاد: شجاعة، وثباتاً، وقوة قلب، فقد خاض المعارك الكثيرة وصبر فيها حتى انجلت عن ظفر أو دفاع، ولم يدخل في نفسه شئ من الخوف أو الفزع أو الهلع، ولم يفكّر بهرب في غزوة من غزواته، فقد كان أشجع الناس، ووصفه أمير المؤمنين سيدنا علي بن أبي طالبﷺ في غزوة بدر فقال:

(لما كان يوم بدر، وحضر البأس، إتقينا برسول اللهﷺ، وكان من أشدّ الناس بأساً يومئذ، وما كان أحد أقرب إلى المشركين منه)(1).

وقال البراء بن مالكﷺ:

(كنا-والله-اذا احمرَّ البأس نتقي به-أي برسول اللهﷺ-وإن الشجاع منا للذي يحاذي به)(2).

---

(1) الطبقات الكبرى لابن سعد 23/2.

(2) رواه مسلم في كتاب الجهاد والسير (باب: في غزوة حنين) 1401/3، حديث 1776.

الصحابة المجاهدون

قرأ الصحابة آيات القرآن الداعية الى الجهاد في سبيل الـلـه، وسمعوا أحاديث النبيﷺ في ذلك، ورأوا بأمّ أعينهم جهاده عليه الصلاة والسلام في ذلك.. رأى الصحابة من نبيهم هذا؛ فانطلقوا يجاهدون جهاداً أذهَلَ كلَّ من دَرَس حياتهم: فقد رفعوا راية التوحيد، وبذلوا دماءهم من أجل نصرة هذا الدين، فكانوا-بحق-فرسان هذا الدين، وقدوة لكل جيل يأتي بعدهم. وهذه أمثلة على ذلك ترينا كيف كان حب الصحابة للجهاد، وشوقهم للشهادة في سبيل الـلـه:

الزبير بن العوامﷺ

الزبير بن العوام بن خويلد بن اسد القرشي، حواري رسول الـلـهﷺ، وأحد العشرة المبشرين بالجنة. وقد تحمّلَ الكثير من العذاب لما أسلم، فكان عمه يعلقه في حصير ويدخن عليه ليرجع الى الكفر فيقول: لا أكفر أبداً(1). وقد صار فارس النبي الكريم، وقال فيه علي بن أبي طالبﷺ: أشجع الناس الزبير (يغضب غضب النمر، ويثب وثوب الأسد)(2).

وقال فيه عمر بن الخطابﷺ:(إن الزبير ركن من أركان الدين)(3).

هاجر الزبير الهجرتين، واشترك في كل غزوة غزاها النبيﷺ. وفي غزوة بدر قَتَلَ عبيدة بن سعيد بن العاص-وكان عبيدة بطلاً في قوته

(1) الاصابة في تمييز الصحابة 554/2.
(2) تاريخ مدينة دمشق 385/18.
(3) الاصابة في تمييز الصحابة 556/2.

وقتاله-وأبلى يوم أحد بلاءاً حسناً، وقاتل صناديد الكفر قتالاً شـديداً، وهكـذا الأمـر في غـزوة الخندق وفتح مكة، والغزوات كلها. وظل بعد وفاة النبيﷺ يجاهد كما كان يجاهد في عهـده عليه الصلاة والسلام. قال ابن كثير متحدثاً عن جهاده في معركة اليرموك:

(وقد كان فيمن شهد اليرموك الزبير بن العوام، وهو أفضل من هناك من الصحابة، وكـان من فرسان الناس وشجعانهم، فاجتمع إليه جماعة من الأبطال يومئذ فقالوا: ألا تحملُ فنحملَ معك؟ فقال: إنكم لا تثبتون، فقالوا: بلى! فحمل وحملوا، فلما واجهوا صفوف الـروم أحجمـوا، وأقدَم هو فاخترق صفوف الروم حتى خرج من الجانب الآخر وعاد إلى أصحابه.

ثم جاؤا إليه مرة ثانية ففعل كما فعل في الاولى، وجُـرِح يومئـذ جـرحين بـين كتفيـه، وفي رواية جرح)(1).

وقد كانت شجاعة الزبير السبب المهم في فتح مصر وانتصار المسلمين على (المقوقس) ذلـك أن عمرو بن العاص بقي محاصراً حصن بابليون مدة من الزمن، فلما جاء الزبير مدداً له في اثني عـشر ألفاً قال: (إني أهب نفسي لـلـه، وأرجو أن يفتح الـلـه بذلك على المـسلمين). فوضـع سُـلّمًا وأسـنده إلى جانب الحصن من ناحية سوق الحمّام ثم صعد، وأمرهم إذا سمعوا تكبيره أن يجيبـوه جميعـاً، فما شعروا إلا والـزبير عـلى رأس الحـصن يكـبّر ومعـه الـسيف، فتحامَـلَ النـاس عـلى الـسلّم حتـى نهـاهم عمـرو؛ خوفـا مـن أن ينكـسر، فلـمّا رأى الـروم أن العـرب ظفـروا بالحـصن انـسحبوا،

---

(1) البداية والنهاية لابن كثير 11/7.

وبذلك فتح حصن بابليون أبوابه للمسلمين، فانتهت بفتحه المعركة الحاسمة لفتح مصر(1).

ولما أراد عمر بن الخطاب أن يوليه مصر قال له الزبير:

(لا حاجة لي فيها، ولكني أخرج مجاهداً، وللمسلمين معاونا: فإن وجدتُ عمراً قد فتحها لم أعرض لعمله، وقصدت إلى بعض السواحل فرابطت به، وإن وجدته في جهاد كنت معه؛ فسار على ذلك)(2).

رضي اللـه عن حواري رسول اللـهﷺ!

ومدح حسان بن ثابت الزبير بن العوام فقال:

أقـــامَ عـــلى عهـــدِ النبـــيّ وهديـــهِ حواريـــهُ والقـــولُ بالفعـــلِ يعـــدلُ
أقـــامَ عـــلى منهاجـــهِ وطريقـــهِ يُـــوَالي وَليَّ الحـــقِّ ، والحـــقُّ أعـــدَلُ
هُـــوَ الفـــارِسُ المـــشهورُ والبطـــلُ الـــذي يَـــصُولُ ، إذا مـــا كـــانَ يـــوْمٌ مُحَجَّـــلُ
إذا كـــشَفَتْ عـــن ســـاقِها الحـــرْبُ حـــشّها بـــأبْيَضَ ســـبّاقٍ إلى المَـــوْتِ يُرْقِـــلُ
وإنّ امْـــرَأ كانَـــتْ صَـــفِيّةُ أُمَّـــهُ ومـــنْ أســـدٌ في بيتهـــا لمرفـــلُ
لَـــهُ مـــن رَسُـــولِ اللـــه قُـــرْبَى قَريبَـــة ومـــن نُـــصرَةِ الإســـلامِ مَجـــدٌ مؤثَـــلْ
فكـــمْ كربـــةٍ ذبّ الـــزبيرُ بـــسيفه عـــن المُـــصْطفى واللـــه يُعطـــي فيُجـــزِلُ

(1) ينظر: صلاح الامة في علوّ الهمة تأليف الدكتور سيد بن حسين العفاني ص323، الطبعة الثانية 1427-2006، مؤسسة الرسالة، بيروت، نقلاً عن قادة فتح الشام ومصر تأليف اللواء الركن محمود شيت خطاب ص209، 227، دار الفكر.

(2) فتوح البلدان للبلاذري ص214، عني بمراجعته والتعليق عليه: رضوان محمد رضوان، مطبعة السعادة بمصر 1959.

فـــما مثلـــهُ فـــيهمْ ، ولا كـــانَ قبلـــه   ولـــيْسَ يَكُـــونُ الـــدّهرَ مـــا دامَ يـــذْبُلُ
ثنـــاؤكَ خيـــرٌ مـــن فعـــالِ معاشـــرٍ   وفعلـكَ، يـا ابـن الهاشـميةِ، أفـضلُ(1)

طلحة بن عبيد اللـهﷺ

فضائل أبي بكر الصديق كثيرة، ومنها: إسلام طلحة بن عبيد اللـه على يديه، فقد أخلص دعوته لـلـه ورسوله، وجاهد في اللـه حق الجهاد، حتى شهد لهﷺ بأنه واحد من العشرة المبشرين بالجنة. وهذه مقتطفات عن حياته الجهادية:

أبلى طلحة بلاءاً حسناً في (غزوة أُحد): ضرباً بالسيف، ورمياً بالنبل، ودفاعاً عن النبيﷺ، وقد وقى النبيَّ بنفسه، واتقى النبل عنه بيده حين توجهت إليه ضربة آثمة من المشركين، فَشُلّت اصبعه، وقد قال قيس بن أبي حازم:

(رأيت يد طلحة التي وقى بها النبيﷺ قد شلت)(2).

أمّا الجراحات التي أصابته، فوصلت إلى أربع وعشرين جراحة، وقد قال النبيﷺ حينذاك: (أوجَبَ طلحة)(3).

ويصعب الأمر في (أحد) على النبيﷺ ومن معه، بعد أن أقدم

---

(1) شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري ص 339، وضعه وضبط الديوان وصححه: عبد الرحمن البرقوقي، مطبعة السعادة، القاهرة.

(2) رواه البخاري في كتاب فضائل أصحاب النبيﷺ (باب: ذكر طلحة بن عبيد اللـه) ص944، حديث 3724.

(3) رواه الترمذي في (باب: مناقب أبي محمد طلحة بن عبيد اللـه) ص395 و846، حديث 3738 و1692، وهو حديث حسن، ومعنى (أوجب طلحة) أي وجبت له الجنة.

المشركون نحو النبيﷺ يبغون قتله، وقُتل من الصحابة المدافعين عنه من قُتـل حتـى لم يبـق معه في نهاية المطاف إلا طلحة وسعد بن أبي وقاص(1).

ويروي النسائي هذا الحديث عن جابر بن عبد اللـهﷺ فيقول:

(لما كان يوم أحد، وولى الناس، كان رسـول اللــهﷺ فى ناحيـة فى اثنـي عـشر رجـلا مـن الأنصار، وفيهم طلحة بن عبيد اللـه، فأدركهم المشركون، فالتفت رسول اللـهﷺ وقـال: «مـن للقوم؟». فقال طلحة: أنا! قال رسول اللـهﷺ: «كما أنـت»، فقـال رجـل مـن الأنـصار: أنـا يـا رسول اللـه! فقال: «أنت»؛ فقاتل حتى قُتل! ثم التفت فإذا المشركون فقـال: «مـن للقـوم؟». فقال طلحة: أنا. قال: «كما أنت». فقال رجل من الأنصار أنا. فقال: «أنت». فقاتل حتى قُتـل، ثم لم يزل يقول ذلك، ويخرج إليهم رجل من الأنصار فيقاتل قتال من قبله، حتى يُقتل، حتـى بقي رسول اللـهﷺ وطلحة بن عبيد اللـه، فقال رسول اللـهﷺ: «من للقوم؟». فقـال طلحـة أنا. فقاتل طلحة قتال الأحَدَ عشر حتى ضُربت يده، فقطعت أصابعه، فقال حسٍّ! فقال رسول اللـهﷺ «لو قلت بسم اللـه لرفعتك الملائكة والناس ينظرون». ثم رد اللـه المشركين)(2).

وروى ابن سعد عن عائشة وأم إسحاق قالتا:

(جُـرح أبونـا يـوم أحـد أربعـاً وعـشرين جراحـة، وقـع منهـا في رأسـه شجّة مربعة، وقطع نساه -يعني العرق-، وشلت أصـبُعه، وكـان سـائر الجـراح

---

(1) رواه البخاري في (باب: ذكر طلحة بن عبيد اللـه) ص944، حديث 3722 و3723.

(2) سنن النسائي (باب: ما يقول من يطعنه العدو) ص486، حديث 3149.

في جسده، وغلبه الغشي، ورسول اللـــهﷺ مكـسورة رباعيتـه، مـشجوج في وجهـه، قـد عـلاه الغشي، وطلحة مُحتملُهُ، يرجع به القهقرى، كلما أدركه أحد من المـشركين، قاتـل دونـه، حتـى أسنده إلى الشعب)(1).

ولقد كان أبو بكر الصديقﷺ معجبا أشد الإعجاب بجهاد طلحة في هذه الغـزوة، فكـان إذا ذُكر يوم أحد يقول: ذلك يوم كان كله لطلحة. ولقد قيل في طلحة:

وطلحة يوم الشعب آسى محمدا	لدى ساعة ضاقت عليه وسُدّت
وقـاه بكفـيه الرماح فقُطّعت	أصابعه تحت الرماح فـشُلّت
وكان إمام النـاس بعد محمد	أقرّ رحا الإسلام حتى استقرّت

رجل من الأنصارﷺ

هناك عدد غير قليل من الصحابة فارقوا هذه الحيـاة في سـاحات الجهـاد أو في بيـوتهم، ولم يكتب التاريخ شيئا عن سيرتهم، من هؤلاء رجـل مـن الأنـصار، عُـرف بـشهامته ونجدتـه وغيرتـه وجهاده في سبيل اللـه، وإذا كان التاريخ لم يعرف هؤلاء، فإنّ اللـه تعالى يعرفهم. فقد روى ابـن الجوزي: (عن جعفر بن عبد اللـه بن أسلم قال: لمّا كان يوم اليمامة واصـطف النـاس، كـان أوّل من جُرح أبو عقيل: رمي بسهم فوقع بين منكبيه وفؤاده في غـير مقتـل، فـأخرج الـسهم، ووهـن له شِقَّه الأيسر، في أول النهـار وجُـرّ إلى الرحـل، فلـما حمـي القتـال وانهـزم المـسلمون وجـاوزوا رحالهم، -وأبو عقيل واهِن من جرحه-، سُمع معـن بـن عـدي يـصيح: يـا للأنـصار، اللــه اللــه

(1) سير أعلام النبلاء للذهبي 32/1.

والكرّةَ على عدوكم، قال عبد اللـه بن عمر: فنهض أبو عقيل يريد قومه، فقلت: ما تريد؟ ما فيك قتال. قال: قد نوَّه المنادي باسمي، قال ابن عمر: فقلت لـه: إنما يقـول: يـا للأنـصار، ولا يعني الجرحى. قال أبو عقيل: أنا من الأنصار، وأنا أجيبه -ولو حبواً- قال ابن عمر: فتحزّم أبـو عقيل، وأخذ السيف بيده اليمنى، ثم جعل ينادي: يا للأنصار، كـرّةً كيـوم حُنـين؛ فـاجتمعوا -رحمكم اللـه- جميعاً، تقـدموا ... قـال ابـن عمـر: فنظـرت إلى أبي عقيـل وقـد قطعـت يـده المجروحة من المنكب فوقعت إلى الأرض، وبه من الجراح أربعة عشر جرحاً، كلها قـد خلـصت إلى مقتل، وُقتل عدو اللـه مسيلمة، [قال ابن عمر:] فوقفت على أبي عقيل وهو صريع بـآخر رمق فقلت: يا أبا عقيل، قال: لبيك -بلسان ملتاث-: لمن الـدبرة؟ قلـت: أبـشر، قـد قُتـل عـدو اللـه؛ فرفع اصبعه إلى السماء يحمد اللـه، ومات يرحمه اللـه. قال ابن عمر: فأخبرت عمـر، بعد أن قدمت خبره كله. فقال: رحمه اللـه! ما زال يسعى للـشهادة ويطلبهـا، وإن كـان -مـا علمت- من خيار أصحاب نبيناﷺ وقديم إسلامهم‏رضي الله عنه)(1).

النعمان بن مقرن المزني‏رضي الله عنه

النعمان بن مقرن المزني‏رضي الله عنه: عظيم من عظماء صحابة النبيﷺ. حمل لواء قومه يوم فتح مكة، وكان مجاب الدعوة، وصار أميرا على جيش المسلمين الذي فتح (نهاونـد) في خلافـة أمـير المؤمنين عمر بن الخطاب‏رضي الله عنه، واستشهد النعمان في هذه المعركة.

---

(1) صفة الصفوة 466/1-467.

وتُعد (معركة نهاوند) التي وقعت بين العرب والفرس (فتح الفتوح)؛ إذ قضت على طغيان الفرس، ولم تقم لامبراطوريتهم بعدها قائمة. لقد كانت أعداد الفرس مائة وخمسين ألف مقاتل، وأمّا المسلمون بقيادة (النعمان بن مقرن) فكان عددهم ما يقرب من ثلاثين ألف مجاهد. وقبل أن ينشب القتال سار النعمان (في الناس، ووقف على كل راية يذكّرهم ويحرضهم ويمنّيهم الظفر، وقال لهم: إني مكبّر ثلاثاً، فإذا كبرت الثالثة، فإني حامل -إن شاء الله- فاحملوا، وإن قُتلتُ فالأمير بعدي حذيفة، فإن قُتل ففلان، حتى عد سبعة آخرهم المغيرة. ثم قال: اللهم أعزز دينك، وانصر عبادك، واجعل النعمان أول شهيد اليوم على إعزاز دينك ونصر عبادك. وقيل: بل قال: اللهم إني أسألك أن تقرّ عيني اليوم بفتح يكون فيه عز الإسلام واقبضني شهيداً. فبكى الناس. ورجع إلى موقفه، فكبر ثلاثاً والناس سامعون مطيعون مستعدون للقتال، وحمل النعمان والناس معه، وانقضّت رايته انقضاض العقاب، والنعمان معلّم ببياض القباء والقلنسوة، فاقتتلوا قتالاً شديداً لم يسمع السامعون بوقعة كانت أشد منها، وما كان يُسمع إلا وقع الحديد، وصبر لهم المسلمون صبراً عظيماً، وانهزم الأعاجم ... فلما أقر الله عين النعمان بالفتح استجاب له فقتل شهيداً)(1).

ويُروى أنّ أحد الجنود جاء (النعمان) وما زال به رمق، فاستحضر ماءا ليغسل به وجه القائد الجريح، ويسأله (النعمان): من أنت؟ فقال

---

(1) الكامل في التاريخ لابن الأثير 2/416-417 تحقيق: أبي الفداء عبد الله القاضي، الطبعة الرابعة 1424-2003، دار الكتب العلمية، بيروت.

الجندي: معقل بن يسار. وعاد يسأله: ما فعل اللـه بالناس؟ فقال معقل: فتح اللـه على المسلمين. وابتسم النعمان مع آخر أنفاسه وآخر كلماته وقال: (الحمد للـه كثيرا...اكتبوا بذلك إلى عمر).

أسيد بن حضيرﷺ ونماذج من الأنصار

أسيد بن حضير: صحابي جليل من الأنصار، أسلم على يد مصعب بن عمير، وكان أحد النقباء ليلة العقبة، وقد قالت السيدة عائشة رضي اللـه عنها: (ثلاثة من الأنصار لم يكن أحد منهم يُلحق في الفضل، كلهم من بني عبد الأشهل: سعد بن معاذ وأسيد بن حضير وعباد بن بشر)(1)، وكان أبو بكر لا يُقدّم أحدا من الأنصار عليه. وهذا موقف واحد من مواقفهﷺ، ترينا عظمة الرجل، وعظمة إخوانه من الأنصار كيف تكون.

لقد كانت الخسارة التي لحقت بالمسلمين في غزوة أحد كبيرة كبيرة؛ إذ قُتل من الصحابة زهاء السبعين، وجُرح منهم الكثير. وسمع النبيﷺ بما عزم عليه المشركون من الإغارة على المدينة مرة أخرى ليستأصلوا المسلمين بعد أن أحرزوا ذلك النصر. فندب النبيﷺ من اشترك في غزوة أحد من الصحابة إلى ملاحقة المشركين. وسمع أسيد بن حضير دعوة النبي لملاحقة المشركين، وكان به سبع جراحات يريد أن يداويها فقال:

(سمعا وطاعة للـه ولرسوله وأخذ سلاحه ولم يعرّج على دواء، ولحق برسول اللـهﷺ ...وخرج من بني سلمة أربعون جريحا: بالطفيل بن النعمان ثلاثة عشر جرحا وبخراش بن الصمة عشر جراحات حتى وافوا

(1) الإصابة في تمييز الصحابة 83/1.

رسول اللـهﷺ فقال لمّا رآهم: «اللـهم ارحم بني سلمة»)(1).

وقال رجل من بني عبد الأشهل:

(شهدت أحدا مع رسول اللـهﷺ أنا وأخ لي، فرجعنا جريحين، فلما أذن مؤذن رسول اللـهﷺ بالخروج في طلب العدو، قلت لأخي أو قال لي: أتفوتنا غزوة مع رسول اللـهﷺ؟ واللـه ما لنا من دابة نركبها، وما منا إلا جريح ثقيل؛ فخرجنا مع رسول اللـهﷺ وكنت أيسر جرحا، فكان إذا غلب حملته عقبة –جعلته يركب- ومشى عقبة، حتى انتهينا إلى ما انتهى إليه المسلمون)(2).

سعد بن الربيعرضي الله عنه

سعد بن الربيع: صحابي جليل، وهو أحد نقباء الأنصار، آخى النبيﷺ بينه وبين عبد الرحمن بن عوف في المدينة، وقد عرض عليه سعد أن يشاطره ماله، وان يطلق له أيّ زوجتيه يريد فاذا انقضت عدتها تزوجها، فقال له عبد الرحمن: بارك اللـه لك في أهلك ومالك، ولكن دلّني على السوق. فذهب فباع واشترى وربح...(3).

ولمّا دخلت أم سعد بنت سعد بن الربيع على أبي بكر الصديق، ألقى لها ثوبه حتى جلست عليه، فدخل عمر بن الخطاب فسأله عنها فقال: هذه

---

(1) إمتاع الأسماع للمقريزي 167/1، صححه وشرحه: محمود محمد شاكر، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1942.

(2) السيرة النبوية لابن هشام 148/3.

(3) ينظر: سير أعلام النبلاء 91/1، وصحيح البخاري في كتاب البيوع (باب: ما جاء في قول اللـه تعالى: (فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ) ص 535، حديث 2048.

ابنة من هو خير مني ومنك؛ قال: ومَنْ هو يا خليفة رسول اللـه؟ قال: رجل قبض عـلى عهـد رسول اللـهﷺ، تبوّأ مقعده من الجنة، وبقيت أنا وأنت(1).

ان سعد بن الربيع هذا قاتل قتال الأبطال في غزوة أُحد حتى استُشهد. ولنـدع الـصحابي الجليل زيد بن ثابت يروي لنا آخر لحظات حياته فيقول:

(بعثني رسول اللـهﷺ يوم أحد أطلب سعد بن الربيع، فقال لي: «إن رأيته فأقرئـه منـي السلام، وقل له: يقول لك رسول اللــهﷺ كيـف تجـدك؟» قـال: فجعلـت أطـوف بـين القـتلى فأتيته وهو بآخر رمق، وفيه سبعون ضربة: ما بين طعنة برمح، وضربة بسيف، ورميـة بـسهم، فقلت: يا سعد، إن رسول اللـهﷺ يقرأ عليك السلام ويقول لك: أخبرني كيـف تجـدك؟ فقـال: وعلى رسول اللـهﷺ السلام، قل له: يا رسول اللـه، أجد ريح الجنة، وقـل لقـومي الأنـصار: لا عذر لكم عند اللـه، إن خلص إلى رسول اللــهﷺ وفـيكم عـين تطـرف، وفاضـت نفـسه مـن وقته)(2).

أنس بن النضر

هو أنس بن النضر بن ضمضم الأنصاري من بني النجار، وهو عم أنس بن مالك رضي اللــه عنهم، ولم يتحدث عنه كتاب السير الا القليل القليل، مـن ذلـك: جهـاده وتـضحيته وشـجاعته في غزوة أحد. وقد روى لنا ذلك ابن أخيه أنس بن مالك، ولولاه لما وصلنا شـئ عنـه. قـال أنـس بـن

(1) ينظر: الاصابة 59/3

(2) زاد المعاد لابن قيم الجوزية 107/3.

مالكﷺ:

(غاب عمي أنس بن النضر عن قتال بدر، فقال يا رسول الله: غبتُ عن أوّل قتال قاتلت المشركين، لئن الله أشهدني قتال المشركين؛ ليرين الله ما أصنع، فلما كان يوم أحد وانكشف المسلمون قال: [اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء -يعنى أصحابه- وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء] -يعنى المشركين- ثم تقدم، فاستقبله سعد بن معاذ، فقال يا سعد بن معاذ: الجنة ورب النضر، إني أجد ريحها من دون أُحُد. قال سعد: فما استطعت يا رسول الله ما صنع. قال أنس: فوجدنا به بضعا وثمانين ضربة بالسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم، ووجدناه قد قُتل وقد مثل به المشركون، فما عرفه أحد إلا أخته ببنانه. قال أنس: كنّا نرى أو نظن أنّ هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه (**مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ**)(1).

وقد روي أنّ أنس بن النضر مرّ يوم أحد على جماعة فيهم عمر بن الخطاب فقال: ما يقعدكم؟ قالوا: قُتل رسول اللهﷺ قال: فما تصنعون بالحياة بعده؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه، ثم جالد بسيفه حتى قُتلﷺ(2).

لقد شمّ أنس رائحة الجنة، فانطلق يجاهد هذا الجهاد لا يلوي على

(1) رواه البخاري في كتاب الجهاد والسير (باب: قول الله تعالى: (مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ) ص728-729، حديث 2805.

(2) سيرة ابن هشام مع شرح أبي ذر الخشني 120/3 بتحقيق: همام عبد الرحيم سعيد ومحمد عبد الله أبو صعيليك، الطبعة الأولى 1409-1988، مكتبة المنار، الزرقاء، الأردن.

شيء. ولمّا دارت الدائرة على المسلمين، واستحرّ القتل بالصحابة في هذه الغزوة؛ لمخالفة الرماة أمر النبيﷺ بعدم مغادرة الجبل، وهرب منهم من هرب، بعد أن أشيع أنّ النبيﷺ قُتل، ظل أنس رابط الجأش، ثابتا في مكانه، يجاهد أعداء اللـه حتى استشهد ولم يهرب. ولا يستطيع أن يقف مثل هذه المواقف الإيمانية إلا العظماء من المؤمنين. لقد وفّى أنس ما عاهد اللـه عليه.

عبد اللـه بن أم مكتوم

عبد اللـه بن أم مكتوم: رجل من عامة الناس، فقد بصره صغيرا. ولمّا بعث اللـه محمداﷺ بالإسلام، قذف اللـه حب هذا الدين في قلبه، فأعلن إسلامه في دار الأرقم بن أبي الأرقم. ولمّا أذن النبيﷺ لصحابته بالهجرة، هاجر إلى المدينة قبل أن يقدم النبيﷺ إليها، وكان يعلّم الناس القرآن ويفقههم في الدين، فلمّا وصل عليه الصلاة والسلام إلى المدينة، شارك ابن أم مكتوم في بناء المسجد، ولم يتخلف عن صلاة واحدة خلفه، وكان يؤذن حين يغيب بلال، وقد استخلفه النبيﷺ على المدينة في عدد من غزواته. وكانﷺ قد نزل في دار يهودية بالمدينة عمّة رجل من الأنصار، وكانت تُحسن إليه، لكنّها تسمعه ما يكره في اللـه ورسوله، وحاول أن يردعها فلم ترتدع؛ فضربها ليمنعها من ذلك فماتت.

لقد كان هذا الصحابي على الرغم من فقده بصره شجاعا كل الشجاعة. كان يخرج إلى الغزو ويقول: إدفعوا إليّ اللواء؛ فإنّي أعمى لا أستطيع أن أفرّ، وأقيموني بين الصفين. قال أنس بن مالك: كان مع ابن أم

مكتوم يوم القادسية راية ولواءاً(1).

عبد الـلـه بن جحشﷺ

هو عبد الـلـه بن جحش بن رباب الاسدي، وهـو مـن الـسابقين الى الاسـلام، أسـلم قبـل دخول النبيﷺ دار الأرقم، وهاجر الى الحبشة الهجرة الثانية، وآخى النبيﷺ بينه وبين عاصم بن ثابت، وقد عقدت اول راية له في الاسلام، عقدها رسول الـلـهﷺ، وكانت الى (نخلة) وهـي مكان بين مكة والطائف، وكان يُسَمّى المجدّع في الـلــه، ولنقـرأ كيـف كـان حبـه للـشهادة في سبيل الـلـه.

قبل أن تقع غزوة (أُحد) بيـوم واحـد، دعـا عبـدُ الـلــه بـن جحـش بهـذا الـدعاء فقـال: (الـلـهم إني أُقسم عليك أَنْ ألقى العدوّ غداً فيقتلوني، ثم يبقروا بطني، ويجدعوا أنفـي وأُذني، ثم تسألني بمَ ذاك؟ فأقول: فيك). وتقع غزوة أُحد، ويسقط شهيداً، وهو ابـن نيـف واربعـين سنة، وفُعِلَ به كما أقسم على الـلـه. قال راوي الحديث سعيد بن المسيب: (إني لأرجـو أن يـبرَّ الـلـه آخر قسمه كما برَّ أوّله)(2).

البراء بن مالكﷺ

هـو الـبراء بـن مالـك بـن النـضر بـن ضمـضم الأنـصاري، صـحابي جليـل، وأخو أنس بـن مالـك خـادم النبـيﷺ، كـان بطـلا مـن أبطـال المـسلمين، وقـد

---

(1) صفة الصفوة 584/1.

(2) رواه الحاكم في كتاب معرفة الصحابة (ذكر مناقب عبد الـلـه بن جحش) 220/3، حديث 4902.

اشتهر أنّه قتل مائة نفس من الشجعان مبـارزة(1) وشـهد المـشاهد كلهـا مـع النبـيﷺ. وفي حرب مسيلمة الكذاب أمر البراء أصحابه أن يحتملوه على ترس على أسنة رماحهم، ويلقـوه في الحديقة. فاقتحم إليهم، وشدّ عليهم، وقاتل حتى افتتح باب الحديقـة، فجـرح يومئـذ بـضعة وثمانين جرحا، ولذلك أقام خالد بن الوليد عليه شهرا يداوي جراحه(2).

ولقد قال النبيﷺ «كم من ضعيف متـضعِّف ذي طمـرين، لـو أقـسم عـلى اللــه لأبـرّ قسمه» منهم البراء بن مالك. فـإن الـبراء لقـي زحفـا مـن المـشركين، وقـد أوجـع المـشركون في المسلمين فقالوا: يا براء، إن رسول اللـهﷺ قال: « إنك لو أقسمت عـلى اللــه لأبـرّك، فأقـسمْ على ربك؛ فقال: أقسمت عليك يا رب لما منحتنا أكتافهم(3)،

ولقي البراء زحفا آخر فأوجعوا في المسلمين، فقالوا له: يـا بـراء، أقـسمْ عـلى ربـك؛ فقـال: أقسمت عليك يا رب لما منحتنا أكتافهم، وألحقتني بنبيـكﷺ؛ فمنحـوا أكتـافهم، وقُتِـلَ الـبراء شهيدا(4).

هكذا يفعل الإيمان في قلب المجاهد! فقد باع هذا الصحابي نفـسه للــه، فللــه درُّك يـا براء ما أعظم جهادك في سبيل اللـه.!!

---

(1) سير أعلام النبلاء 196/1.

(2) سير أعلام النبلاء 196/1.

(3) رواه الحاكم في كتاب معرفة الصحابة (ذكر البراء بن مالك الأنصاري) 331/3، حديث 5274.

(4) رواه الحاكم في كتاب معرفة الصحابة (ذكر البراء بن مالك الأنصاري) 331/3، حديث 5274.

زيد بن الخطابرضي الله عنه

كان زيد بن الخطاب –وهو أخ لعمر بن الخطاب- يحمل راية المسلمين يوم اليمامة. ولقد انكشف المسلمون حتى غلبت حنيفة على الرحال، فجعل زيد يقول: (أما الرحال فلا رحال، وأما الفرار فلا فرار. ثم جعل يصيح بأعلى صوته: اللـهم إنّي أعتذر إليك من فرار أصحابي، وأبرأ اليك مما جاء به مسيلمة، وجعل يشتدّ بالراية ينفذ بها في نحر العدوّ، ثم ضارب بسيفه حتى قُتِل، ووقعت الراية، فأخذها سالم مولى أبي حذيفة، فقال المسلمون: يا سالم، إنا نخاف أن نؤتى من قِبَلك فقال: بئس حامل القرآن أنا إن أُتيتم من قبلي)(1).

جعفر بن أبي طالبرضي الله عنه

جعفر بن أبي طالب هو ابن عم النبيصلى الله عليه وسلم، وهو أخ لعلي بن أبي طالبرضي الله عنه. قاتل يوم غزوة مؤتة قتالا شديدا، فاقتحم على فرس له شقراء فعقرها، ثم قال:

يا حبذا الجنة واقترابها   طيبة وباردا شرابها
والروم روم قد دنا عذابها   عليّ إن لا قيتها ضرابها

ثم قاتل حتى قُتل.

قال عبد اللـه بن عمررضي الله عنه: كنت فيهم في تلك الغزوة، فالتمسنا جعفر بن أبي طالب فوجدناه في القتلى، ووجدنا ما في جسده بضعا وتسعين من طعنة ورمية. وقال النبيصلى الله عليه وسلم:

(1) صفة الصفوة 448/1.

«مرَّ بي جعفر الليلة في ملأ من الملائكة، وهو مخضب الجناحين بالدم أبيض الفؤاد»(1).

عمير بن أبي وقاص

عمير بن أبي وقاص -وهو أخ لسعد بن أبي وقاص- شاب أسلم في مكة، وهاجر إلى المدينة، شهد غزوة بدر، واستشهد فيها وعمره -إذ ذاك- ست عشرة سنة، قتله عمرو بن عبد ود العامري، ويروي قصة حضوره في بدر أخوه سعد بن أبي وقاص فيقول:

(رأيت أخي عمير بن أبي وقاص قبل ان يعرضنا رسول اللهﷺ للخروج إلى بدر يتوارى؛ فقلت: ما لك يا أخي؟ فقال: أني أخاف أن يراني رسول اللهﷺ فيستصغرني فيردني، واني أحب الخروج؛ لعلّ الله يرزقني الشهادة، قال: فعرض على رسول اللهﷺ فاستصغره، فقال: ارجع؛ فبكى عمير؛ فأجازه رسول اللهﷺ قال سعد: فكنت اعقد له حمائل سيفه من صغره، فقتل ببدر وهو ابن ست عشرة سنة)(2).

خالد بن الوليد

قال خالد بن الوليد لمّا حضرته الوفاة:

(لقد طلبت القتل مظانّهُ فلم يُقدَّر لي إلا أن أموت على فراشي. وما من عملي شيء أرجى عندي بعد التوحيد من ليلة بتّها وأنا متترس، والسماء تهلني ننتظر الصبح حتى نغير على الكفار)(3).

(1) رواه الحاكم وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. المستدرك 234/3، حديث 4943.
(2) صفة الصفوة 394/1.
(3) سير أعلام النبلاء 381/1.

وقال –أيضا- لمّا احتضر:

(لقيت كذا وكذا زحفا، وما في جسدي شبر إلا وفيه ضربة بسيف، أورمية بسهم، وها أنا أموت على فراشي حتف أنفي كما يموت العير، فلا نامت أعين الجبناء)(1).

وبعد:

فهذه نماذج قليلة من تضحية الصحابةﷺ، تفصح عن حقيقة الإيمان الحق الذي عَمَرَ قلوبهم، وتمكّن فيها، حتى صار الواحد منهم كأنّه يرى الناس رأي العين في الجنة وهم يتنعمون، فصار في شوق للقاء الله لنيل شرف الشهادة؛ ليحظى بما أعدّه الله تعالى له من كرامة.

لقد كان للصحابة آباء وأمهات وأبناء وإخوان وأزواج وأموال، لكنّ حبهم لله ولرسوله وللجهاد من أجل نشر دين الله أكبر وأعظم من ذلك. وهذا أثر من آثار بناء النبيﷺ لشخصية الصحابة في حب الجهاد في سبيل الله، وكانت سماتهم تفصح عن صلاحهم حتى عند الناس الذين فتح الصحابة بلادهم، وقد قال الإمام مالك –إمام دار الهجرة-:

(بلغني أنّ النصارى كانوا إذا رأوا الصحابة الذين فتحوا الشام يقولون: [والله لهؤلاء خير من الحواريين فيما بلغنا])(2).

(1) سير أعلام النبلاء 382/1.

(2) المواهب اللدنية بالمنح المحمدية للشيخ: أحمد بن محمد القسطلاني، 538/2، شرحه وعلّق عليه: مأمون بن محي الدين الجنان، الطبعة الثانية 2009، دار الكتب العلمية، بيروت.

والحواريون: هم أصفياء سيدنا عيسى وكانوا اثني عشر رجلا.

فما أحوج شبابنا ومثقفينا إلى أن يتأملوا بـذلك الجهـاد، ويدرسـوا حيـاة الـصحابة الـذين هيهات أن تجود الدنيا بأمثالهم. فقد كان لهم الفضل الكبير على كل مسلم في هذا الوجود إذ قاموا بإيصال الإسلام إلينا، ولولاهم لما وصل إلينا هذا الدين، ولما كنّـا اليـوم مـسلمين.! فـرضي الـلـه عنهم وأرضاهم.!

مداخل الشيطان

الشيطان في اللغة: مشتق من شَطَنَ: إذا بَعُد. وسُمي بذلك لبعده عن الحق أو عن رحمة اللـه تعالى.

ويجوز أن يكون مشتقاً من شاط يشيط: أي هلك واحترق وبطل(1)، ويطلق على كل عات متمرد. وسمي الشيطان بهذا : لعتوّه وتمرده على ربه، وسماه اللـه تعالى بـ (إبليس).

ولفظ (إبليس) من (أبلس) بمعنى يئس وتحيّر، وورد لفظ (شيطان) في القرآن الكريم 88 مرة وهو عدد ليس بالقليل، ويمثل قوة أقبلت من خارج الإنسان تريد اقتحامه من داخله، وابعاده عن صراط اللـه المستقيم، مزودة بقوة إغوائية مؤثرة، تسيطر على قسم من ضعاف الإيمان ومن لا ايمان لهم، فتجعلهم منقادين خاضعين لتلك الوساوس التي تدفعهم إلى التنائي عن الطريق الصحيح، مزينة لهم ارتكاب الخطايا، فلا يستطيع الإنسان الخلاص منها إلا بالاستعاذة باللـه والمجاهدة الدائمة لتلك الوساوس.

وعداوة الشيطان للإنسان قديمة، ابتدأت منذ أن خَلَقَ اللـه تعالى آدمعليه السلام، وأمر الملائكة والشيطان بالسجود لهذا المخلوق الجديد الذي خلقه اللـه من طين، فسجدت الملائكة وأبى الشيطان أن يسجد استكباراً: **(قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿١٢﴾)** سورة الأعراف. فأهبطه اللـه من المكانة العالية التي كان فيها. لقد علم أن سبب ما أصابه من الحطة كان

(1) ينظر: تهذيب اللغة للأزهري، ولسان العرب لابن منظور، والمصباح المنير للفيومي.

لعدم سجوده لآدم، فقرر أن ينتقم منه، ويستغل أيَّة مناسبة كانت لإلحاق الأذى به.

عاش سيدنا آدم في الجنة عيشة رغد، وقد نهاه اللـه وزوجه أن يأكلا من شجرة معينة امتحاناً لهما، فصار إبليس يوسوس لهما ويغويهما بالأكل منها، لتتم المعصية منهما، متبعاً عدداً من الأساليب في ذلك، فمرة يَعدهما إن أكلا منها بالخلود، وقد طُبِعت النفس البشرية على حب الخلود، ومرة يقسم لهما أنه لهما ناصح، وصوّر القرآن الكريم ذلك الإغواء بقوله ﷻ: (**وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾**) سورة الأعراف.

كانت فطرة سيدنا آدم عليه السلام صفحة نقية بيضاء طاهرة، لم يعلق بها شيء من الشر والسوء والفساد، فهو يُصدق ما يُلقى إليه ولا يسيء الظن بأحد، وأمام وسوسة الشيطان والقسم لهما بإخلاصه لهما بالنصح أكلا من الشجرة التي نُهيا عن الأكل منها، فتم العصيان، ثم تاب اللـه عليهما، قال اللـه تعالى:

(**وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴿١٢١﴾ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴿١٢٢﴾ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا**

يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿١٢٣﴾) سورة طه.

ومن هنا بدأت العداوة بين الإنسان والشيطان على الأرض وظلت قائمة، وستظل كذلك إلى أن يرث الله الأرض ومَنْ عليها.

ولا يظنّن أحد أن الشيطان سيرفع راية الاستسلام في يوم من الأيام، ويقلع عن غوايته وإفساده بني آدم، لا، إنه لا يفعل ذلك، بل يستحيل أن يفعل؛ لأنه صاحب قضية أعلنها أمام الله رب العالمين، متمثلة في إضلال المجتمعات عن شريعة الله رب العالمين، فلا يتوقف حربه مع بني آدم: فإما أن ينتصر، فيضل من يضل من السائرين في ركابه، وإما أن ينهزم مخذولاً أمام عباد الله المخلصين ... أولئك الذين تمكن الإيمان في قلوبهم، فلم يلتفتوا إلى شيء من أساليبه في الإضلال والإفساد.

ولابد لنا أن نعلم أن ما نراه اليوم في العالم من شر وفساد، وارتكاب للمنكرات، وسفك للدماء، وضلال الشباب لم يكن إلا بفعل الشيطان الرجيم، ذلك لأن مداخلهُ إلى النفس البشرية كثيرة، وكيف لا تكون كثيرة وقد عاش مع سيدنا آدم أبي البشر، واكتسب خبرة في الدخول إلى النفس البشرية لغوايتها منذ ذلك الوقت إلى وقتنا هذا... هذه المدة المديدة من الزمن أكسبت الشيطان خبرة في الإغواء فيأتي كل واحد من الناس يوسوس له عن الطريق الذي يؤثر به.

ولكن الله ﷻ لم يترك عباده تلعب بهم الشياطين فقد أمرهم بأوامر، ونهاهم عن نواه، وعلى قدر استجابة الناس لمنهج الله يوفقهم الله في التحصن من مكايد الشيطان، لأن الشيطان ليس له سلطان على الذين آمنوا، بل سلطانه على الذين يتبعون ضلاله، ويضعفون أمام إغراءاته

وأمانيه.

وأشير هنا إلى أني حين كتبت هذا البحث لا أزعم أن نفسي تخلصت من مكايد الشيطان ومن نزغاته، فما من أحد من الناس ينجو من ذلك؛ لأن مداخله إلى النفس البشرية كثيرة كثيرة، وقد أبان عن هذا بياناً واضحاً رسول اللهﷺ فقال:

«ما منكم من أحد إلا وقد وُكِّلَ به قرينُهُ من الجن»، قالوا: وإياك يا رسول الله! قال: «وإيّاي، إلاّ أن الله أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير»(1).

لكني كتبته لأذكر به نفسي من مداخله بقدر استطاعتي أولاً، إذ من طبيعة الإنسان الغفلة والنسيان، ولأذكر به إخوتي المسلمين بعد ذلك؛ خشية أن يقعوا في مصايده وشباكه، وما أكثر مصايده وما أكثر شباكه التي نصبها ليقع بها بنو آدم.!!

طرق الشيطان في الغواية والإضلال

أخذ الشيطان على نفسه بعد غوايته أن يغوي من استطاع من الناس بكل وسيلة من الوسائل التي يقدر عليها بعد أن طرده الله من رحمته، وقد أقسم أن يقوم بذلك، معترفاً – في الوقت نفسه – أنه لا يستطيع إغواء عباد الله المخلصين، قال الله تعالى حاكياً قول الشيطان:

(**قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾**) سورة ص.

---

(1) رواه مسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم (باب: تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس، وأن مع كل إنسان قريناً) 2167/4- 2168، حديث 2814.

ولا يترك الشيطان سبيلاً إلا اتبعه ليضل الناس عن طريق اللـه: فيحسِّن لهم القبيح، ويُقبّح لهم الحسن، ويحبب لهم البدعة، ويكرِّه لهم السنة، ويعدهم ويمنيهم الأماني الكاذبة، ويخوفهم بالفقر إن مدوا أيديهم بالعطاء، قال تعالى على لسان الشيطان مخاطباً رب الأرض والسموات ﷻ:

(قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾)سورة الاعراف.

وقد أشار النبيﷺ إلى هذا المعنى -أيضاً- فقال: «إن الشيطان قال: وعزتك يا رب، لا أبرح أغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم. قال الرب: وعزتي وجلالي، لا أزال أغفر لهم ما استغفروني»(1).

ولقد تعددت أساليب الشيطان في إغواء الناس وإضلالهم، ومن ذلك ما يأتي:

إلقاؤه الوسواس في قلوب الناس:

إن حماية القلب من وسواس الشيطان واجب على كل مكلف ولا يمكن دفع وسواسه إلا بمعرفة مداخله إلى النفس البشرية، فصارت معرفة مداخله واجبة على المكلف. ويضرب الشيخ أبو حامد الغزالي مثالاً رائعاً على ذلك فيقول:

(إعلمْ أن مثال القلب مثال حصن، والشيطان عدو يريد أن يدخل الحصن فيملكه ويستولي عليه، ولا يقدر على حفظ الحصن من العدو إلا

---

(1) رواه الإمام أحمد 93/10 – 94، حديث 11178، وإسناده حسن.

بحراسة أبواب الحصن ومداخله ومواضع ثلمه، ولا يقدر على حراسة أبوابه من لا يدريها، فحماية القلب من وسواس الشيطان واجب، وهو فرض عين على كل مكلف، ولا يتوصل إلى دفع الشيطان إلا بمعرفة مداخله، فصارت معرفة مداخله واجبة)(1).

ومن طرق إضلاله: إلقاء الخواطر الآمرة بالفحشاء وكل سوء في رُوْع الإنسان بغية إضلاله وصده عن طريق الله، وإذا علمنا أن للشيطان نفوذاً في الدخول إلى النفس البشرية، حتى صار يجري من ابن آدم مجرى الدم، أدركنا أن باستطاعته إضلال مَنْ لم يتحصن بالإيمان الحق. ويستغل الشيطان غفلة الإنسان، فيبذر الوساوس في نفسه: فيأتي أهل الإيمان بشبهات قد تؤدي إلى الكفر ليفتنهم عن الإسلام، ولم ينج كثير من الناس من تلك الوساوس، حتى إن من صحابة النبيﷺ من قال للرسول الكريم: (يا رسول الله، إني أحدِّث نفسي بالشيء، لأنْ آخرَّ من السماء أحبُّ إليّ من أن أتكلم به! فقال النبيﷺ: «الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الحمد لله الذي ردَّ كيده إلى الوسوسة»)(2).

ولما سئل النبيﷺ عن الوسوسة: قال: «تلك محض الإيمان»(3). ذلك لأن المصابين بتلك الوسوسة مع كراهتها في نفوسهم والعمل على دفعها

(1) مكاشفة القلوب للشيخ أبي حامد الغزالي ص71، الطبعة الأولى 1987، مكتبة الشرق الجديد، بغداد.

(2) رواه الإمام أحمد 518/2، حديث 2097.

(3) رواه مسلم في كتاب الإيمان (باب: بيان الوسوسة في الإيمان، وما يقوله من وجدها) 119/1، حديث 133.

من قلوبهم هو من الإيمان الصريح، فقد دفع هؤلاء الوساوس فصار الإيمان صريحاً في قلوبهم.

وكثيراً ما يأتي الشيطان إلى المسلم في صلاته، فيذكره بأشياء قد نسيها أو في أمور تهمه، فيقول له: اذكر كذا، اذكر كذا، كي ينصرف المسلم من صلاته ولم يعقل شيئاً منها؛ بل من الناس من لم يدر كم صلى من الركعات، والإنسان حين يصاب بهذا إذا هُرِعَ إلى الله فتذكّره واستعاذ به من وساوس الشيطان، فسرعان ما ينخنس وينقبض ويولي هارباً. يقول ابن قيم الجوزية -رحمه الله-:

(... ذكر الله يقمع الشيطان ويؤلمه ويؤذيه كالسياط والمقامع التي تؤذي مَنْ يُضرب بها... ولهذا يكون شيطان المؤمن هزيلاً ضئيلاً مضنى مما يعذبه المؤمن ويقمعه به من ذكر الله وطاعته... وفي أثر عن بعض السلف: أن المؤمن ينضي شيطانه كما ينضي الرجل بعيره في السفر؛ لأنه كلما اعترضه صبّ عليه سياط الذكر والتوجه والاستغفار والطاعة، فشيطانه في عذاب شديد ليس بمنزلة شيطان الفاجر الذي هو معه في راحة ودعة، ولهذا يكون قوياً عاتياً شديداً)(1).

أجل إنَّ من يستجيب لتلك الوساوس الشيطانية من غير أن يدفعها عنه قد يصل به الأمر أن يكون كافراً أو منافقاً، وكثيراً ما يأتي الشيطان إلى عباد الله الصالحين ليضلهم عن سبيل الله أكثر مما يأتي غيرهم؛ لأن الشيطان قد كسب الضالين إلى صفه، فهم طوع إشارته، لذلك لا يهتم

---

(1) بدائع الفوائد لابن قيم الجوزية 256/2، إدارة الطباعة المنيرية.

كثيراً بمن يعاقر الخمرة ويعكف على المحرمات، ولكن يهمـه المؤمنـون صـادقو الإيمـان ممـن تتعفر جباههم بالسجود لـلـه، وبمن ربـتهم المحاريـب فـصاروا يقومـون الليـل والنـاس نيـام، فيتوجه إليهم بوساوسه وخداعه ومواربته؛ لعله يضل من استطاع منهم عن سـبيل اللــه، ولا يكتفي الشيطان بوسوسته للإنسان مرة واحـدة أو مـرتين بـل يكـرر وسواسـه مـرات ومـرات، ولذلك قالوا: كُرر حرف الواو والسين فقالوا: (وسوس)؛ لكثرة تكرار الوسواس، ولفظ (وسـوس) مثل لفظ (زلزل) و(قلقل). يأتي الـشيطان إلى العـالم، ويطلـب منـه أن يجلـس في بيتـه ويـدع الناس وشأنهم، موحياً إليه أنه إن لم يفعل ذلك، فيصاب بفتنة الشهرة والسمعة، وقـد يـدخل إلى قلبه الرياء وهو لون من ألوان الشرك!. وبهذه الخديعة يجعل العالم حبيـساً في داره، تاركـاً المجال فسيحاً واسعاً أمام الضالين المضلين الذين يتجهون إلى الناس ويخالطونهم، ثم ينحرفـون بعقائدهم وأخلاقهم، ويزلزلون فيهم الإيمـان ناسـياً ذلـك العـالم أو متناسـياً قولـه تعـالى: (**إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ الـلـه وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُـوا فَأُولَئِـكَ أَتُـوبُ عَلَـيْهِمْ وَأَنَـا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾**) سورة البقرة.

ومما يروي لنا التابعي الجليل عامر الشعبي أن رجالاً (خرجوا من الكوفة ونزلـوا قريبـاً يتعبـدون، فبلغ ذلك عبد الـلـه بن مسعودﷺ فأتاهم، ففرحوا بمجيئه إليهم فقال لهم: ما حَمَلكم على ما صنعتم؟ قـالوا: أحببنـا أن نخـرج مـن غـمار النـاس نتعبـد، فقـال عبـد اللــه: لـو أن النـاس فعلـوا مثـل مـا

فعلتم فمن كان يقاتل العدو؟ وما أنا ببارح حتى ترجعوا)(1).

وهذا التابعي الجليل عبد اللـه بن المبارك، وهو من هو علماً وفقها ومعرفة ودراية بما يحتاجه عصره، يعود من بعض معاركه، فيرسل إلى الفضيل بن عياض الأبيات الآتية:

يـا عابـد الحـرمين لـو أبْـصرتنا ... لعلمـتَ أنـك في العبـادة تلعـبُ
مَـنْ كـان يخـضب خـده بدموعـه ... فنحورُنـا بـدمائنا تتخـضب
أو كـان يُتعـب خيلـه في باطـل ... فخيولنـا يـوم الكريهـة تتعـب
ريـح العبـير لكـم ونحـن عبيرنـا ... رهـج الـسنابك والغبـار الأطيـب
ولقـد أتانـا عـن مقـال نبينـا ... قـول صـحيح صـادق لا يكـذب
لا يـستوي وغبـار خيـل اللـه في ... انـف أمـرئ ودخـان نـار تلهـب
هـذا كتـاب اللـه ينطـق بيننـا ... لـيس الـشهيد بميـت لا يكـذب(2)

ويحسن بي هنا أن أنقل ما دبجه يراع (ابن قيم الجوزية) رحمه اللـه في تدرج الشيطان بوساوسه مع ابن آدم، فإنه مفيد ونافع بإذن اللـه لمن تأمله وتدبره ووعاه وعقله، فقد ذكر ست مراتب من وساوسه، وذلك في كتابه القيم بدائع الفوائد:

المرتبة الأولى: شرّ الكفر والشرك ومعاداة اللـه ورسوله:

فإذا ظفر بذلك من ابن آدم برد أنينه واستراح من تعبه معه، وهو أول ما يريد من العبد، فلا يزال به، حتى يناله منه، فإذا نال ذلك صيره

(1) كتاب الزهد والرقائق لعبد اللـه بن المبارك ص498.

(2) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي 202/1 تحقيق: مصطفى عبد القادر أحمد عطا، الطبعة الأولى 1420- 1999، دار الكتب العلمية، بيروت.

من جنده وعسكره واستنابه على أمثاله وأشكاله، فصار من دعاة إبليس ونوابه، فإن يئس منه من ذلك -وكان ممن سبق له الإسلام في بطن أمه- نقله الى المرتبة الثانية من الشر.

المرتبة الثانية: شرُّ البدعة:

وهي أحب إليه من الفسوق والمعاصي؛ لأن ضررها في نفس الدين وهو ضرر متعد، وهي ذنب لا يتاب منه، وهي مخالفة لدعوة الرسل، ودعاء إلى خلاف ما جاءوا به، وهي باب الكفر والشرك، فإذا نال منه البدعة، وجعله من أهلها بقي أيضاً نائبه وداعياً من دعاته فإن أعجزه من هذه المرتبة، وكان العبد ممن سبقت له من الله موهبة السنة ومعاداة أهل البدع والضلال، نقله إلى المرتبة الثالثة من الشر.

المرتبة الثالثة: شرّ الكبائر على اختلاف أنواعها:

فهو أشدّ حرصاً على أن يوقعه فيها ولا سيما إذا كان عالما متبوعاً، فهو حريص على ذلك لينفر الناس عنه، ثم يشيع من ذنوبه ومعاصيه في الناس، ويستنيب منهم مَن يشيعها ويذيعها، تديناً وتقرباً بزعمه إلى الله تعالى، وهو نائب إبليس ولا يشعر، فإن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم، هذا إذا أحبوا إشاعتها وإذاعتها، فكيف إذا تولوا هم إشاعتها وإذاعتها لا نصيحة منهم ولكن طاعة لإبليس ونيابة عنه، كل ذلك لينفر الناس عنه وعن الانتفاع به، وذنوب هذا ولو بلغت عنان السماء أهون عند الله من ذنوب هؤلاء، فإنها ظلم منه لنفسه إذا استغفر الله وتاب إليه قبل الله توبته، وبدّل سيئاته حسنات، وأما ذنوب أولئك، فظلم للمؤمنين، وتتبع لعورتهم، وقصد لفضيحتهم، والله سبحانه

بالمرصاد لا تخفى عليه كمائن الصدور ودسائس النفوس، فإن عجز الشيطان عن هذه المرتبة نقله إلى المرتبة الرابعة.

المرتبة الرابعة:

وهي الصغائر التي إذا اجتمعت فربما أهلكت صاحبها كما قال النبيﷺ: «إياكم ومحقرات الذنوب كقوم نزلوا في بطن واد، فجاء ذا بعود وجاء ذا بعود، حتى أنضجوا خبزهم، وإن محقرات الذنوب متى يأخذ بها صاحبها تهلكه»(1).

ولا يزال يسهل عليه أمر الصغائر حتى يستهين بها، فيكون صاحب الكبيرة الخائف منها أحسن حالاً منه، فإن أعجزه العبد من هذه المرتبة نقله إلى المرتبة الخامسة.

المرتبة الخامسة: الاشتغال بالمباحات:

وهي إشغاله بالمباحات التي لا ثواب فيها ولا عقاب، بل عاقبتها فوت الثواب الذي ضاع عليه باشتغاله بها، فإن أعجزه العبد من هذه المرتبة، وكان حافظاً لوقته، شحيحاً به يعلم مقدار أنفاسه وانقطاعها وما يقابلها من النعيم والعذاب نقله إلى المرتبة السادسة:

المرتبة السادسة: الاشتغال بالعمل المفضول عما هو أفضل منه:

وهو أن يشغله بالعمل المفضول عمّا هو أفضل منه؛ ليزيح عنه الفضيلة، ويفوته ثواب العمل الفاضل، فيأمره بفعل المفضول، ويحضه عليه، ويحسنه له إذا تضمّن ترك ما هو أفضل وأعلى منه، وقلّ من ينتبه لهذا من الناس، فإنه إذا رأى فيه داعياً قوياً ومحركاً إلى نوع من الطاعة

---

(1) رواه الإمام أحمد في مسنده 433/16، حديث 22707، وإسناده صحيح.

لا يشك أنه طاعة وقربة، فإنه لا يكاد يقول: إن هذا الداعي من الـشيطان ،فـان الـشيطان لا يأمر بخير، ويرى ان هذا خير فيقول هذا الداعي من اللـه، وهو معـذور، ولم يـصل علمـه إلى أن الشيطان يأمر بسبعين باباً من أبواب الخير: إما ليتوصل بها إلى باب واحد من الـشر، وإمـا ليفوت بها خيراً أعظم من تلك السبعين باباً وأجل وأفضل، وهذا لا يتوصل إلى معرفته إلا بنور من اللـه يقذفه في قلب العبد يكون سببه تجريد متابعة الرسـولﷺ، وشـدة عنايتـه بمراتـب الأعمال عند اللـه وأحبها إليه وأرضـاها لـه، وأنفعهـا للعبـد، وأعمهـا نـصيحة للـــه ولرسـوله ولكتابه ولعباده المؤمنين خاصتهم وعامتهم، ولا يعرف هذا إلا مَن كـان مـن ورثـة الرسـولﷺ ونوابه في الأمة وخلفائه في الأرض، وأكثر الخلـق محجوبـون عـن ذلـك، فـلا يخطـر بقلـوبهم، واللـه يمنّ بفضله على من يشاء من عباده، فإذا أعجزه العبد من هذه المراتب الـست، وأعيـا عليه، سلط عليه حزبه من الإنس والجن بأنواع الأذى والتكفير، والتضليل والتبـديع والتحـذير منه، وقصد إخماله وإطفائه، ليشوش عليـه قلبـه ويـشغل بحربـه فكـره، وليمنـع النـاس مـن الانتفاع به، فيبقى سعيه في تسليط المبطلين من شياطين الإنس والجن عليـه لا يفـتر ولا ينـي، فحينئذ يلبس المؤمن لأمة الحرب، ولا يضعها عنه إلى الموت، ومتى وضعها أسر أو أُصيب، فـلا يزال في جهاد حتى يلقى اللـه(1).

---

(1) بدائع الفوائد لابن قيم الجوزية 260/2- 262، إدارة الطباعة المنيرية- دار الكتاب العربي، بيروت.

2- الغضب:

الغضب نقيض الرضا، وهو انفعال في النفس البشرية، يحمل صاحبه على الانتقام شفاءاً لما في الصدر، وكثيراً ما يتصرف الغاضب تصرفاً يأباه العقل، فهو يعمي صاحبه ويصمه عن السبيل الرشيد، ويجعل الإنسان يفعل ما لا تحمد عقباه، وما يؤدي إلى الندم والوقوع في مذلة الاعتذار، وقد قال النبيﷺ: «إياك وكل ما يعتذر منه»(1). وإذا زاد الغضب في الإنسان، فقد يقتل صاحبه...! إنه أسلوب من أساليب الشيطان؛ ليفسد على الناس حياتهم؛ ذلك لأن خلقة الشيطان كانت من نار، والغضب إنْ هو إلا شعلة منها، والإنسان حين يغضب ينزع فيه عرق إلى الشيطان؛ إذ من خصائصه الاشتعال فتحدث الجرائم، وتضعف رابطة الاخوة بين الناس، لذلك نجد النبيﷺ يدعونا إلى الابتعاد عن الغضب، مبيناً أن امتلاك زمام النفس يمثل القوة الحقيقية، ولا يمثلها قوي الذراع ولا مفتول العضلات ممن يصرع الابطال في ميدان المنازلة ، لكن يمثلها مَن يملك نفسه عند الغضب، وأبان صلوات الله وسلامه عليه عن هذا المعنى بياناً واضحاً شافياً فقال:

«ليس الشديد بالصُّرَعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند

(1) سلسلة الأحاديث الصحيحة لمحمد ناصر الدين الألباني المجلد الأوّل، القسم الثاني، ص689، حديث 354.

الغضب»(1).

ولمّا كان الشيطان يثير في بني آدم الغضب، فقد دعانا النبيﷺ إلى قطع أسباب وسوسته وهو الغضب، فعن سليمان بن صُرَدؓ قال: (استبَّ رجلان عند النبي ﷺ، فجعل أحدهما يغضب ويحمرّ وجهه؛ فنظر إليه النبيﷺ فقال: «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب ذا عنه: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»)(2).

وهذا الحديث الشريف مستمد من قول الله تعالى: (**وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِالله إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾**) سورة الأعراف.

وهذا الغضب الذي يوسوس به الشيطان إذا استطاع الإنسان أن يعالجه فلا يغضب، يكون في منجاة من غضب الله تعالى، فعن عبد الله بن عمروؓ: أنه سأل رسول الله ﷺ: ماذا يباعدني من غضب الله ﷻ؟ قال: «لا تغضب»(3).

هذا هو الغضب المذموم، وهناك غضب محمود: وهو ما كان في جانب الحق، وبخاصة إذا انتهكت حرمات الله... جاء في الحديث النبوي الشريف: (ما انتقم رسول اللهﷺ لنفسه في شيء قط، إلاّ أنْ تنتهك حرمة

---

(1) رواه البخاري في كتاب الأدب (باب: الحذر من الغضب) ص1518، حديث 6114، ومسلم في كتاب البر والصلة والآداب (باب: فضل من يملك نفسه عند الغضب) 2014/4، حديث 2609.

(2) رواه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب (باب: فضل مَن يملك نفسه عند الغضب) 2015/4، حديث 2610.

(3) رواه الإمام أحمد في المسند بإسناد صحيح 194/6، حديث 6635.

الـلـه، فينتقم بها الـلـه)(1).

3- الوعد والأماني الكاذبة:

تسير النفس البشرية وراء من يعدها ما تهواه، ويرغبها فيما تحبه، وما اسـتطاع أحـد أن يلعب بعقول مّن لا إيمان لهم، أو مَن كان إيمـانهم ضـعيفاً، أو الـسذج مـن النـاس كـما فعـل الشيطان واستطاع الشيطان أن يفعل الأفاعيل، بما قدمه من الوعد والأماني لمـن يـنهج نهجـه، ويسلك طريقه، فغوى من غوى من الناس، وهل رأس مال الشيطان غير الأماني الكاذبة؟! وقد أشار القرآن الحكيم إلى عمله هذا فقال تعالى عن الشيطان: (**لَعَنَهُ الـلــه وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ الـلــه وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ الـلــه فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا ﴿١١٩﴾**) سورة النساء.

وقال عنه –أيضاً-:

(**يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾**) سورة النساء.

إن الإنسان يحرص على طول عمره، ويأتيه الشيطان يعده بـذلك، ويـزين لـه أن يـستغرق في ملذاته وشهواته المحرمة موحياً إليه بأن العمر طويل، ويستطيع أن يتوب في آخر حياته!.. وسرعـان ما يُخدع الإنـسان؛ فيقـدم عـلى الـشهوات المحرمـة يعبُّهـا عبـاً، ويمتلكـه النـدم حـين يتبـين لـه أن

(1) رواه البخاري في كتاب الأدب (باب: قول النبيﷺ: يسروا ولا تعسروا) ص1520، حديث 6126.

وعود الشيطان كانت غروراً؛ فاخترمته المنية من غير أن يطول عمره!. وقد قال الحسن البصري يوما لجلسائه: يا معشر الشيوخ، ما ينتظر بالزرع إذا بلغ؟ قالوا: الحصاد. قال: يا معشر الشباب، إنّ الزرع قد تدركه العاهة قبل أن يبلغ(1).

ويأتي الشيطان ناساً آخرين، فيمنيهم بارتفاع مكانتهم والظفر بأعدائهم، وبكثرة ما يحصلون عليه من مال إن هم اعتقدوا اعتقاد المشركين، وعملوا عمل الكافرين!!.

ويأتي الأغنياء فيحضهم على جمع الدنانير والدراهم بأية طريقة كانت، فيقومون بظلم الناس، ويغشون في أعمالهم من أجل جمع المال ... ويندم هؤلاء أشدَّ الندم حين تنكشف الأمور لهم، ويتبينون أنهم خدعوا بوعود الشيطان الكاذبة وأمانيه الباطلة، فقد وعدهم الباطل ومناهم المحال، قال الله تعالى: (**وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّه وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾**) سورة إبراهيم.

وهكذا يسلك الشيطان مع أوليائه السائرين في طريق ضلاله، ممن لم يتمكن الإيمان في قلوبهم هذه السبل في الخديعة، فيوردهم النار ثم يتبرأ منهم.

---

(1) الزهد الكبير للبيهقي، ص230، دار القلم، الكويت.

4- تزيين الأعمال السيئة:

التزيين: هو التجميل والتحسين. والشيطان بما يملكه من خداع ومكر ودخـول إلى قلـوب الناس، يزين الأعمال القبيحة للإنسان فيظهرها بمظهر حسن، ولم يترك وسيلة من وسائل تزيين القبيح إلاّ اتبعها، بغية إضلال الناس وصدهم عن سبيل اللـه، ومـن ذلـك: تحـسينه المعـاصي من شرب الخمرة، ومعاكـسة النـساء، والنظـر إلى الأفـلام الخليعـة التـي تـؤول مـشاهدتها إلى ارتكاب الفاحشة، وإلى ظلم الناس بعضهم بعـضاً، وإلى كـل مـا حرمـه اللــه...! وتـزيين هـذه المعاصي وأمثال لها لم يكن خاصاً بالأمة الإسلامية وحدها، بـل هـو عمـل الـشيطان مـع الأمـم كلها، قال تعالى على لسان إبليس: (**قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ** ﴿٣٩﴾)سورة الحجر.

وزيَّن الشيطان للأمم الكافرة أعمالهم السيئة، قال تعالى: (**تَاللـه لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴿٦٣﴾)سورة النحل.

وقد ذكر اللـه في القرآن الكريم أمماً زيَّنَ الشيطان أعـمال الـشرِّ فيهـا، منهـا: قـوم عـاد وثمود، وسبأ وكفار قريش، والمرتدون عن الإسلام... كما أضل الشيطان أيـضاً الـذين يتحـاكمون لغير شرع اللـه، والذين يُعرضون عن ذكره تعالى، والذين يشربون الخمرة ويلعبون الميسر...!.

ومــن تــزيين الــشيطان للمعــاصي تــسمية الأشــياء بغــير أســمائها لإغــواء النــاس بهــا فيــسمون الخمــرة التــي هــي أم الخبائــث بالمــشروبات الروحيــة،

ويسمون الربا بالفائدة، ويسمحون بالكفر وتضليل عقائد الأمة باسم حرية الفكر ويسمون تبرج المرأة وإظهار مفاتنها أمام الرجال الأجانب تقدمية...!.

ولا ريب أن تزيين المعاصي إن هو إلا ضرب من ضروب الصدّ عن سبيل اللـه ... وتتعدد مناهج الشيطان، والهدف واحد.

5-التخويف بالفقر:

عمل الشيطان –وما زال كذلك يعمل- على تشويه عقيدة المسلم التي نصَّت على أن النفع والضر بيد اللـه وحده، وأنّ من أسمائه تعالى (النافع) و(الضار)، وأنه تعالى كتب ارزاق العباد وكتب أعمارهم أيضاً، فلا يستطيع أحد أن يمنع أحداً ديناراً واحداً ولا درهما إذا كان اللـه قد كتبه له، ولا يستطيع أحد أن يُقدم يوماً أو ساعة من حياة أي إنسان كان، ولا يؤخر أجله يوماً أو ساعة .... هذا ما ذكره القرآن، وما ذكره النبيﷺ. ويأتي الشيطان إلى الإنسان بوساوسه، يخوفه الموت والفقر، ويزين له الابتعاد عن أي عمل كان من أعمال الخير، وكمثال واحد من أمثلة كثيرة على ما يتبعه الشيطان في التخويف من الفقر: دعوته الناس إلى قبض أيديهم عن دفع حق الفقراء من المال، والبخل عن دفع المال لنشر دعوة الإسلام، ذلك لأن هذه الدعوة كما هي بحاجة إلى الجهاد في سبيل اللـه لإعلاء كلمته تعالى، فإنها بحاجة أيضاً إلى بذل المال في سبيل اللـه، وقد قال اللـه تعالى:

(إِنَّ اللـه اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ

يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللـه فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللـه فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾) سورة التوبة.

وقال عن هذه البيعة الحسن البصري رحمه اللـه:

(بيعة رابحة، وكفة راجحة، بايع اللـه بها كل مؤمن... واللـه ما على الأرض مؤمن إلاَّ وقد دخل في هذه البيعة)(1).

ويأتي الشيطان بمكره وخداعه ليصد المسلم عن الإنفاق في سبيل اللـه، فيوسوس له أنه بحاجة لهذا المال، وأن أولاده بحاجة له أيضاً، وأن الإنفاق منه يعرضه إلى النقصان أو الزوال .... وهكذا حتى يخوفه الفقر، فإذا لم يكن الإيمان قد تمكّن من قلب المسلم فإنه ينخدع بوساوسه، لذلك صار واجباً حتماً على المسلمين أن يقفوا موقفاً حازماً صارماً من تخويف الشيطان لهم، قال اللـه تعالى: (**إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾**)سورة آل عمران.

ووصف النبيﷺ أساليب الشيطان في التخويف من الأعمال الصالحة: كالإسلام والهجرة والجهاد في سبيل اللـه، وكيف يقاوم المؤمن صادق الإيمان هذه الوساوس فقال:

«إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرُقه: فقعد له بطريق الإسلام فقال: تُسلم، وتذر دينك ودين آبائك وآباء أبيك؟! فعصاه، فأسلم! ثم قعد له

---

(1) التفسير الكبير للفخر الرازي 199/16، المطبعة البهية المصرية 1357- 1938 القاهرة.

بطريق الهجرة فقال: تهاجر وتَدَع أرضك وسماءك، وإنما مَثَلُ المهاجر كمثل الفَرَس في الطِّوَل؟! فعصاه فهاجر! ثم قعد له بطريق الجهاد فقال: تجاهد، فهو جَهْدُ النفس والمال، فتقاتل، فتُنكح المرأة، ويُقسَمُ المال؟! فعصاه فجاهد»(1).

6- الغفلة والتغافل والنسيان:

الغفلة والتغافل ونسيان ما أمر الله به ورسوله من أحكام الشريعة: هي من أساليب الشيطان، فيقوم بإشغال الإنسان بأمر أو أمور تهمه؛ لينسى أو يتناسى أوامر الله ونواهيه، فيعمل -مثلاً- على أن ينسى المسلم ذكر الله تعالى؛ لأن من يذكر الله يصير قلبه مشغولاً به سبحانه، ونسيان ذكر الله يجعل القلب فارغاً من الإيمان؛ فيستخدمه الشيطان في الضلال والفساد.

وهناك لون آخر من ألوان النسيان يقوم به الشيطان، فيدعو أولياءه من شياطين الإنس إلى الاستهزاء أو السخرية ببعض أحكام الشريعة، ويجلس مع هؤلاء ناس ممن آمن بالله واليوم الآخر، ويستمعون إلى شبهات يثيرها هؤلاء عن الإسلام لينحرفوا بعقائد الناس إلى الكفر أو الضلال... فجاء النهي من الله تعالى عن الجلوس معهم حتى يخوضوا في حديث غيره، ويفعل الشيطان فعله في الإنسان فينسى هذا الحكم فيجلس مع الذين يخوضون في آيات الله، فإذا تذكّر أمره تعالى بوجوب

(1) رواه الإمام أحمد في مسنده 390/12- 391، حديث 15900، والنسائي- واللفظ له – في صحيح سنن النسائي للألباني 380/2، حديث 3134.

مفارقة ذلك المجلس سارع في القيام منه، وأشعر الجالسين أنه قام من مجلسهم لمساسهم بدينه؛ لأن الدين لدى المسلم أعز عليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين، وهذا ما نصّ عليه القرآن الكريم قال تعالى:

(وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾) سورة الأنعام.

وفي هذه الآية دليل واضح على ما يقوم به الشيطان؛ إذ يُنسي قسماً من الناس هذا الحكم، ولا يكون المسلم مؤاخذاً بالنسيان؛ لأن القلم رُفع عن الناسي، ولكن عليه أن يبادر بترك ذلك المجلس إذا تذّكر. والشيطان يهمه أن يكثر جلساء المجالس الذين يخوضون في آيات اللـه: بإثارة شبهات أو شبهة مضلة؛ فتضله عن صراط اللـه المستقيم.. وحتى لو لم يضل، فقد يتهاون ويسكت أمام الطاعنين بدين اللـه من كثرة مجالسته لهم، ويأتي النهي والوعيد الشديد على مَن يقعد بعد الذكرى مع الذين يكفرون بآيات اللـه ويستهزئون بها، بأن حكمهم يصير كحكم الكافرين والمستهزئين، وفي هذا وعيد شديد لمن يجالسهم ويقرهم، وقد نصَّ على هذا قوله تعالى:

(وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللـه يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللـه جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾) سورة النساء.

وهل هناك تهديد شديد أكثر من هذا التهديد (إنكم إذن مثلهم؟!) ومَن يرضى أن يكون مع الكافرين والمنافقين في جهنم؟!!.

كيف يتحصن المسلم من وساوس الشيطان؟

هناك أمور قولية وعملية إذا قام بها المسلم قياماً صحيحاً بنية خالصة للـه، وقاه اللـه شرّ وساوس الشيطان، منها ما يأتي:

1- الاستعاذة باللـه من الشيطان الرجيم:

ورد لفظ الاستعاذة في اللغة: بمعنى الالتجاء والاعتصام والاستجارة بمن يملك قوة للاعتصام به من المكروه، وقد أمر اللـه به عباده أن يستعيذوا به من كل شر، ولا تكون الاستعاذة إلا باللـه وأسمائه وصفاته، وكل من استعاذ به تعالى يعيذه ويعصمه ويقيه، وهي دواء يزيل نزغات الشيطان التي تضل بني آدم.

وحين يتعوذ الإنسان باللـه، فإنه يقرّ بان قدرة اللـه هي القدرة التي لا يقف أمامها شيء فيخضع للـه، ولا يجد الغرور إلى نفسه سبيلاً؛ لأنّ اللـه تعالى أقوى وأكبر وأقدر، وهنا يلجأ المؤمن إلى اللـه في طرد كل وسواس، بعد أن يستحضر المستعيذ باللـه عظمة خالقه، فيستعيذ به وقلبه قد تعلّق به فيفرّ من حوله وقوته إلى حول اللـه وقوته، ويتحصن باللـه وحده، قال اللـه تعالى:

(ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾) سورة المؤمنين.

وقال: (وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللـه إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾) سورة الأعراف.

وقال: (وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللـه إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾) سورة فصلت.

أي إذا حاول الشيطان بما يحمله من وسوسة ومكر وخداع أن

يدعوك إلى ارتكاب الشر والفساد، فأفزع إلى اللـه معتصماً بجنابه، فهو القادر أن يدفع عنك وساوس الشيطان، ويصونك من نزغاته.

وإذا كان القرآن الحكيم قد طلب منا أن نتعوذ من الشيطان الرجيم، فلأنه عدو للإنسان يبغي الإضرار به في الدنيا والآخرة، وحين يستعيذ المسلم باللـه من الشيطان، فكأنه يقول: إني استجير بحول اللـه وقوته من شرِّ الشيطان الذي يريد أن يـضرني في دينـي ودنيـاي، ويـصدني عن فعل الخيرات، ويدعوني إلى ارتكاب المنكرات.

ولقد كان النبيﷺ كثير التعوذ باللـه من الشيطان الرجيم، وكان مـن تعـوذه إذا دخـل الخلاء قوله: «اللـهم إني أعوذ بك من الخُبث والخبائث»(1) أي: ذكران الشياطين وإناثهم.

وكانﷺ يقول عند الفزع من النوم: «بسم اللـه، أعوذ بكلمات اللـه التامة مـن غـضبه وشرِّ عباده، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون»(2).

إن الشيطان الرجيم يستغل الضعف البشري –وبخاصـة عنـد الغـضب وقلـة الـصبر عـن الإساءة– فينزغ في النفس البشرية، فتثور وتصير مفقودة الزمام، وتـأتي الاسـتعاذة باللــه مـن الشيطان الرجيم، لتكون وقاية للمؤمن يعتصم بها من تلك النزغات، كيلا ينفذ الشيطان عـلى نفسه عن طريق الغضب، وقد مرّ بنا حديث سليمان بـن صُردﷺ قـال: (اسـتبّ رجـلان عنـد

(1) رواه مسلم في كتاب الحيض (باب : ما يقول إذا اراد دخول الخلاء) 283/1، حديث 375.

(2) رواه أبو داؤد بإسناد حسن في كتاب الطب (باب: كيف الرقي) ص698، حديث 3893.

النبيﷺ، فجعل أحدهما يغضب ويحمرّ وجهه، فنظر إليه النبيﷺ فقال: «إني لأعلم كلمة لـو قالها، لذهب ذا عنه: أعوذ باللـه من الشيطان الرجيم»(1).

وقال النبيﷺ:

«يأتي الشيطان أحدكم فيقول: مَنْ خلقَ كذا؟ مَن خلقَ كذا؟ حتى يقول: مَنْ خَلَقَ ربُّك؟ فإذا بلغه، فليستعذ باللـه ولينته»(2).

وسؤال الشيطان فيه نزغة مـن نزغاتـه، فـإذا ألقاهـا في روع الإنـسان، فـلا يجـوز لـه أن يسترسل معه، بل عليه أن يعلم أن ذلـك مـن وساوسـه، وعـلاج ذلـك: الاسـتعاذة باللــه مـن الشيطان الرجيم، والوقوف عند هذا الحد. وهكـذا نجـد الاسـتعاذة أمانـاً واطمئنانـاً للإنـسان تدخل الراحة إلى نفسه، وتبعث الأمل في فؤاده، فيجد سعادته المثلى التي يفقدها من لم يكـثر الاستعاذة من الشيطان الرجيم.

2- ذكر اللـه ﷻ:

المراد بذكر اللـه: تمجيد العبد لربه، والثناء عليه وحمده، وتعظيمه ، والشكر له.

وذكـر اللــه غـذاء روحـي يعـصم الإنـسان عـن الانـسياق مـع وسـاوس

---

(1) رواه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب (باب: فضل من يملك نفسه عند الغضب) 2015/4، حديث 2610.

(2) رواه البخاري في كتاب بدء الخلق (باب: صفة إبليس وجنوده) ص837، حديث 3276، ومسلم في كتاب الإيمان (باب: بيان الوسوسة في الإيمان، وما يقوله من وجدها) 120/1، حديث 134.

الشيطان ... إنه حياة القلوب، وغذاء الروح، يجد الإنسان فيه الطمأنينة، ولا يجد الذاكر القلق إلى نفسه سبيلاً، فيصون صاحبه عن اقتراف المعاصي، ويحضه على الطاعات، ويترك أثره الكبير في نفسه: فإذا غفل القلب عن ذكر اللـه، جثم الشيطان على القلب، وبثّ فيه الوساوس التي تعكّر عليه حياته، بل تعكّر عليه عقيدته أيضاً، ولكن ما إن يذكر العبد ربه، ويستعيذ باللـه من الشيطان الرجيم، حتى ينخنس الشيطان وينقبض، ولابد أن يجد الذاكر للـه في قلبه الطمأنينة، ويبتعد عن المعاصي ويكثر من الطاعات، ويجد الذاكر لذة في ذكره، فإن لم يجد الذاكر للـه في نفسه ذلك، فيكون قد أتى بصورة الذكر ولم يأت بحقيقته واللـه تعالى يقول:

(**أَلَا بِذِكْرِ اللـه تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾**) سورة الرعد.

ولقد وردت آيات كثيرة في القرآن داعية إلى الذكر، وكذلك أحاديث النبيﷺ، فمن آيات القرآن قوله تعالى:

(وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٠٥﴾) سورة الأعراف.

وقوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللـه ذِكْرًا كَثِيراً ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾) سورة الأحزاب.

ونهى ﷻ المؤمن أن يلهيه ماله أو ولده عن ذكر اللـه، فقال تعالى:(**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللـه وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾**) سورة المنافقين.

وقد أكدّ الرسول الكريم صلوات اللـه وسلامه عليه على هذا الجانب فقال: «مثل الـذي يذكر ربه والذي لا يذكر مثل الحي والميت»(1).

وقال:

«مَن قعد مقعداً لم يذكر اللـه فيه كانت عليه من اللـه تِرَه، ومَن اضـطجع مَـضْجعاً لا يذكر اللـه فيه كانت عليه من اللـه تره»(2).

وفضائل الذكر كثيرة، وأفضله: تلاوة القرآن في الـصلاة، ثـم في غـير الـصلاة ثـم في الـدعاء والاستغفار....

وذكر اللـه هو أيسر العبادات، ولا يجد الإنسان مشقة في فعلـه، فيـذكر اللــه في بيتـه وسوقه وقيامه وقعوده وسفره وإقامته وفي شأنه كلـه. ويـشير سـيدنا معـاذ بـن جبـلﷺ إلى فضيلة الذكر فيقول:

(ليس يتحسر أهل الجنة على شيء إلاّ ساعة مرّت بهم لم يذكروا اللـه سبحانه فيها)(3).

وذكر اللـه يكون بالقلب واللسان والأعضاء وأفضل الذكر ما كان بالقلب واللـسان معـاً، أما المراد بذكر الأعضاء فهو العمل بطاعة اللـه في الأوامر والنواهي.

---

(1) رواه البخاري في كتاب الدعوات (باب: فضل ذكر اللـه ﷻ) ص1578، حديث 6407.

(2) رواه أبو داؤد في كتاب الأدب (باب: كراهية أن يقوم الرجل من مجلسه ولا يذكر اللـه) ص879، حديث 4856.

(3) إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي 401/1، ضبط نصه وخرّج أحاديثه: د. محمد محمد تامر، الطبعة الأولى (طبعة مؤسسة المختار) 1424- 2004، مؤسسة المختار، القاهرة.

وينبغي أن لا يغرب عن البال أنّ ذكر الـلـه يحصِّن صاحبه من وسـاوس الـشيطان ومـن أذاه، قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الـشَّيْطَانِ تَـذَكَّرُوا فَـإِذَا هُـمْ مُبْـصِرُونَ ﴿٢٠١﴾) سورة الأعراف.

(وبالذكر يصرع العبد الشيطان، كما يصرع الشيطان أهل الغفلة والنسيان)(1).

فلا يكون في قدرة الشيطان أن يتسلط على الذاكرين الـلـه، لكنه يتسلط على مَن يغفُـل عن ذكره تعالى كما قال الـلـه ﷻ:

(وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾) سورة الزخرف.

الـلـهم اجعلنا ممن يذكرونك ولا يغفلون عن ذكرك!!.

وننظر في السنة النبوية، فنجد فيها أذكاراً تطرد الشيطان، ومن تلك الأذكار:

أ- ذكر الـلـه عند الاستيقاظ من النوم:

قال النبيﷺ: «يعقد الشيطان على قافية رأس أحـدكم إذا هـو نـام ثـلاث عقد، يضرب على مكان كل عقدة: عليك ليل طويل فارقد، فإن اسـتيقظ فـذكر الـلــه انحلـت عقـدة، فـإن توضـأ انحلـت عقـدة، فـإن صـلى انحلـت عقـدة،

(1) تهذيب مدارج السالكين، ألفه ابن قيم الجوزية، وهذبه: عبد المنعم صالح العلي 736/2.

فأصبح نشيطاً طيب النفس، وإلاّ أصبح خبيث النفس كسلان»(1).

ب- ذكر اللـه عند الأكل ودخول الدار:

قال النبيﷺ: «إذا دخل الرجل بيته، فذكر اللـه عند دخوله وعند طعامه، قال الشيطان: لا مبيت لكم ولا عَشَاء، وإذا دخل فلم يذكر اللـه عند دخوله قال الشيطان: أدركتم المبيت، وإذا لم يذكر اللـه عند طعامه قال: أدركتم المبيت والعشاء»(2).

جـ- ذكر اللـه عند الخروج من البيت:

قال النبيﷺ: «من قال -يعني إذا خرج من بيته- : بسم اللـه توكلت على اللـه، لا حول ولا قوة إلا باللـه، يُقال له: كُفيتَ ووقيت، وتنحى عنه الشيطان»(3).

د- الأذان والإقامة يطردان الشيطان:

قال النبيﷺ: «إذا نودي للصلاة أدبر الشيطان وله ضراط، حتى لا يسمع التأذين، فإذا قضى النداء أقبل، حتى إذا ثُوِّب بالصلاة أدبر، حتى إذا قضى التثويب -أي إقامة الصلاة- أقبل حتى يخطر بين المرء ونفسه

(1) رواه البخاري في كتاب التهجد (باب: عقد الشيطان على قافية الرأس إذا لم يصل بالليل) ص331، حديث 1142، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين (باب: ما روي فيمن نام الليل أجمع حتى أصبح) 538/1، حديث 776.

(2) رواه مسلم في كتاب الأشربة (باب: آداب الطعام والشراب وأحكامها) 1598/3، حديث 2018.

(3) رواه الترمذي في كتاب الدعوات (باب: ما يقول إذا خرج من بيته) ص779، حديث 3426.

يقول: اذكر كذا، اذكر كذا لما لم يكن يذكر، حتى يظل الرجل لا يدري كم صلى»(1).

هـ- حرز من الشيطان:

قال النبيﷺ:«مَنْ قال: لا إله إلا اللـه وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير في يوم مائة مرة، كانت له عدل عشر رقاب، وكتبت له مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلاّ أحد عمل أكثر من ذلك»(2).

هذا هو الذكر: إنه سلاح المؤمنين، وحصنهم من وساوس الشياطين، فمن أخذ به وقاه اللـه من تلبيساتهم وخداعهم.

3- تلاوة القرآن الكريم:

تلاوة القرآن الكريم عبادة من أجلِّ العبادات، وهي غذاء للروح، وشفاء لما في الصدور، وحرز من الشيطان ووساوسه.

وفي القرآن الكريم سور وآيات تقي الإنسان من شرور الشيطان فلا يتسلط عليه، ومن تلك الآيات والسور ما يأتي:

أ- **تلاوة سورة البقرة:** قال النبيﷺ:

(1) رواه البخاري في كتاب الآذان (باب: فضل التأذين) ص216، حديث 608، ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة (باب: السهو في الصلاة والسجود له) 398/1، حديث 389.

(2) رواه البخاري في كتاب بدء الخلق (باب: صفة إبليس وجنوده) ص840، حديث 3293.

«لا تجعلوا بيوتكم مقابر، إن الشيطان ينفر من البيت الذي تُقرأ فيـه سـورة البقـرة»(1) وفي رواية أخرى:

«إن البيت الذي تُقرأ فيه البقرة لا يدخله الشيطان».

ب- **تلاوة آية الكرسي:** قال النبيﷺ:

«لكل شيء سنام، وإن سنام القرآن سورة البقرة، وفيها آية هي سيدة أي القرآن: هـي آيـة الكرسي»(2).

جـ- آخر آيتين من سورة البقرة: قال النبيﷺ:

«مَن قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه»(3).

د- تلاوة سورة الإخلاص والفلق والناس: قال النبيﷺ لعبد الـلـه بن خبيب: «قل: (**قل هو الـلـه أحد**) والمعوذتين حين تمسي وحين تصبح ثلاثاً يكفيك كل شيء»(4).

هـ- تلاوة المعوذتين: الفلق والناس:

عن أبي سعيد الخـدريﷺ قـال: (كـان رسـول الـلــهﷺ: يتعـوذ مـن

---

(1) رواه مسلم في كتاب صلاة المسافرين (باب: استحباب صلاة النافلة في بيته وجوازها في المسجد) 39/1، حديث 780.

(2) رواه الترمذي في كتاب ثواب القرآن (باب: ما جاء في فضل سورة البقرة وآية الكرسي) ص643، حديث 2876، والحاكم في كتاب التفسير (باب: سورة البقرة) 285/2، حديث 3027.

(3) رواه البخاري في كتاب فضائل القرآن (باب: في كم يُقرأ القرآن) ص1304، حديث 5051 ومسلم في كتاب صلاة المسافرين (باب: فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة) 555/1 حديث 808.

(4) رواه أبو داؤد في كتاب الاستعاذة -1- ص818، حديث 5428، وغيره.

الجان وعين الإنسان، حتى نزلت المعوذتان، فلما نزلتا أخذ بهما، وترك ما سواهما)(1).

4- الوضوء:

الوضوء في اللغة من الوضاءة: أي الحسن والنظافة، فهو النقاء من النجاسة والدنس، وقد ورد في شرائع الأنبياء كلها، وهو فرض عند الصلاة وعند الطواف ومس المصحف على ماذهب اليه جمهور العلماء، وسنة عند إرادة النوم، ومندوب عند قراءة القرآن وذكر الله والآذان والوقوف بعرفة وزيارة النبيﷺ، ووردت الأحاديث في فضله من ذلك قولهﷺ:

«الطُّهُور شَطر الإيمان»(2).

وقوله:

«من توضأ فأحسن الوُضوءَ خرجت خطاياه من جسده حتى تخرج من تحت أظفاره»(3).

وقوله:

«إن أمتي يأتون يوم القيامة غراً مُحَجَّلين من أثر الوضوء، فمن

---

(1) رواه الترمذي في كتاب الطب عن رسول اللهﷺ (باب: ما جاء في الرقية بالمعوذتين) ص465، حديث 2058، وابن ماجه في كتاب الطب (باب: من استرقى من العين) 1161/2، حديث 3511.

(2) رواه مسلم في كتاب الطهارة (باب: فضل الوضوء) 203/1، حديث 223.

(3) رواه مسلم في كتاب الطهارة (باب: خروج الخطايا مع ماء الوضوء) 216/1، حديث 245.

استطاع منكم أن يطيل غُرَّته فليفعلْ»(1).

ويبتعد الشيطان عن الناس المتوضئين، فلا يلقي إليهم بوساوسه، ويأتي أهل النجاسات والحدث، ولا عجب، فإنه يسكن في محل النجاسات والقلوب البعيدة عن اللـه تعالى، فإذا داوم المسلم على الوُضوء والطهارة تحصَّن من الشيطان ووساوسه.

5- غض البصر:

يأتي غض البصر في اللغة بمعنى خفضه. وهو فضيلة أخلاقية عالية، وأدب نفسي كبير، يدلّ على ترفع صاحبه عن الأخلاق الساقطة، وتساميه عن الشهوات الهابطة. وقد دعا القرآن الحكيم إلى غض البصر عمّا حرَّم اللـه النظر إليه –وبخاصة المرأة الأجنبية– (وقد جعل اللـه سبحانه العين مرآة القلب: فإذا غضّ العبد بصره غضّ القلب شهوته وإرادته، وإذا أطلق بصره أطلق القلب شهوته)(2).

وهو أقرب الوسائل إلى المحرّم. وإذا كان القرآن قد أمر بغض البصر فإنه لم يتجه إلى الرجال وحدهم، بل توجه أيضاً إلى النساء؛ لأن كلاً منهما قد طلب منه أن يتحلى بهذه الفضيلة، قال اللـه تعالى:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللـه خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا

(1) رواه مسلم في كتاب الطهارة (باب استحباب إطالة الغرة والتحجيل في الوضوء) 216/1، حديث 246.

(2) روضة المحبين لابن قيم الجوزية ص130، تحقيق: يوسف علي بديوي، الطبعة الثانية 1426- 2005، دار ابن كثير، بيروت، دمشق.

يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ) سورة النور 30-31.

وهذا أمر من رب العالمين إلى عباده المؤمنين أمرهم فيه أن يصرفوا أبصارهم عمّا حرّم الله النظر إليه، ويقتصروا على ما أحلَّ الله لهم من النظر إليه، وقد بدأ الله تعالى الآية: الأمر بغض البصر؛ لأنه أصل لحفظ الفرج، قال ابن قيم الجوزية رحمه الله:

(والنظر أصل عامة الحوادث التي تصيب الإنسان: فالنظرة تولد خطره، ثم تولد الخطرة فكرة، ثم تولد الفكرة شهوة، ثم تولد الشهوة إرادة ثم تقوى فتصير عزيمة جازمة، فيقع الفعل ولابدّ ما لم يمنع منه مانع...)(1).

يتضح من هذا أن النظر هو بريد الزنا، ورسول الشيطان، ورائد الفجور، ومقدمة للوقوع في الفواحش فهو يثير الشهوة، ويؤدي إلى الوقوع بالرذيلة، وفيه ما فيه من الأضرار الفتاكة التي تجعل الناظر يتقلب على جمر الغضى، ويورث الحسرات، وتظهر في وجهه وجوارحه ظلمة، فيرى مالا يقدر عليه، ولا يصبر عنه كما قال الشاعر:

وكنتَ متى أرسلتَ طرْفَك رائداً ... لقلبك يوماً اتعبتك المناظر
رأيتَ الذي لا كلّه أنت قادر ... عليه ولا عن بعضه أنت صابر

ولابدَّ لنا أن نعلم أن حمل النفس على التأدب بغض البصر ليس

(1) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي المسمى: الداء والدواء، ص177، حققه وخرَّج أحاديثه/ أسامة بن حسن بن عبد المجيد، دار الجيل، بيروت.

بالأمر اليسير، فإنه يحتاج إلى إرادة قوية وعزيمة ماضية؛ لذلك نجد النبيﷺ قد جاءت أحاديثه آمرة بغض البصر، مبينة أن النظر إلى ما حرّمه الله هو لون من ألوان الزنا المجازي، فقالﷺ:

«كتب على ابن آدم نصيبه من الزنا مدرك ذلك لا محالة : فالعينان زناها النظر، والأذنان زناهما الاستماع، واللسان زناه الكلام، واليد زناها البطش، والرجل زناها الخطا، والقلب يهوى ويتمنى، ويصدق ذلك الفرج ويكذبه»(1).

ونجد النبيﷺ في حديثه هذا قد بدأ بزنا العين؛ لأن ذلك أصل زنا اليد والرجل والقلب والفرج، وواضح من هذا الحديث أيضاً أن العين تعصي بالنظر.

ومن ثناء النبيﷺ على من يغضّ بصره عن محاسن امرأة قوله:

«ما من مسلم ينظر إلى محاسن امرأة أوّل مرة، ثم يغضّ بصره إلاّ أحدث الله له عباده يجد حلاوتها»(2).

وينصّ الله سبحانه في حديثه القدسي على أن النظر سهم مسموم من سهام إبليس، وبشّر مَنْ يتركه مخافة الله بإيمان يجد العبد حلاوته في قلبه فقالﷺ فيما يرويه عن الله عَزَّ وَجَلَّ:

«النظرة سهم مسموم من سهام إبليس، مَن تركها من مخافتي، أبدلته

(1) رواه مسلم في كتاب القدر (باب : قدّر على ابن آدم حظه من الزنا) 2047/4، حديث 2657.

(2) رواه الإمام أحمد في مسنده 256/16، حديث 22179.

إيماناً يجد حلاوته في قلبه»(1).

وأخيراً:

فإن جهود الشياطين تتجه أولاً نحو القلب، فاذا تمكنت منها أفسدتها بأساليبها الكثيرة، وعند ذاك يغلف الران القلب، فيصبح قطعة من السواد لا نور فيه، وذلك من آثار المعاصي التي أحاطت بقلب العاصي، فقسا قلبه وأظلم...!

بيد أن جهود الشيطان كلها تخفق ويعود خائباً إذا كانت القلوب عامرة بالإيمان، مبتعدة عما يغضب الرحمن، مهيأة لاستقبال كل خير وبر وإحسان، فقد تخلت عن الرذائل وتحلت بالفضائل، والتخلية قبل التحلية كما يقال.

وأول أثر من آثار الإيمان: هو تطهير القلب من العقائد الباطلة والأخلاق السافلة والأفكار الضالة المضلة المنحرفة عن هدي الله، وتنقيته من الذنوب والآثام، والعادات السيئة، والأعمال الرديئة، والانغماس في حب الدنيا وملذاتها، ثم تحليتها بالاستغفار والدعاء وصلاة الليل وصيام التطوع والزهد والإنفاق في سبيل الله....

هذا شيء قليل قليل من مداخل الشيطان إلى النفس البشرية، وشيء ليس بالكثير في تحصين المسلم من مداخل الشيطان الرجيم.

ندعو الله تعالى أن يثبتنا على نهج الاستقامة، ويجنبنا الشيطان وشروره، ويوفقنا لطاعة الله ورسوله، سائلين منه تعالى حسن الخاتمة اللهم آمين وصلى الله علي سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين!!.

---

(1) رواه الطبراني والحاكم من حديث حذيفة وقال صحيح الإسناد، ينظر: الترغيب والترهيب للحافظ المنذري 34/3.

الخاتمة

في حسن الخاتمة

لا يحرص المؤمن بالـلـه الإيمان الحق على شيء حرصه على أن تكون خاتمته حسنة، وهذا أسمى ما يتمناه ويحرص عليه. كيف لا، وهـو يعلـم أنّ صـاحب حـسن الخاتمـة يفـوز أعظـم الفوز، وينجح أعظم النجاح، ويُبشّر برضوان الـلـه.!

ونقرأ القرآن الكريم، فنجد الـلـه ﷻ يدعو عبـاده المـؤمنين أن تكـون خـاتمتهم حـسنة، وذلك حين يموتون على هذا الدين، قال الـلـه تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا الـلـه حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾) سورة آل عمران.

وهذه الآية الكريمة امر من الـلـه تعالى لكل مؤمن أن يـستمر في عبـادة الـلــه تعـالى في حالاته كلها: في غناه وفقره، وصحته ومرضه، وفي شأنه كله إلى أن يدركه الموت وهو على ذلك؛ لتكون ميتته على الإسلام (فإنّ الـلـه الكريم العظيم قد أجرى سنته: أنّه مـن عـاش عـلى شيء مات عليه، ومن مات على شيء بُعث عليه)(1).

وقال تعالى:

(وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾) سورة الحجر.

أي: استمر في عبادة ربك ما دمت حيا، ودم على عبادتك لـلـه حتى يأتيك الموت.

---

(1) تفسير ابن كثير 629/2، هذبه: الدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي، الطبعة الأولى 1429-2008، دار الفاروق، عمّان، الأردن.

هناك بشائر من النبيﷺ تدل على أنّ من اتصف بصفة من الصفات الآتيـة عنـد المـوت كانت خاتمته حسنة، من ذلك:

1- نطقه بكلمة التوحيد: قال النبيﷺ:

«من كان آخر كلامه: لا إله إلا اللـه دخل الجنة»(1).

وروى الإمام أحمد قال: (رأى عمر طلحة بن عبيد اللـه ثقيلا، فقال: ما لـك يـا أبـا فـلان؛ لعلك ساءتك إمرة ابن عمك يا أبا فلان؟ قال: لا، إلا أنى سمعت من رسول اللــهﷺ حـديثا مـا منعني أن أسأله عنه إلا القدرة عليه حتى مات، سمعته يقول: «إني لأعلم كلمة لا يقولها عبـد عند موته إلا أشرق لها لونه، ونفس اللـه عنه كربته». قال: فقال عمر: إني لأعلم ما هي. قـال: وما هي؟ قال: تعلم كلمة أعظم من كلمة أمر بها عمه عند الموت: لا إله إلا اللـه؟ قال طلحة: صدقت، هي -واللـه- هي)(2).

2- أن يقع المسلم شهيدا في سبيل اللـه، من أجل إعلاء كلمة اللـه: قال اللـه تعالى:

(وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَـبِيلِ اللــه أَمْوَاتًـا بَـلْ أَحْيَـاءٌ عِنْـدَ رَبِّهِـمْ يُرْزَقُـونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللـه مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُـوا بِهِـمْ مِـنْ خَلْفِهِـمْ أَلَّا خَـوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللـه وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللــه لَا يُـضِيعُ أَجْـرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾) سورة آل عمران.

(1) رواه أبو داؤد في كتاب الجنائز (باب: في التلقين) ص562، حديث 3116.

(2) رواه الإمام أحمد بإسناد صحيح 8/3، حديث 1384.

3- من مات محرما بحج، قال النبي فيمن وَقَصَتْهُ ناقته في الحج:

«اغسلوه بماء وسدر، وكفنوه في ثوبين، ولا تحنطوه، ولا تخمروا رأسه، فإنّ اللـه يبعثه يوم القيامة ملبيا»(1).

4- من قُتل دون ماله أو دينه أو دمه أو أهله: قال النبيﷺ:

«من قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون دينه فهو شهيد، ومن قتل دون دمه فهو شهيد، ومن قتل دون أهله فهو شهيد»(2).

5- وهكذا الأمر فيمن مات بالطاعون، أو السل، أو داء البطن، أو ذات الجنب، أو المرأة في نفاسها، والموت بالغرق والحرق، والهدم، وقد ورد في ذلك كله أحاديث.

ويفوز بحسن الخاتمة من عاش حياته في تقوى اللـه، وتمسّك بما جاء به النبيﷺ ومات على ذلك. وهكذا في المداوم على ذكر اللـه، وقد سئل النبيﷺ: (أي الاعمال أحب الى اللـه تعالى؟ قال: «أن تموت ولسانك رطب من ذكر اللـه»)(3).

6- من سأل اللـه الشهادة بصدق ومات على ذلك: قال النبيﷺ:

---

(1) رواه البخاري في كتاب الجنائز (باب: الحنوط للميت) ص202-203، حديث 1266؛ والترمذي في كتاب الحج (باب: ما جاء في المحرم يموت في إحرامه) ص232، حديث 951.

(2) رواه الترمذي في كتاب الديات (باب: فيمن قتل دون ماله فهو شهيد) ص344، حديث 1421.

(3) رواه الطبراني في المعجم الكبير 93/20، حديث 181، وابن حبان في كتاب الرقائق (ذكر البيان بأنّ المداومة للمرء على ذكر اللـه من أحب الأعمال إلى اللـه) 100/3، حديث 818.

«من سأل الـلـه الشهادة بصدق بلغه الـلـه منازل الشهداء وإن مات على فراشه»(1).

7- من أمر إماما جائرا بالمعروف ونهاه عن المنكر فقتله: قال النبيﷺ:

«سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب و رجل قام إلى إمام جائر فأمره و نهاه فقتله»(2).

وهناك بشائر أخرى في حسن الخاتمة نصّ عليها النبيﷺ، تطلب في مظانها.

من أسباب حسن الخاتمة

1- الموت على التوحيد:

إنّ أهم أصل مـن أصـول عقيـدتنا: التوحيـد، فهـو الأسـاس الـذي قـام عليـه الـدين كلـه. والتوحيد عقيدة فطرية، وقد كثرت الآيات الداعية إليه، قال الـلـه تعالى:

(**وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾**) سورة البقرة.

2- التقوى: قال الـلـه تعالى:

(**.... وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٧﴾**) سورة البقرة.

والتقوى سبب من أسباب تكفير السيئات، قال تعالى:

(1) رواه مسلم في كتاب الإمارة (باب: استحباب طلب الشهادة) ص854، حديث 4930.

(2) رواه الحاكم 215/3، حديث 4884.

(**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللـه يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللـه ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾**) سورة الأنفال.

واللـه تعالى يتقبل من المتقين، ويخرج المؤمن من كل ضيق، قال تعالى:

(**وَمَنْ يَتَّقِ اللـه يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللـه فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللـه بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللـه لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾**) سورة الطلاق.

3- الاستقامة: قال تعالى:

(**إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللـه ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ ﴿٣٢﴾**) سورة فصلت.

وسأل سفيان بن عبد اللـه الثقفيﷺ رسول اللـهﷺ فقال: (يا رسول اللـه قل لي فى الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا غيرك. قال: «قل آمنت باللـه ثم استقم»)(1).

4- حسن الظن باللـه:

وهذا سبب من أسباب حسن الخاتمة. قال النبيﷺ:

---

(1) رواه مسلم في كتاب الإيمان (باب: بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها...) ص39، حديث 159.

«لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن بالـلـه الظن»(1).

ولمّا دخل النبيﷺ على رجل وهو يموت فقال: («كيف تجدك» قال: أرجو الـلـه يـا رسـول الـلـه وأخاف ذنوبي. فقال رسول الـلـهﷺ: «ما اجتمعا في قلـب عبـد في مثـل هـذا المـوطن إلا أعطاه الـلـه الذي يرجو، وأمّنه من الذي يخاف»)(2).

وقال سليمان التيمي لابنه حين حضرته الوفاة:

(حدثني بالرخص، لعلي ألقى الـلـه وأنا أحسن الظن به)(3).

5- الإكثار من ذكر الموت:

إذا تفكّـر الإنـسان في المـوت، وتـدبر أمـره، ورأى النـاس المحتـضرين وشـاهدهم وهـم في سكرات الموت، وزار المقابر...فإنّ هذا يلين القلب القاسي، ويمنعه عـن المعـاصي، ويجعلـه عـلى الدوام في طاعة الـلـه تعالى، فإذا حضره الموت كان ذلك من أسباب حسن خاتمته.

ندعو الـلـه حسن الخاتمة! وصلى الـلـه على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

---

(1) رواه مسلم في كتاب الفتن (باب: الأمر بحسن الظنّ بالـلـه تعالى عند الموت) ص1246، حديث 7229.

(2) سلسلة الأحاديث الصحيحة لمحمد ناصر الدين الألباني 41/3، حديث 1051.

(3) مختصر منهاج القاصدين ص490.

المحتــوى

صدر للمؤلف

١- العقيدة الإسلامية
٢- إيماننا الحق بين النظر والدليل
٣- أصول التشريع الدستوري في الإسلام
٤- السنة النبوية في مواجهة التحديات
٥- السنة النبوية والتشريع
٦- الإسناد الصحيح المتصل من خصائص الأمة الإسلامية
٧- دراسة في مصطلح الحديث
٨- في صحبة الخلفاء الراشدين
٩- ما ينبغي أن يعرفه المسلم عن الصحابة
١٠- علوم القرآن
١١- تأملات في آيات القرآن
١٢- صور من صحابة رسول الله في القرآن والسنة
١٣- تفسير آيات الحجاب
١٤- السنن الكونية واستعلاء الإيمان
١٥- دراسات قرآنية
١٦- مع القران الكريم تفسير وبيان
١٧- مباحث في أصول التشريع الإسلامي
١٨- قضايا المرأة المسلمة في مواجهة التحديات
١٩- المسلمون أمام تحديات الغزو الفكري
٢٠- فقه الداعية
٢١- صرخة المنابر

٢٢- كلمات من القلب (خطب إسلامية معاصرة)
٢٣- لمحات من المبادئ الإقتصادية في الفكر الإسلامي
٢٤- قطوف دانية من مآثر المسلمين وظلام الغرب
٢٥- باقات الورود النضرة من حكايات المسلمين العطرة
٢٦- نفحات من شريعة الإسلام وصلاحها للتطبيق في كل زمان ومكان
٢٧- الذكر والدعاء في القرآن والسنة
٢٨- رسالة المسجد
٢٩- تصريحات يهودية في مواجهة الصحوة الإسلامية
٣٠- لغتنا والمؤامرة
٣١- لغة القران
٣٢- الإسلام والغرب وجها لوجه
٣٣- الدعوات القومية
٣٤- سياسة أمريكا تجاه العالم الإسلامي
٣٥- العلاج النفسي في القرآن الكريم
٣٦- رضينا بالإسلام دينا
٣٧- الجهاد في التصور الإسلامي
٣٨- العمل والعمال في الفكر الإسلامي
٣٩- الإسلام في إفريقية الوسطى
٤٠- تحقيق كتاب أصول الفقه الإسلامي للشيخ رشيد الخطيب الموصلي
٤١- أخلاقنا أو الدمار
٤٢- تحقيق كتاب إعتقاد أهل السنة والجماعة للشيخ عدي بن مسافر الأموي بالاشتراك مع الشيخ محمد علي الياس العدواني